

# الحب في المنفى

بهاء طاهر

جائزة أفضل رواية ١٩٩٥

دار الهلال

إبريل ٢٠٠١

## الفصل الأول

---

### مؤتمر كغيره

اشتهيتها اشتهاء عاجزا، كخوف الدنس بالمحارم.

كانت صغيرة وجميلة و كنت عجوزا وأبا ومطلقا . لم يطرا على بالى الحب ، ولم أفعل شيئا لأعبر عن اشتهاى.

لكنها قالت لى، فيما بعد : كان يطل من عينيك.

كنت قاهريا، طردته مدينته للغربة فى الشمال . وكانت هى مثلى ، أجنبية فى ذلك البلد، لكنها أوروبية و بجواز سفرها تعتبر أوروبا كلها مدينتها . ولما التقينا بالمصادفة فى تلك المدينة (ن ) التى قيدنى فيها العمل ، صرنا صديقين.

قيدنى العمل .. أى كذب ! .. لم أكن أعمل شيئا فى الحقيقة . كنت مراسلا لصحيفة فى القاهرة لا يهمها أن أرسلها . ربما يهمها بالذات ألا أرسلها . وفي ساعة الظهيرة فى فسحة الغداء التى تخلل يوم العمل الطويل لمن يملون كنا نجلس معا .

نشرب القهوة ، تحدثى عن نفسها وأحدثها عن نفسى ،

ويقربنا الصمت أكثر عندما نطلع عبر زجاج المقهى إلى ذلك الجبل المستطيل المتعرج ، الرايض على ضفة النهر الأخرى كتمساح طويل الذيل.

ولكنى لما بدأت أشتهبها أصبحت ثرثرا . كنت أتحصن وراء جدار الكلمات لكي لا أفتضح ، تتدافع كلماتى الفارغة جرارة ومسلية ومتتابعة ، مثل شرنقة دودة عراها جنون الغزل فلا تستطيع أن تكف ، لعلى - وكيف الآن أدرى ؟ - كنت عن غير وعى أغزل من خيوط الكلمات شبابا حولها . وكانت هى تتطلع إلى بعيتها الجميلتين ، تتسع العينان وهى وتبسم وتسألنى : من أين تأتى بكل هذا الكلام ؟ صنعتى أنا أن أتكلم فكيف تفوقت على.

ولكنى فى تلك الظهيرة لم أستطع . تبعثرت خيوط الكلمات وتمزقت . حلت فجوات طولية من الصمت كنت أنظر خلالها ساهما إلى النهر . وجلست هى منكبة على فجان قهوتها الفارغ تدبره فى الطبق ، لا أرى سوى هالة شعرها الكثيف وأنفها البارز المستقيم . وكانت ترفع رأسها فجأة ، تنظر إلى حين أسكت وتقول أكمل .. أكمل .. ولكن الكلمات لا تكتمل.

وخارج المقهى سرنا إلى حيث أركن سيارى .. سأخذها مثل كل يوم حتى باب المكتب الذى تعمل به ، أتركها وأتظاهر أنا أيضا أتى ذاھب إلى عمل . ولما وصلنا إلى السيارة قالت أريد أن نمشى قليلا هل لديك ماتع ؟

مشت بجانبى بطيئة على غير عادتها ، ولم نك نتحرك خطوات حتى توقفت وقالت بصوت حازم : اسمع لا أريد أن أراك بعد اليوم . سامحنى ولكن يحسن ألا نلتقي . أظن أتى أحببتك وأنا لا أريد ذلك . لا أريده بعد كل ما رأيته فى هذه الدنيا .

وكلت أعرف ما رأته فى هذه الدنيا فسكت لحظة وقلت كما تشاءين . ورافقتها وهى تبتعد عنى بخطوات مسرعة.

ولكن تلك لم تكن هي البداية.

في البدء كان كل شيء مختلف . يومها ترددت كثيرا في الذهاب إلى ذلك المؤتمر الصحفي. كنت أعرف سلفا أن كلاما سيقال لو أرسلته فلن تنشره الصحيفة في القاهرة ولو نشرته فسوف تختصره وتحفظه . تؤخر فقرات وتقدم أخرى بحيث لا يفهم القارئ ما الذي حدث بالضبط ولا ما هي الحكاية . فكرت وأنا في الطريق أن أذهب إلى المطار . كان ذلك هو يوم وصول الطائرة المصرية إلى المدينة التي كثيرا ما تطأها أقدام المسؤولين على غير انتظار . ربما يصل أحد الوزراء ويقول تصريحات تسعد رئيس التحرير . يضعها في الصفحة الأولى ويرضى عن أخيرا (( الوزير . . يصرح : افتادنا خرج من عنق الزجاجة . الوزير يقول : سنبث التعاون الأوروبي في انطلاقة التنمية ))

وتحولت السيارة بالفعل إلى طريق المطار . يرتاح رئيس التحرير جدا إلى انطلاقة التنمية هذه . تظهر كل أسبوع في مقالاته . منذ سنوات طويلة جدا والانطلاقة تغزو عذه من عنق الزجاجة بلا انقطاع . فلماذا لا أسعد رئيس التحرير إن أمكن .. لماذا أذهب إلى ذلك المؤتمر التعيس في هذا الصباح الصيفي الجميل؟ .. هل أنا بالفعل غاوي نكدا . كما اعتادت منار أن تقول؟ بل ولماذا أذهب إلى المطار؟ .. من قال إن وزيرا سيأتى أو إن رئيس التحرير متلهف على رسالته؟ الأفضل أن أسكت تماما . سأغفه بذلك من الاعتذارات المحرجة : والله يا فلان الرسالة وصلت متأخرة أو طبعناها فعلا ولكن أخبارا من الرئاسة جاءت في آخر لحظة وأكلت الصفحة ، أو : هل تعرف؟ .. أنا أحق مع الولد علان في القسم الخارجي لأنه لم يعرض على الرسالة . أحلته إلى التحقيق فعلا إلخ إلخ .. لماذا أتعب رئيس التحرير وأتعب نفسي؟ لن ينقطع المرتب وهذا هو ما يهم . فلنستمتع بهذا اليوم الجميل.

دخلت بالسيارة فى جانب من الطريق المرتفع الذى يشق غابة فى اتجاه المطار.

تركت الشارع المرصوف وتوغلت فى طريق مذكور يخل الأشجار ثم ركنت فى الظل . كانت الغابة رطبة وهادئة والأوراق الجديدة التى عادت تكسو الأشجار منذ وقت قليل زاهية الخضرة ، تكاد تكون شفافة .. تجتمع فى قبة هشة ناعمة تحركها الريح الخفيفة فتتسرب أشعة الشمس من بين ثقوبها المنتشرة ، موجات صفراء تسبح بسرعة فوق الحشائش ثم تختفى لكي تعود كالمفاجأة . وكانت تلك الموجات المتتابعة تنير فى مرورها الزهور البرية الصغيرة الصفراء والبيضاء تزخرف الأرض فى الصيف .. فى المرة الأولى التى سافرنا فيها إلى الخارج فى رحلة الأسبوع السياحية إلى بلغاريا، بهرتنى تلك الزخرفة المنمنمة فى الأرض مثلاً بهرت منار . سأقتنى ونحن فى الغابة . من نوع أن نقطفها ؟ قلت : لا أظن ، فراحت تجمع باقة منها وهى تنفس الألوان ، ولما أنتهت نظرت إلى الزهور يديها وقالت وفي صوتها خيبة أمل : ولكنها كانت جميلة فى الأرض ! وبالفعل كانت الزهور الصغيرة قد ماتت للتو ، طوت وريقاتها فوق قلوبها الدائرية الصفراء وتهدت سيقانها النحيلة على جانبي يدها . قلت لها : أعتقد أن هذه الزهور البرية لا تعيش إلا فى الأرض ، ثم أمسكت الباقة الذاوية ورميتها بعيداً مستقبلاً زهرة واحدة صفراء أكبر من الآخريات ظلت متماسكة ومشعرة الأوراق رشقتها فى شعر منار وأنا أقول كم أنت جميلة هكذا . وكانت بالفعل جميلة بتلك الزهرة فى شعرها الأسود فقبلتها وعذنا نضحك من جديد ، سعيدين كما كنا من قبل ، لأننا لأول مرة نتمشى وسط غابة خضراء لا يحدوها البصر . ولكن فى المساء ، ونحن فى الفندق ، كان لابد أن أدفع الثمن . فى أى مكان غريب من عقلها كانت تحفظ بتلك الأشياء الصغيرة ؟.. تلك الأشياء التى كنت أنساها فى لحظتها ؟، وأية قرارة تلك على توليد المعانى التى لا تخطر على بال ؟.. توجست ليلتها حين سألتني شبه مازحة : هل جئت حضرتك إلى أوروبا قبل ذلك من ورائى ؟.. ولكن جاريت لهجتها وأننا أقول : بالطبع مرات كثيرة فى مهام سرية لماذا تسألين ؟.. فقالت : كيف عرفت حضرتك أن هذه الزهور لا تعيش إلا فى الأرض ؟.. لزمت الصمت ولكن ذلك لم

ينفع أيضا . تحولت لهجة المزاح إلى نوع من الاستكثار الخفيف وهى تقول : ثم ما هذه الطريقة التى تتعامل بها مع الناس هنا..

أية طريقة ؟

هذا التهذيب المبالغ فيه مع عمال الفندق والمطعم وال محلات ، ومع الناس عموما ، أنت عندك عقدة الخواجة ؟

ولكن هل لاحظت يا منار أنتى أتعامل مع الناس فى مصر بطريقة مختلفة ؟

مطت شفتيها وأخذت تهز رأسها لليمين واليسار و كأنها تصدر الحكم بعد ترو ، وهى تقول : لا ، ولكن هنا ألاحظ أن الجرعة أكبر حبتين . أكثر من اللازم . أنت أنها عقدة الخواجة .

هممت أن أرد ولكن تراجعت ونت : ربما يكون الحق معك . سأراجع نفسي . و كنت قد تعلمت من زمن طويل أن أدارى غضباتها الصغيرة الخفية . و كنت كفى كن عادلا . لابد أنها هى أيضا كانت تدارى غضباتك الصغيرة الخفية . لم تكن المشكلة فى تلك الزهور البرية فما هي بالضبط ؟ .. هل كان هناك خطأ منذ البداية ؟ . ما هو .. كل ما ذكره أى أحبتها وأنها قالت إنها تحبني . أقصد لابد أنها أحبتني فعلا فى وقت ما ، والا فلم تزوجنا؟.. كنت أفتر واحدى بين

المحررين الذين تمنوا الزواج منها لما جاءت لتعلمنا معنا فى الصحيفة . أسرنى مثل الجميع وجهها البشوش بابتسماتها الدائمة وطريقتها الصريحة فى الكلام معى تتحقق مباشرة فى عينى من تحدثه . أسررتني أكثر من غيري واعتذر أن أبذل جهدا كبيرا لكي أكلمها بطريقة عادية مثما أكلم بقية المحررات . أحرص دائمًا أن أحول نظرى فى اتجاه غير الذى تجلس فيه فى صالة التحرير الواسعة .

و كانت هى التى بدأت تقطع المسافة من مكتبها إلى مكتبى لكي تستشيرنى كزميل أقدم فى موضوع تكتب أو لكي ألقى نظرة على الموضوع قبل أن تقدمه للمطبعة .

[www.alsakher.com](http://www.alsakher.com)

ثم بدأت تحدثى عن مشاكلها فى البيت : يلحون عليها أن تتزوج ويعرضونها على الخطاب كما لو كانت سلعة ، لن تتزوج هي أبدا بهذه الطريقة ، ستختر بنفسها. لماذا يكون الاختيار من حق الرجل وحده ؟ .. أخافنى كلامها . قلت لنفسى لن تكون صريحة معى إلى هذا الحد لو كنت أنا الذى اختارته . ولكنى حاولت وتقدمت .

وقالت لى وهى تضحك ونحن نمشى بىدين متشابكتين فى طريق الكونيش : ماما قالت ألم تجدى غير هذا الصحفى المفلس ؟ تترکين من أجله الصابط والدكتور ! .. وأدهشتى منار حين قالت بفخر وهى تضغط على يدى معنى هذا أن ماما تحبك وأنها توافق عليك . !

قبل وقت طويل أدركت أن ماما هي الأهم . كانت تشعر بنوع من العار فى حضور أبيها الذى أحبته أنا من أول لحظة لبساطته وطبيته . ولكن منار كانت تخجل حين يجلس معنا ونحن مخطوبان فى غرفة الجلوس بالبيجاما أو بالجلباب ويتحدث بفخر عن إشادة رئيسه فى العمل بالأسلوب الذى كتب به المذكرة اليوم ، أو حين يحكى كيف اشتري بطيخة وهو عائد من المكتب بعد أن أقسم له البائع أنها (( شيليان )) ولكن عندما فتحها فى البيت وجدها بيضاء من غير سوء فنزل من فوره وردها إلى البائع الكذاب ، لأنه لا يترك حقه ولا يسمح لأحد بأن يضحك عليه . كان وجه منار يتضرج عندما يحكى هذه القصص وألاحظ نظرة التأثيب فى عينى أنها دون كلام . ولكن بعد أن تزوجنا لم تكن أنها تبلى بأن تعنفه أمامى . و كانت منار تبكي بالدموع لأنه اعتاد بعد خروجه إلى المعاش أن ينزل إلى الشارع بالجلباب وأن يجلس بالساعات عند الحلاق أو عند البقال أو على دكة البواب . تقول وسط دموعها حرام عليك يا بابا .. سمعتنا يا بابا .. فيعدها وهو يعتذر محرجا ومرتباً أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى .

ولكنه عندما مات فاق حزن منار عليه كل تصور . ظلت تبكيه شهورا طويلاً وتناجيه طوال الوقت كأنه جالس بيننا تسأله كيف حاله هناك ؟ لماذا تركها ألا يشتق إليها ؟ و كنت أسأل نفسي إن لم يكن هناك إلى جانب الحزن نوع من تأثيب الضمير ، وأكيد ما جاء بعد ذلك ما كنت أشك فيه . بالتدريج بدأت تتحدث عن أبيها

على أنه كان موظفاً كبيراً قوي الشخصية يهابه الجميع في المكتب بسبب حزمه وشدة في الحق ، رغم أنه لم يكن يؤذى أحداً وأخذت هي نفسها مع مرور السنين تقتنع بذلك ، تطالبني في بعض الأحيان أن أكون حازماً مثل أبيها.

وحين أبعدوني عن العمل ولم يعد هناك الكثير مما يشغلني ، انتبهت في أول مرة أطلت فيها جلستي عند الحلاق بعد أن انتهت من قص شعري وأخذت تبادل معه الترشة دون هدف . شعرت بالخوف وعدت مسرعاً إلى البيت ثم جلست إلى المكتب لأخذ مشروع كتابي . وكانت منار قد بدأت تأخذ صورة أنها بالتدريج . تتهمني مثلاً أنني أدلل الطفلين ومع ذلك تشعر بالغضب إذا ما حاولت أن أعقاب أحدهما وتتصدى للدفاع عنه . ظل العقاب حقاً مقصوراً عليها و يأتي عادةً بعد أن نخرج للنزة في يوم الجمعة . اعتادت أن تكتشف باستمرار خطأ ارتكبه أحدهما أو ارتكابه معاً : نوع من قلة الأدب كما كانت تقول ، عقابه أن تحرمهما من المتصروف أو من زيارة الأصدقاء والأقارب . وحين كانت تراني ألعب الشطرنج مع خالد تتهمني بأنني أعطيه عن الدراسة ، وإذا حملت هنادي وأخذت ألف بها

هي تضحك وتقول : إن هذه اللعبة هي السبب في أن بطنها كان يوجعها في الأسبوع الماضي . ولما لاحظت أن خالد يحب الشعر وأنني أشجعه على القراءة ، قالت لا داعي لأن يخيب الولد وهو نابغ في الرياضة ، ولما . لا ، كفى ! مرة أخرى انتبه وتوقف . إلى أين تريد أن تصل من ذلك . أنها سيطرت على الطفلين؟ .. ليكن ! .. وأين كنت أنت .. لماذا لم تفعل شيئاً لتقترب منها أكثر؟ .. ألم تكن طول الوقت خارج البيت في الصحفة أو في الاتحاد الاشتراكي أو خارج البلد؟ .. على أي شيء تلومها هنا بالضبط؟ .. ثم ما حكاية الحلاق هذه؟ .. ما علاقتها بالمسألة كلها .. كنت أبحث عن السبب . عن بذرة الخطأ . خطئي أنا أو خطئها هي لكن ما علاقة هذه الأشياء بالمسألة ..

فاجأني وجهي في مرأة السيارة متوجهها وشارداً فأجفلت . قلت لا . لن أعود إلى ذلك . ليس في هذا المكان جميل ولا في هذا الصباح المشمس . لن أستسلم اليوم لذلك الشroud الذي يطفو فيه مشهد مع منار من أي شيء أراه أو طفو دون سبب ثم يسلم

كل مشهد إلى آخر وتمر الساعات على هذا الحال . لا ليس اليوم . إن لم تفلح السكينة في هذه الغابة أن تنفذني من ذلك ، فسيكون أى شيء آخر أفضل من البقاء هنا.

### وأدرت محرك السيارة

حين دخلت قاعة الفندق لم يكن المؤتمر قد بدأ بعد . كانوا قد وضعوا منضدين متقاررين كمنصة وخلفها ثلاثة مقاعد وصفوا في القاعة حوالي ثلاثين مقعداً وان لم يكن هناك غير ستة أو سبعة من الصحفيين جلساً متناثرين وصامتين . ربما جاؤوا مثلًا لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر يغطونه . ومن كنت تريده أن يأتي؟ .. من يهتم الآن هنا أو في أي مكان آخر؟ .. من يعنيه مؤتمر تعقد لجنة اسمها لجنة الأطباء الدولية لحقوق الإنسان عن انتهاكات الحقوق في شيلي ... أي شيلي وأي حقوق؟ .. انتهى يا صاحبى زمن الارتباط عندما ذبحوا الآلاف في استاد العاصمة هناك . انتهى زمن ذرف الدموع على الليندى بعد أن قتله العسكر . قتلواه بعد عبد الناصر بثلاث سنوات . حاربوا عبد الناصر بقولهم ديكاتور ، فلماذا الليندى الذي جاءت به الانتخابات؟ .. الذئب قال للحمل إن لم تكن عكرت الماء لأنك دكتاتور فقد عكرتها لأنك ديموقراطي . أنت مأكلو على أي حال . ومن يذكر الآن نيرودا؟ لا أذكر أنى قرأت اسم نيرودا في صحيفة من بلدى منذ أن قتله الغم بعد أن انقض العسكر على بلدء قبل عشر سنوات . أسكنوه أخيراً لكي لا يغنى . لكي لا يقول : وعلى شواطئ كل البلاد يعلو صوتي

لأنه صوت من صمتوا ولأن كل من لم يعرفوا الغاء فهم بفمِي اليوم قد غنو .  
زمان أيام الشباب ، كنت أقرأ أشعار نيرودا في صحفنا اليومية ، حتى في الصحيفة المسائية . أيام كانت الصحف تتغول إن انتصار الناس في أي بلد يعني الحرية لنا .  
أيام بكتنا على نكروما وعلى نومومبا . أيام كان راديو القاهرة يغنى لبور سعيد والجزائر و الملايو و شعوب كالبشاير تنبت الأزهار من قلب المجازر ! .. نعم ، لا أقل من الأزهار من قلب المجازر ! ذكر أيامها صديقاً كانت تلمع في عينيه دموع حين يقرأ علينا قصيدة )) الأطفال في بلد يموتون جوعا

والأسماك فى البحر تشرب القهوة (( . الآن لا يبكي على هذا أحد . لا يبكي أحد لأن سادة دنيانا يغرون البن فى البحر أو يهشمون جبال البيض . الناس الآن أعقل . العواطف الآن أهداً . الدموع الآن لا تنزل إلا من إدمان النظر للتلفزيون ، بما فى ذلك دموعك أنت أيها المنافق ! .. أنت ولجنة أطبائك الدولية.. )

كان في يدي كتيب أخذته اعتباطاً من بين عدة كتيبات موضوعة على منضدة في مدخل القاعة . رحت أقلب الصفحات . المنصة لاتزال خالية رغم أن موعد المؤتمر قد حل . مرت عيني على سطور في الصفحة المفتوحة من الكتيب : أمتا طرق التعذيب في سجون شيلي فهي نفسها التي وصفتها اللجنة في نشراتها السابقة عن ذلك البلد وعن بلد آخر في أمريكا اللاتينية وبقية القارات وكان أكثرها شيوعاً في شيلي الصدمات الكهربائية على طريقة الشواية . أي وضع أقطاب كهربائية متحركة على جسم الكجني عليه وهو مقيد إلى سرير حديد ومغطى بالشمع . وتحت الصدمات بهذه الطريقة ألاماً قاسيّة جداً في العضلات والإعصاب تستمر أثارها لعدة سنين ، إذ يصاب الشخص بارتباك في حركة العضلات وبحالات أرق مستمر وكوابيس وتسسيطر على المريض حالات غريبة يتصور فيها أنه يسلط بنفسه التيار الكهربائي على جسمه ويعيش مهنة التعذيب الأولى نفسها وألامه .. وهناك طريقة الصدمات الكهربائية التي تسمى (الإبرة) وهي....

توقفت عن القراءة حين سمعت حركة في القاعة ورأيت شخصاً طويلاً أشيب يتقدم ويجلس على المنصة . أخذ يجول بعينيه في القاعة شبه الخالية بنظرة هادئة لم تشبهها أى دهشة لقلة الموجودين . ولما بدأ يتكلم بالإنجليزية خمنت من لهجته أنه من ألمانيا أو من إحدى دول الشمال . قال إن اسمه مولر وانه طبيب ، نهض يعتذر للأخير في بدء المؤتمر ولكنه سيذكر لنا السبب بعد قليل . وشرح أن اللجنة التي يمثلها والتي تضم أطباء متخصصين من بلاد مختلفة تهتم بحقوق الإنسان بوجه عام ولكنها تركز بالذات على الجوانب الصحية والطبية . وقال إن اللجنة وجدت في شيلي حالات خطيرة جداً بين المسجونين السياسيين الذين يبلغون

عدة ألف . وبدأ يذكر أرقاما عن حالات المرضى في السجون وعن التعذيب بالضرب وبالكهرباء وبالحرمان من النوم وبالاغتصاب الجنسي وبوسائل أخرى . وقرأ أسماء بعض الذين ماتوا تحت التعذيب.

بدأنا نوجه له أسئلة عادلة تستوضح بعض التفاصيل والأرقام ، ولكن فجأة وقف صحفي أعرفه من أهل البلد ، وكانت صحيفته المسماة (( الوطن )) تهاجم باستمرار اللاجئين من شيلي وغيرها من البلدان وتطلب بإعادتهم إلى بلادهم وطردهم . كانت تنشر مقالات متتابعة عن اللاجئين وتقول إنهم يزحفون البلد وينشرون الجرائم ويلوثون البيئة وانه يجب إنقاذ الوطن من هذا الخطر ، ووجه كلامه إلى الدكتور مولر بلهجة استفزازية قائلا : ألا تعتقد برغم كل ما يقال عن شيلي أنها أكثر استقرارا من بلاد كثيرة ؟ ألا تعتقد أن عدد من يموتون في السجون أقل بكثير من عدد من تقتلهم الحروب الأهلية في البلد المجاورة لشيلي .. ؟

ارتفعت في القاعة هممة غاضبة ولم تبال صحافية تجلس في المقعد الذي أمامي أن تسأل بصوت مسموع : هل وجهتم الدعوة أيضا إلى جنرالات شيلي لحضور هذا المؤتمر ؟ وعلق آخرون على كلامها ولكن الدكتور مولر نقر بإصبعه مرتين على المنصة وقال لمندوب الوطن بهدوء : سيدى أنا لست سياسيا ومنظمتنا ليست سياسية . نحن أطباء نتحدث عن حالات حققنا فيها بدقة وتأكدنا منها ، ومع ذلك فأنا أذكرك أنه قبل الانقلاب العسكري لم يكن أحد يموت في شيلي ، لا في حروب العصابات ولا في السجون . هكذا يجب أن تقارن إن أردت.

ثم نظر الدكتور مولر إلى ساعته وقال : معدنة . استأجرنا هذه القاعة لساعة واحدة وتأخرنا قليلا لأن مشكلة صادفتنا في تقديم الترجمة من الإسبانية لشهادة يهمني أن تستمعوا إليها . وأشار إلى الصف الأول فنهض رجل وفتاة جلسا إلى جواره وهو يكمل : كان المفروض أن يأتي مترجم محترف ولكنه اعتذر في اللحظة الأخيرة وتطوعت صديقة هي بريجيت شيفر بتقديم الترجمة وأناأشكرها.

كانت بريجيت تلبس زياً أزرق من قطعتين كمضيقات الطيران وحول رقبتها إيشارب وردى اللون ، وقالت تخاطبنا وهى تجلس بين مولر والرجل الآخر وتبتسم بشىء من الارتكاك : ستسامحوننى إذا أبطأتك لأن هذه أول مرة أعمل فيها مترجمة . وكانت كل العيون الصحفية مثبتة عليها لأنها كانت جميلة جداً وقال أحد الصحفيين : سنسامحك بكل سرور . من فضلك خذى كل الوقت . ضحك بقية الصحفيين ولكن الدكتور مولر عاد ينقر بإصبعه قائلاً بجدية تكاد تصل إلى التأنيث : كما ذكرت لكم فإن هذه الشهادة لهم منظمتنا بصفة خاصة لأنها تمس أيضاً رجال الطب ، ولكنى أفضل أن تستمعوا بأنفسكم . ثم أشار إلى الرجل كي يتكلم .

و لأول مرة تحولت ببصري من بريجيت إلى الجالس على يمينها . ولم أستطع من مكانى أن أتحقق من وجهه فقد كان يحنى رأسه بشدة حتى اقترب من ذراعيه اللتين كان يشبکهما أمام صدره ولم أر بوضوح غير شعره الأسود الناعم . بدأ يتكلم بصوت خافت ويبدو أن بريجيت طلبت منه أن يرفع صوته فقد كرر كلماته ولكن دون أن يرفع رأسه وبدأت هي بعد كل وقفه فى كلماته تترجم إلى الانجليزية التي يتعامل بها المراسلون الصحفيون فى البلد .

قال إن اسمه بيذرو إيبانيز ، عمره ٣٩ سنة ويعمل سائق تاكسي فى العاصمة سانتياجو . فى بداية السنة كان يقف بعربته فى موقف التاكسيات أمام المحطة الرئيسية متظراً دوره . رأى شخصاً يخرج من المحطة وبيذه حقيبة يتوجه نحو الموقف وقبل أن يصل إليه تقدم منه سائق لم يره بيذرو من قبل محاولاً أن يأخذ الحقيبة وهو يشير إلى سيارة بيذرو التي كانت أقرب عربة أمامه . وبعد أن تحرك فى اتجاه العنوان الذى أعطاه له الراكب لاحظ أن سيارة تاكسي أخرى تتبعه . رأى فى المرأة السائق نفسه الذى حاول أن يأخذ الحقيبة ورأى معه أشخاصاً آخرين ، وانتبه الراكب أيضاً وأخذ ينظر للخلف . بدا مرتباً وبدأ أنه يحاول التغلب على خوفه . وخاف بيذرو أيضاً والراكب يقول له أسرع .. أسرع

وهو ينقل بصره إلى الخلف والى الأمام باستمرار . ثم قال ليبدو رو فجأة اسمع إنهم يريدوننى إنهم من إدارة الأمن الوطنى . فاشتد خوف بيبدو لأنّه يعرف ما هي إدارة الأمن الوطنى . فكر أن يوقف السيارة وأن ينزل الراكب ولكنّه لم يطمئن لعواقب ذلك ، وحين طلب منه الرجل أن يترك الشارع الرئيسي وأن يدخل في طريق فرعى سمع كلامه . قال بيبدو إنه ندم بعدها وانها كانت فكرة سيئة .

فقد كان من الصعب على ركاب السيارة المطاردة أن يفعلوا شيئاً في الشارع المزدحم ولكنهم انفردوا بهما في الطريق الفرعى القليل الحركة . أسرع قدر استطاعته ليهرب منهم ولكن سيارتهم كانت جديدة وسريعة . ولاحظ ذلك فلم يعد يتلفت وراء واضطجع في مقعده قائلاً لبيدو بهدوء : اسمع ... أنا أسف لأنّي زجت بك في هذه الحكاية ، لم يعرف بيدو أبداً مع ذلك ما هي الحكاية . ولكن عندما حادتهما السيارة في إحدى إشارات المرور فتح الراكب الباب فجأة من الناحية الأخرى ثم فcz وبدأ يجري في الشارع . جرى خطوتين فحسب . وقال بيدو إنه لما بدأ إطلاق الرصاص انزلق في مقعده ليحتمي ولكن شعر بالرصاص التي دخلت في جنبه في اللحظة نفسها ورأى الراكب وهو يسقط في الطريق والدم ينفجر من رأسه .

كان بيدو يحكى بصوت رتيب وبريجيت تترجم بلهجهة الرتيبة نفسها وهي تنقل بصرها بينه وبيننا في القاعة ، ولكنّي لاحظت وجهها يتصلب بالتربيح وصوتها يرتفع قليلاً بينما كان بيدو يشير بياصبعه إلى الموضع الذي دخلت فيه الرصاص في جنبه . واستحثه الدكتور مولر بحركة من سبابته أن يسرع قليلاً وهو يشير إلى الساعة فهز بيدو رأسه كالمعذّر . كان قد نسى خجله وراح يتطلع نحونا ، لاحظت عينيه الواسعتين وتحتها هالتان سوداوان عريضتان ك حاجبين مقومين . وسألت نفسي إن كان هذا هو الأرق .

وتحيرت لهجة بيدو منذ اللحظة التي استحثه فيها مولر . أخذت الكلمات تخرج من فمه متدافعه ومتقطعة . وكانت بريجيت تجد صعوبة في متابعته وتعذر لنا أحياناً

وسترجعه بعض ما قال . ولم تعد الحكاية مرتبة . عاد يشرح مشيرا . هذه المرة إلى صدره وقال دخلت الرصاصة في صدرى .. وأنا بالطبع لم أكن أعرف الراكب .. أسف . أقصد أن الرصاصة دخلت في جنبي واستقرت في صدرى كما قالوا في المستشفى .. في هذا المكان .. ولكن أنا لم أر هذا الرجل قبل أن يركب التاكسي وأعتقد أنه مات .. لا .. أنا متأكد أنه مات لأنني رأيت

بعيني الدم ورأيت أجزاء من مخه على الرصيف قبل أن أفقد الوعي .. ولما سألنى الضابط في المستشفى كنت أشعر بعطش شديد هززت إصبعي هكذا (( لا أعرفه )) فنزع الضابط من ذراعي حقتة الدم الذي كانوا ينقلونه ونزع أنبوب الأوكسجين من أنفي .. قال الضابط سأترك تموت لأنك صديق كابيللو لماذا اختارك بالذات من بين سائقى التاكسي؟ . طبعا كان الطبيب وافقا لما حدث ذلك والضابط كان والضابط كان من الأمن الوطنى . وبعد أن انتزع أنبوب الأوكسجين بدأ بالفعل أموت بالفعل أقصد ضاع النفس تماما وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم كابيللو .. لم اسمع باسمه ولم يسمع أخي باسمه .. وحين حاولت أن أقول هذا للضابط اندفع دم كثير من فمي وفقدت الوعي مرة أخرى .. ولكن في اليوم التالي بدأوا استجوابي أيضا حين أفقت . كانوا في ذلك اليوم ثلاثة من إدارة الأمن الوطنى وسألونى عن اسرتى هل نحن أشتراكيون؟ هل نحن من حزب اليندى؟ .. أنا في الأصل من الريف ولكننا حتى لم نأخذ أرضا عندما زرعوا أراضي الأغنياء على الفلاحين في الريف ، لا أنا ولا أخي .. لهذا لم يحدث لنا شيء عندما رجع الأغنياء بعد الانقلاب واستردوا أراضهم ، أقصد لم ندخل السجن مع الفلاحين الذين كانوا قد أخذوا الأرض ولكنى لم أستطع أن أقول ذلك . لم أستطع أن أرد .. كنت متumba جدا .. فمد واحد من الضباط يده وأغلق اسطوانة الأوكسجين وشعرت مرة أخرى بالدم في حلقي وفي فمي، اسمع غرغرتة في حلقي ولكنى لا أستطيع أن ألفظه من فمي فجاء الطبيب بجهاز وضعه في حلقي وبدأ يسحب الدم .. ملأه منه زجاجات كثيرة . قال الطبيب إنه ينصحنى أن أنكلم لكي أعيش ولكنه لم يفتح اسطوانة الأوكسجين . كل ما قاله للضابط هو أننى لابد أن أنكلم . وبسط بيده يديه أمامه وقال لنا نحن الصحفيين في القاعة بصوت مرتفع وعينين متسعتين : كيف يمكن للإنسان أن ينكلم دون أوكسجين؟

ضحك مراسل صحيفة الوطن وتطلع نحوه بقية الصحفيين في غضب وقال له أحدهم هس ! ولكنه ظل ينظر أمامه دون مبالاة ودون أن يلتفت إلى أحد ، وأحس بيذرو أنه ارتكب غلطة غير محددة فزاد ارتباكه وتشتبه وعاد يحكى محنى الرأس :

أظن هذا في اليوم الثالث .. لا ، في اليوم الرابع .. عندما جاءوا أخي فريدي .. قالوا إنهم اكتشفوا أن فريدي اشتراكي وأنني كذاب .. هل قلت إن أخي طالب في الجامعة ؟ صرخوا في وجهي لابد أن تقول كل ما تعرفه عن كابيتيللو .. ولكن إذا لم أكن أعرف كابيتيللو فماذا يمكن أن أقول عنه ؟ .. يومها أيضا لم أكن أقدر على الحركة . ورأيتهم وأنا راقد على سريري يخلعون ملابس فريدي .. رأيتهم يضعون منشفة كبيرة في فمه .. أوثقوه من قدميه ومعصميه على سرير معدني بجوار سريري .. كل ما كنت أستطيع أن أحركه هو عيني .. وصرخت أقول فريدي لا يعرف كابيتيللو و أنا لا أعرف كابيتيللو .. صرخت ولكن لم يخرج من فمي أى صوت .. ورأيتهم يضعون على جسم فريدي الأشياء الكهربائية .. ووضع الطبيب سماحته على صدر فريدي لحظة ثم هز رأسه للضابط وانسحب .. ولكن الطبيب ظل واقفا لما شغلو الكهرباء .. وسمعت شهقة فريدي برغم المنشفة التي في فمه .. ورأيت جسمه العاري يرتفع عالياً ومقوساً ومتسوداً حتى تحرك معه السرير كله واستطاعت لحظتها أن أتكلم فقلت ..

ولكننا نحن ، في المؤتمر ، لم نستطع أن نعرف ما الذي قاله بيذرو إيبانيز لحظتها . فجأة توقفت بريجيت شيفر عن ترجمتها السريعة اللاهثة .. فجأة ظلت تتطلع إلينا وقد اتسعت عيناهما واستطاع وجهها بينما راحت شفتها ترتجفان .

وفي البدء لم يلاحظ بيذرو الذي كان يتكلم خافض الرأس وواصل الحديث بأسبابه المنشورة .. ولم أميز من أقواله غير كلمات فريدي .. إدارة الأمن الوطني .. كابيتيللو .. الطبيب .. بينما ظلت بريجيت تتحقق فينا وهي تزم شفتيها . كانت تنفرجان بالرغم منها فترمها من جديد . لم تبك ولم يصدر عنها أى صوت .

فقط أخذت تتطلع إلينا بعينيها الزرقاء من الواسعتين . وأخيراً أحس بيبرو أيضاً بالصمت فرفع عينيه المحفوفتين بهلالين أسودين.

كان من مولر ينظر إليها أيضاً من الناحية الأخرى من المنضدة فمد يده ووضعها على يدها المستندة إلى المنصة غير أنها انتزعت تلك اليد بسرعة كأنها لدغت وغمقت شيئاً لم تتبينه وهي تنهمض وتبتعد في خطوات مسرعة ثم اختفت في ممر مواجه لنا.

ظل مولر يتبعها ببصره للحظة ثم التفت نحونا وقال معاذرة . انتهى الوقت المسموح به للمؤتمر على أية حال . كل ما أستطيع أن أقوله هو أن لجنتنا حققت في الواقعة وتأكدت من كل تفاصيلها : استطاع بيبرو أن يهرب من المستشفى بعد بضعة أيام وساعده أصدقاء على الهرب إلى خارج شيلي بعد ذلك ثم عولج في كندا من مضاعفات خطيرة أصابت صدره بسبب الرصاصه والتعذيب أما شقيقه الطالب فريدي - أو الفرييو إيبانيز - فقد مات تحت التعذيب . كل التفاصيل تجدونها في النشرات الموجودة عند مدخل القاعة . . ونشكر لكم أى تعاون معنا إذا نشرتم عن هذه الواقعه . . .

قامت الصحفية التي أمامي لتنقط صورة لبيبرو الذي كان ينظر إلى الطبيب وإلينا بشيء من الحيرة والخجل . وبعد أن أخذت الصورة جلست وهي تقول بصوت مرتفع : لعنة الله على هذه المهنة !

ورد برنا الصحفى الذى يجلس فى الطرف البعيد من القاعة وهو يقوم من مقعده : أية مهنة ؟ . . الصحافة أو إدارة الأمن الوطنى أو الطب أو الكهرباء أو قيادة التاكسي ؟

ثم ركل المقدع المعدنى بقدمه وقال : ألم هذا العالم ؟

واستمر صليل المقدع لثوان ثم اختفى .



## الفصل الثاني

### ماض بعيد .. ماض ميت

وقفت عند مدخل القاعة أقلب في بقية النشرات . على غلاف واحدة منها كانت هناك صورة لبيدو إبيانيز وإلى جوارها صورة شاب يشبهه خمنت أنه فريدي . كان مثل بيدو - واسع الفم غزير الشعر ، يعلو عينيه السوداين حاجبان كثان ، وكان يلبس قميصا أبيض أزراره مفتوحة عند صدره ويحاول أن يبدو أكبر من سنه بشفتيه المضمومتين في وقار والنظرة الجادة في عينيه . ولم أنهش عندما رأيت معظم الصحفيين يخرجون دون أن يلقو نظرة على هذه النشرات . كانوا ينصرفون مسرعين كأنهم يهربون من المكان كله ومن الحكاية كلها .. أعرف أنه قبل الغداء سنكون جميعا قد فسينا بيدو وفريدي وشيلي وسيبحث المضطرون إلى إرسال برقيات أو أخبار إلى صحفهم عن موضوعات أخرى . ولكن بينما أقف هناك رببت يد على كتفي وسمعت من يقول :

- كنت أبحث عنك .

التفت وهتفت في دهشة : إبراهيم !؟

نعم ! هو عينه إبراهيم المحلوى بعد كل تلك السنين ، أصبح أكثر نحوه وشاب شعره ، وإن لاحظت أنه ظل وسيما في كهولته مثلاً كان في شبابه . حاولت أن أبتسم وأنا أمد يدي لأصافحه ، غير أنه فجأة أحاط كتفي بذراعه اليسرى وعانقني بقوة . وأدهشنى ذلك قليلا .

وشعر إبراهيم بجمودى فابتعد عنى خطوة وهو يقول : مضت سنوات طويلة منذ التقينا آخر مرة . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلى وجهي المرتبك وقال وهو يبتسم : أعرف أنك تحفظ الكثير من الشعر . لا تذكر إذن قول أمير الشعراء :  
محا الموت أسباب العداوة بيننا ؟ ..

ماتت أشياء كثيرة يا صديقي خلال هذه السنين ولم يعد للعداوة معنى .

قلت بشيء من الخجل : بالطبع بالطبع .. أمازلت تعمل في بيروت ؟

- نعم ، أنا هنا في زيارة عمل ، وصلت بالأمس فقط .

- أسف لأنني لم أنتبه إلى وجودك في المؤتمر وإلا لكتن ..

قال إبراهيم وهو يقلب النشرات ويتصفحها ثم يدس بعضها في حقيبة جلدية صغيرة : صدقني ولا أنا رأيتك ولا توقعت وجودك . لا أظن أن صحفتك تهمها أخبار شيئاً .

ولاحظت أنني مازلت أمسك في يدي النشرة التي عليها صورة بيورو فأعذتها إلى مكانها وأنا أقول : وهل لهم أية صحفة أخرى ؟ .. سيكون بيورو إيجانيز محظوظاً لو نشرت أى صحفة في العالم حكايتها في خمسة أسطر . أما صحفتنا بالذات كما تعلم فإن أهم أخبار العالم فيها لم تتجاوز خمسة أسطر . نحن نتطورنا .

ضحك إبراهيم ضحكة خافتة ونحن نبتعد عن مدخل القاعة وقال : نعم . لا أنسى أبداً ذهشتني عندما رأيت الصحفة لأول مرة بعد هذا التطوير . كنت في بغداد وقتها ووقيعت في يدي نسخة فقرات عنوانها في الصفحة الأولى داخل مربع كبير «عرفة للسببية ودلال للتمويل» . ظلت أتحقق في العنوان لفترة وأنا أظن أن هناك أخطاء مطبعية ، ولم أفهم إلا بعد أن قرأت الخبر أنه يتحدث عن تنقلات البعض الموظفين الكبار أو الصغار الله أعلم . لم أفهم أيضاً أن السببية معناها الجمرك إلا بالقرائن . هل كنت تخيل في أى وقت أن تتطور هكذا صحفتنا الثورية ؟

لوحت بيدي قائلاً : لا تفتح هذا الباب أرجوك . هل لديك وقت لشرب القهوة ؟

- بل ولننفدي أيضاً إن لم يكن لديك مانع .

ظلت حرارته تدهشني رغم ذلك إلى حد ما . ولكنني بذلت جهداً ونحن نسير في الطريق ونتبادل أخبار من نعرف من الأصدقاء لكنني لا يشعر بأي فتور في حديثي معه . كنت سعيداً بالفعل لرؤيته رغم أننا لم نكن صديقين حميمين في أى وقت ،

حتى عندما تزاملنا أول مرة كمحررين في صفحة الأخبار الخارجية أيام الشباب . كان هو ماركسيا متحمسا يقول إبني مثالى وحال ، وكان رأيي فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس . أيامها كنت أقرأ ساطع الحصري والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ، وعلقت فوق رأسي بالفعل في صالة التحرير الكبيرة التي تضمننا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا «نولة عظمى تحمى ولا تهدى ، تصون ولا تبده» . كتبها لي خطاط الصحيفة بخط كوفي جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير . وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغرار في التأمل فاثور وبيداً بيننا الجدل والشجار . ولكنني حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقلوهم من الشيوعيين في سنة ٥٩ وكتن أفتقده . ثم نما بيننا بعد خروجه من المعتقل وعودته إلى الصحيفة شيء من الود كما يحدث بين زمليين قدامين إلى أن جرى بيننا ما جرى قبل خروجه من مصر . ولا جات محنة السبعينات التي أدركنتي ورقيت في الصحيفة مستشارا لا يستشيره أحد ، كان هو يعمل في العراق ، ثم سافر إلى سوريا ، إلى أن استقر في بيروت منذ سنوات لكي يعمل مع صحيفة تصدرها إحدى منظمات المقاومة هناك .

وبينما نسیر في طرقات المدينة الأجنبية التي جمعتنا على غير انتظار كان كل منا يحاول أن يتغلب على ارتباكه . بذلنا محاولة حقيقة لكي نتكلم كصديقين قدامين التقينا بعد فراق طويل ، ولكن فترات الصمت كانت محرجة لأننا لم نكن نريد أن نعود إلى أي حديث حقيقي عن الماضي . وبدأت أحدهما عن معالم المدينة التي كان يزورها لأول مرة . عبرنا ميدانا فسيحا في طريقنا من الفندق إلى شاطئ النهر . وكانت تحيط بالميدان مبان من الطراز الروماني الجديد تحدد مداخلها أعمدة سامقة ، ويتوسطه تمثال رجل أصلع يركب حصانا ويشير بسبابته إلى الأفق بطريقة وقرة ، ورحت أشرح لإبراهيم هذا هو المتحف ، وهذه إدارة الجامعة . وهذا الفارس قاد معركة لتحرير البلد من الفرنسيين في القرن التاسع عشر . حاولت أن أتحدث بأقصى ما أستطيع من التفصيل لكي يستمر الحديث .

وكان إبراهيم يتبعنى مفعماً نعم ، نعم ، حقا ؟ ..  
ولكن لما لم يعد هناك ما يقال استسلمنا وسرنا صامتين .

أخيراً قلت لإبراهيم : معذرة إن كنت قد جعلتك تسير كل هذه المسافة ، فلئنما  
أحب هذا المقهى وأركن سيارتي دائماً بالقرب منه . توقف إبراهيم قليلاً عند  
مدخل المقهى ثم قال : ولكن معك حق كنت سأندم حقاً لو تركت البلد دون أن أرى  
هذا المكان ..

ولم أعرف إن كان قد قال هذا الكلام ليجاملني أم أن المكان أعجبه بالفعل .  
أما أنا فكنت أحب بالفعل ذلك المقهى البيضاوى الشكل الداخل فى النهر كصيحة  
ملقة على اللسان الصخرى . كان يشغل موقعاً هادئاً من الشاطئ ويقود إليه  
مشى طويل ، تزين الزهور المعتنى بها أحواضاً ممتدة على جانبيه .

ولم يكن بالمقهى غير قليل من الزبائن فوجدنا مكاناً بسهولة عند نافذة مفتوحة ،  
تطل عبر النهر العريض على الجبل الذى اكتسى فى ذلك الوقت من السنة بخضرة  
غاباته وحداثته الشاسعة ، وتناثرت وسط أشجاره البيوت البيضاء بسقوفها  
القرمديية التى تيزز كأهرامات متدرجة كلما ارتفعت فى الجبل ، إلى أن تصبح  
عند القمة مجرد مثلثات حمراء دقيقة وسط الأشجار .

قال إبراهيم بصوت خافت حين جلسنا

- كل هذا السلام والسكنية .

خمنت أن بيروت طرأت على ذهنه فى تلك اللحظة ، ولكنى لم أعلق . تركته  
مستغرقاً فى تأمل النهر الذى كانت مياهه الراشقة تندفع بسرعة وترفع موجات  
فضية متلاصقة تتلاقى بنور خاطف ، وفي متابعة بجعات بيضاء تسبح فى حركات  
دائريّة وهى ترفع روعها الشامخة متطلعة إلى التوافد فى صمت . ولم يكن البط  
بجسمه البنى ورقبته البنفسجية اللامعة يكتفى بالتلطع نحونا وهو يحوم بحركات  
قلقة تحت التوافد ، بلأخذ يحرك مناقيره ، بنداءات متعاقبة ، فاستجابت له سيدة  
تجلس بالقرب منا وراحت تلقى له بفتات الخبز .

ظل إبراهيم فترة طويلة ينقل بصره بين النهر والجبل ثم قال وكأنه يتبع

تفكيره :

- كم أنت محظوظ لأنك تعيش هنا .

- نعم ، كم أنا محظوظ .

وأحس إبراهيم شيئاً في لهجتي فنظر إلىَ كالمُتَبَرِّ وهو يقول :

- أقصد ...

ولم يكمل . وعندما جاء الجرسون سأله إبراهيم إن كان يريد أن يشرب بيرة ، فقال :

- ليس في الظهيرة ، اتقنا على القهوة ..

طلبنا القهوة وقلت وأنا أبتسّم: لم أسمع أنك ترفض البيرة في الظهيرة أو العصر .

فقال باقتضاب : حكم السن .

ثم أشار إلى رأسِي قائلاً : وعلى ذكر السن ، كيف حدث أن شعرك ما زال أسود حتى الآن ؟ كلنا شابت روعتنا فكيف بقيت أنت هكذا؟ ..

أشرت إلى رأسِي أيضاً وضحت ضحكة صغيرة وأنا أقول : توقف نموِي . فضحك إبراهيم بيوره وقال : لو كان التوقف عن النمو ينفع في منع المشيب لما ابيض شعرِي هذا ولرأيتنى وشعّبنا العزيز من المعيط إلى الخليج وقد رجعنا أطفالاً مرحين في المهد . كلنا توقف نمونا .

أشرت إليه بياصبيعِي منبهاً : لا يصح أن يصدر هذا الكلام عن شخص متفائل مثلك .

فهز رأسه وهو يعاود النظر إلى النهر : نعم لا يصح هذا الكلام في مثل هذا المكان . فلناحول أن ننسى . كيف حال أولادك ، ناصر وهنادي ؟

- تقصد خالد وهنادي . خالد في السنة الثالثة بكلية الهندسة وسيزورني هنا قريباً . سيمثل مصر في مسابقة دولية للشطرنج للشباب في لندن ، وسيمر على في طريقه إلى هناك وهنادي في الاعدادية ، لكنى لم أرها منذ الصيف الماضي . أكتب لهما ونتكلم كثيراً في التليفون .

قال إبراهيم محاجا بعض الشيء : نعم أنا بالطبع سمعت بما حدث بينك وبين منار . تجنبت أن أذكر شيئاً حتى الآن لكي لا أبعث ذكريات سعيدة ولكنني حزنت كثيراً عندما سمعت مسألة الطلاق . كنت أقدرها دائماً أنت ومنار رغم اختلافنا في الرأي . كانت تعجبني شجاعتها في الدفاع عن المرأة .

قلت بحماس مبالغ فيه وأنا أبسط يدي : وأنا أيضاً أقدرها كثيراً بطبيعة الحال ، وأعتقد أن صفحة المرأة التي تحررها مازالت هي الشيء الوحيد المقرب في صحيقتنا بعد التطوير .

قال إبراهيم بشيء من الحيرة : إذن لماذا ؟ .. كنت تحدثني أحياناً عن بعض الخلافات بينكما وأذكر أنتني كنت أدافع عنها دائماً وأحملك أنت الخطأ . شيء معين كان يتكرر في هذه المشاجرات واعتقدت أن ألومنك عليه .. أظن أنك كنت تعترض على قيامها ب أعمال إضافية في الصحفية ؟

- نعم . كنت أعتقد أن الأولاد أحق بأن تقضى معهم وقتاً أطول في البيت .

قال وهو يهز رأسه دون اقتناع : ولماذا لم تعتبر أن الأولاد أحق بأن تقضى أنت معهم وقتاً أطول في البيت ؟ .. أنت الذي كنت معظم الوقت في الخارج ، إما في الصحفية أو في الاتحاد الاشتراكي أو في مهامك الصحفية في الداخل أو في الخارج ، لماذا لم يكن من حقها هي أيضاً أن تفعل مثلك ؟

قلت لنفسي آه ، لقد بدأنا ! الاتحاد الاشتراكي والصحفية ، هل هذا الحديث عن منار أم عنك أنت يا إبراهيم ؟ .. تجرني الآن خطوة خطوة لكي تبدأ الحساب ، أليس كذلك ؟ ولكنني ردت بشكل ألى :

- ربما تكون على حق . كنت أعتقد أن الأمومة أهم من أي شيء آخر . أهم حتى من الأبوة . ربما أكون قد أخطأت هنا ، ولكن على العموم لم يكن هذا هو السبب .

- ما هو إذن ؟

تنهدت قائلاً : منذ سنوات وأنا أسأل نفسي هذا السؤال يا إبراهيم .

قال بلهجة استنكار : تعنى أنك لا تعرف السبب في ملائقك من مثار ؟  
هنيزت رأسي نفياً وأنا أقول : كانت هناك مشاحنات كثيرة ، تحدث بين كل  
زوجين كما تعرف ، ولكنها لم تكن هي السبب الحقيقي .  
قطب إبراهيم جنبيه وهو يقول بصوت خافت : عادة ما يكون السبب الحقيقي  
امرأة أخرى أو رجلاً آخر ولكن لم أسمع شيئاً عن ذلك بالنسبة لك ولا لمنار ،  
حتى بعد هذه السنين .  
ثم سكت لحظة قبل أن يقول : ربما كنتما ..  
تردد قليلاً فسألته بلهجة أثارت استغرابه : ربما كنا ماذا ؟  
فنظر في عيني مباشرة وهو يقول : ربما كنتما ، أقصد رأيي أنك أنت ومنار  
كنتما تبحثان عن حب كامل ومستحيل في هذه الدنيا ، لهذا كنتما تتشاجران  
لأنه خيبة أمل تبعديكما عن هذا الكمال المستحيل ..

- ربما ..  
حول وجهي نحو النافذة لأوحى بانتي لا أريد متابعة الحوار ، وسألت نفسي  
مرة أخرى : هذا أنا ومنار أم أنت يا إبراهيم ؟ .. لا تتحدث الآن عن نفسك  
بالذات ؟ .. وهل كان هذا البحث عن المستحيل هو السبب في أنك تركت شادية  
أيام الشباب وفي أنك لم تتزوج حتى الآن ؟ .. ولكن من أنا لأقول ذلك ؟ .. إن  
كنت أجهل نفسي فكيف أحكم على الناس ؟ .. ولكنه يسألني عن السبب . تقول  
رجل آخر وامرأة أخرى ؟ لكم كانت الأمور تصبّع سهلة ومفهومة ! تقول بحث عن  
الكمال ؟ .. ولكننا عشنا معاً سنتين طويلة وقبلنا الحياة كما هي . لم نتوقع منها  
أن تعطينا ما تعجز عنه . ومع ذلك فإن النهاية في ذهني ضباب كامل . ألغام  
تفجر في الظلام . مشاجرات تتكرر كل يوم وإهانات متبادلة وصلح مؤقت وعتاب  
على محدث في الماضي وتعهدات للمستقبل قبل أن ينفجر لغم جديد ويرجع كل  
شيء إلى أوله دون أن نعرف السبب . فكرت كثيراً - لكم فكرت - قلت ربما كان  
لذلك كله علاقة بما حدث لي في العمل . لم تكن تفصلني غير خطوة عن رئاسة  
التحرير ، ثم جاء السادات فضاع كل شيء وأصبحت المستشار الذي لا يستشيره

أحد . ولكن منار لم تكن بهذا الفسق لتتخلى عنى لذلك السبب . كانت لها مبادىء . المال لم يكن شيئاً مهماً في حياتها منذ البدء . حين تزوجنا لم يكن لدينا شيء واستطعنا بفضل منار أن نجتاز الأيام الصعبة التي لم يكن فيها مرتبى ومرتبها يكفيان لكي نعيش ونربي الأولاد . لم تشك قط ولا تغيرت بعد ذلك حين زاد دخلنا وأصبح يزيد على حاجتنا . لم تكن لها مطالب ، بل كنت أنا الذي أحاول أن أعيشها عن أيام الحرمان الطويل . فكيف إذن لم نستطع أن نتجاوز فترة الفشل بعد أن توقف صعودي في الصحيفة ، بعد أن أخذت أتراجع بسرعة لافتصر على باب صغير يظهر مرة كل أسبوع في صفحة داخلية تترجمها الإعلانات ؟ هل كنا نحن أيضاً رغم المبادىء والشعارات ، نقدس النجاح (والوصول) مثل كل الآخرين معنا في الصحيفة وفي خارج الصحيفة ؟ فلتعرف . فلتعرف بذلك وقد ملأتك الهزيمة والغضب أصبحت ناقد الصبر ، مستعداً للشجار لأهون سبب مع منار ومع غير منار . فلم لا تكون هي أيضاً قد نفذ صبرها وامتلأت بخيبة الأمل ؟ .. وهل تراها أدركت أيضاً أن خيبة الأمل هذه تعنى أنها تتخلى عنى بينما تحتاج إليها أكثر من أي وقت ؟ ربما ، ففي البدء كانت هي التي تبادر إلى الخصام وهي التي تبادر إلى الصلح . وأدرك الآن - أدرك بصفاء كامل - أن تشبعى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالبpedia الذي عشت مقتنعاً به ، بل كان أيضاً تشبعاً بحلمي الشخصى . ب أيام النجاح والمجد والوصول . وأفهم الآن أن منار التي جدوا وضعها في الصحيفة مثل ويسبيبي قد اعتبرت عبد الناصر خصماً شخصياً لها . وبعد أن اختزلوا باب المرأة إلى ربع حجمه تذكرت أنه سبب النكسة والمعقلات وكل تلك الأشياء التي كثر الحديث عنها بعد أن مات . نسيت منار تماماً دموعها الغزيرة حين أعلن التتحى بعد الهزيمة وصرختها الملتاعة «هل كانت تتقضى هذه المصيبة بعد سيناء؟» نسيت فرحتها عندما رجع عن التتحى ونسيت إغماعتها وانهيارها الطويل بعد موته . أصبح هجومها على عبد الناصر ودفاعي المستميت عنه حيلة لتنفيذ توتراتنا لا أكثر ، وتحول الزعيم إلى مجرد لعبة بيتية قديمة يضرب بها أحدنا الآخر في المشاجرات

ثم نلقيها جانباً لنعود إليها مرة أخرى بعد حين . وظلت حين ألقت كتابي عن عبد الناصر ونشرته على نفقتى أن ضجة كبيرة ستحدث وأنتا سنشترى ، هو وأنا بعضاً مما فقدناه . ردت بالوثائق وبالأدلة التي عاصرتها على كل التهم التي وجهت إليه ، ولكن الكتاب صدر وصدرت معه الأوامر السرية إلى أكشاك الجرائد والمكتبات بإخفائه فلم يره أحد ، حتى من أهديتهم الكتاب من الزملاء والكتاب الذين تصورت أنهم سيهتمون ، لم يلعقوا عليه . لا هجوم على الكتاب ولا تأييد . بل صمت الموت ، والنسخ البائرة التي عادت لتنتكس في البيت هي شاهد القبر . وفي تلك الهزيمة الجديدة لم تتعاطف معى منار أبداً كما كانت تفعل من قبل . كانت تشير إلى الكتب المكذبة في الأركان بتأفف وتقول ستجمع لنا التراب والحشرات . ومع ذلك ، فلتتعرف أيضاً . لم تكن حكاية الكتاب هي السبب ، ولا كانت السياسة هي السبب . ألا تذكر مرة أنتا تعاهدنا على ألا نتكلم عن عبد الناصر أو السادات ولا عن أي شيء آخر مختلف عليه ؟ فما الذي حدث ؟ لم نكن هي أو أنا قد أدركنا بعد أن حديث السياسة لا ذنب له في الهوة التي انفتحت بيننا ، وأنتا حين كففنا عن ذلك الحديث أصبحت المشاحدات تائى أيضاً سريعة وعنيفة دون أن نعرف لماذا . أكون أنا المخطيء أو تكون هي المخطئة ولكن الخلاف الذي ينشأ من نبتة صغيرة معروفة البذرة سرعان ما يتشعب من تلقاء نفسه . سرعان ما تستدعى إهانات الماضي وتقصيراته وعندما قلت أنا ذات يوم وعندما قالت هي ذات مرة ، وعندما كنت أعدها أيام الخطوبة ونحن نمشي على الكورنيش بأننى .. ثم كلام ثم كلام إلى أن نجد نفسينا في النهاية وسط غابة كثيفة من الأقوال تتخطى وسط أغصانها الجارحة وندمى معاً دون أن نعرف طريقة للخروج ، ولم يبق حلًّا سوى أن يخرج أحدهنا من الآخر . لماذا ؟ ما السبب .. !

– السبب في ماذا ؟

لم أرد . فواصل إبراهيم بصوت خافت : أنا أسف صدقنى لم أكن أعرف أن المسألة مازالت تؤثر فيك إلى هذا الحد .

قلت بنبرة احتجاج : أية مسألة . أنت مخطئ !  
فرد إبراهيم بشيء من الارتباك : منذ مدة وانت شارد ، كنت أيضا تحرك  
شفتيك و ..  
ثم لم يكمل . ولكن غضبا كان يغلى فى داخلى على منار وعلى إبراهيم وعلى  
العالم كله فقلت :  
- اسمع يا إبراهيم ، فلنفقا هذا الدمل ولننته منه !  
بدت فى وجهه حيرة وهو يقول : عن أى شيء تتكلم ؟  
- حكاية وفتك عن العمل ! .. نعم ! أنا الذى طلبت ذلك بحكم مستوائي !  
فقال إبراهيم وهو يواصل الربت على يدي : إنس ذلك . أنا نسيته ، ألم أقل  
لكل محا الموت أسباب ..  
ولكنى أبعدت يده بنوع من العنف قائلا : ولكن أنا لم أنس . ساقول لك  
أسرارا لم تعرفها ..  
احتقن وجه إبراهيم ولوح بيده نافذ الصبر وهو يقول : أى أسرار تريد أن  
تشرحها لي فى سنة ٨٢ عن أشياء حدثت فى سنة ٦٩ ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟ قلت  
لك إنى نسيت هذه الحكاية ..  
- ومع ذلك فيجب أن تعرف أن هذا المقال الذى كتبته عن بيان ٣٠ مارس وقلت  
فيه إن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلاص للثورة وأنه ممكن أن ينفذ  
الإصلاحات ..

قاطعنى إبراهيم بشيء من التألف : قلت لك هذه أشياء انتهت ! بيان ٣٠  
مارس حقا !! انزل الآن يا صديقى إلى أى شارع فى القاهرة واسأل الناس عن  
بيان ٣٠ مارس . إن وجدت فى مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون ما هو هذا  
البيان فتعال تتحاسب ! .. ثم بدا أنه يبذل مجاهدا لكي يبتسم وهو يقول :  
يا سيدى أين نحن من تلك الأيام ! ارجع لنا هذا الزمن ثم أوقفنى عن الكتابة كما  
تشاء . هل يرضيك أن أقول إنتى أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟ .. كان معك حق  
في كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها و كنت أنا المخطئ ..

ثم تذكر شيئاً فاتسعت ابتسامته وهو يقول : وبالمتناسبة هل تعرف لقبك الآن في القاهرة ؟ وصل إلينا في بيروت أنهم يسمونك في مصر منذ كتابك عن عبد الناصر أرملة الفقيد ..

ظاهرت بالابتسام وقلت : نعم ، سمعت اللقب . ولكن أنت على الأقل تعرف أنتي كنت أدفع عن عبد الناصر قبل أن يموت وبعد أن مات . لم أغير موقفى و كنت معه عن عقيدة ..

فقال إبراهيم وهو يحول وجهه عنى من جديد . نعم ولكن هذا لم يمنع أبداً أنك كنت في عهده ترقى في الصحيفة كالصاروخ وتسافر في كل المهام الصحفية للخارج أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر ..  
قلت منتقضاً : ماذا ؟ .. هل رقيت إذن لأنتى كنت أناقة أو لأنتى كنت محسوباً على أحد ؟

- لا أقصد هذا .

- إذن فماذا تقصد ؟ .. كنت أظن لأنتى صحفى أعرف كيف أكتب .. كنت أظن أيضاً أنى أول صحفى دخل بورسعيد سنة ٦٥ والقناطر تسقط فوقها وأنتى لم أكتب عن حرب اليمن من مكتبى ، بل كنت مع الجنود في الجبال . ولكن هذا كله لا أهمية له الآن بطبيعة الحال ..

رفع إبراهيم يده أمام وجهى وهو يقول : لا أشك في أنك كنت تكتب عن اقتناع المسألة هي ..

ولكنى لم أكن أسيطر على نفسي . كنت أرتعد وأنا أتكلم : قل لي من فضلك ما تعني به هذا الكلام . ألم يغير كثير من الصحفيين جلودهم لكي يبقوا في مناصبهم ؟ .. ألم يتسابقوا على لعن سياسته التي كانوا يسبحون بها مجرد إرضاء السادات ؟ .. هل فعلت مثلهم أنا ؟

- بالطبع لا . أنا أسف حقيقة . قلت لك لم أقصد أن ..

- لا ، بل تقصد ! ثم ماذا حدث أيام سيطرت أنت وأصدقاؤك على الثقافة في البلد ؟ .. ألم تفصلونى أيامها من لجنة الثقافة الجماهيرية ؟

- من فعل ذلك من فضلك ؟

- أنتم الشيوعيون .

- هذه أوهام !

كنت أعرف أن صوتي قد ارتفع وأن عيونا ترققني في المقهى ولكنني لم أبال :

- بل هي حقائق . كنت أحب الرجل وما زلت أحبه . أراد أن يغير الحياة في بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم .

ضرب إبراهيم كفا بكف واحتد أيضا وهو يقول : لا ! هذا يزيد على الحد !  
كيف حاربناه نحن وأين حاربناه ؟ في معتقل الواحات أو في معتقل القناطر ؟ أو  
ربما نكون نحن الذين حاربناه في اليمن وسيئناه دون أن أدرى ! .. انظر إلى  
الأمور كما هي يا صديقي . لم نكن نحن أبدا السبب فيما حدث . بل ما نحن  
ندفع عنه الآن رغم كل ماجرى لنا ..  
- بعد أن ضاعت الفرصة ..

- ومن الذي ضيعها ؟ ولكن قبل أن أرد مد إبراهيم يده في وجهي بسرعة وقال:  
اسمع . هل يمكن أن نوقف هذا النقاش ؟ .. اعتذر لك وها أنا اعتذر مرة أخرى .  
سامحني إن كنت قد جرحتك . اعترف أني أخطأت .. ثم أخذ يدق على المنضدة  
بسبابته وهو يقول : كل ذلك ما خر . ما خر بعيد . ما خر ميت . ألا تفهم ؟

لاحظت أمامي فنجانا من القهوة فمددت له يدا مرتعشة وحين أخذت منه رشة  
وجدته باردا . ركزت عيني في النهر ومرت فترة طويلة لم أكن أرى فيها شيئا  
ولكنني أفقت على حركة فوق السطح الساكن وضجيج . كانت هناك بجعة ترتكز  
على ذيلها وتشب بجسدها تكنس بجناحيها الأمواج بسرعة مخالفة ورائعا خطين  
متوازيين من الزيد الأبيض . وذعرت ببطات رمادية صفيرة كانت تسبح متراصمة  
خلف أمها فاندفعت نحو الحاجز الصخري أسفل النافذة وهي تصبيع بأصواتها  
الرفيعة وتهز ذيلها التي لم ينبع فيها الريش بعد . أما البجعة فسكت أخيرا  
وراحت تنزلق فوق الماء بجلال وهي تلتفت ببطء نحو اليمين واليسار .

رشفت بقية فنجان القهوة البارد في جرعة واحدة وقلت أقطع الصمت :

- اسمع يا ابراهيم . أنا أيضاً أسف وأرجو أن تسامحني . لم يكن هناك معنى لما حدث الآن وأنت هنا ضيفي .. لم تقل لي أولاً لماذا جئت إلى هذا البلد ؟

- أكتب موضوعاً للجريدة التي أعمل فيها و ..

ثم سكت لحظة قبل أن يكمل : وبالمناسبة أشكرك لأنك لم تفعل مثل أصدقائي المصريين الذين يقابلونني في الخارج فيسألونني بلهفة واهتمام كيف الحال في بيروت ؟ .. كأنهم لا يقرؤون في الصحف ما يكتفي بهم .

- ربما كنت أنا أيضاً سأأسأك لولا هذا التتبّي ، مع أن شاعراً كبيراً أخبرنا منذ وقت طويلاً بما يحدث الآن في لبنان ..

قال إبراهيم باستغراب : شاعر ؟

- نعم ، أخبرنا منذ سنين بما يجري الآن حين قال : نحن من بيروت مأساة ولدنا بوجوه وعقل مستعار ..

تولد الفكرة في السوق بغياناً ثم تقضي العمر في لفق البكاراة .  
كرر إبراهيم : تقضي العمر في لفق البكاراة .. ما أصدقها من صورة ! .. كل الأفكار العاهرة تسمى نفسها الآن مبادىء وتنزلي بالحقيقة . (ثم رفع إصبعه منها وهو يقول) ولكن ليس في بيروت وحدها . من هو هذا الشاعر ؟  
- خليل حاوي .

قطب حاجبيه قائلًا : لا أعرفه . هل هو قريب جورج حاوي ؟

- كيف أدرى ؟ .. كل ما أعرفه أنه شاعر وأنى أحبه .

وخطر لي أنتا في الماضي كنا نعرف رجال السياسة بفضل الشعراء . عرفنا سيف الدولة وكافور بسبب المتبي .. لا العكس - ولكننا نريد اليوم أن نعرف الشاعر السياسي .

نقتل شعراًنا بالصمت ونقتلهم بالنسيان . وأردت أن أسأّل إبراهيم : إن صبح أن الشعراء هم ضمير الأمة ، فما ضمير الأمة التي تتسمى شعراًها ؟ ..

غير أنى بدلاً من ذلك نظرت في ساعتي وقلت :

- ولكن هناك الآن سؤالاً مهماً آخر لم نسألة . كيف سناكل ؟ تجاوزت الساعة

الثانية ومعنى هذا أنهم أغلقوا المطبخ هنا وفي كل مطعم آخر في البلد .  
هـ إبراهيم رأسه قائلـا : ولكنك لم تفكـر .. أقصد أنتـا لم تـفكـر في السـؤـال  
المـهم فيـوقـتـ المناسبـ !

طلبـنا شـطـائـرـ خـفـيـةـ وـأـنـوـاعـاـ منـ الـحـلـوىـ التـىـ يـقـدـمـونـاـ فـىـ ذـلـكـ المـقـهىـ وـوـعـدـتـ  
إـبرـاهـيمـ بـأنـ نـعـوـضـ ذـلـكـ بـوجـبـةـ دـسـمةـ فـىـ الـعـشـاءـ ، وـرـحـنـاـ نـتـكـلـ وـنـحـنـ نـاـكـلـ عنـ  
زـمـلـائـنـاـ فـىـ الصـحـيـفـةـ وـعـمـاـ حدـثـ لـهـمـ خـلـالـ تـلـكـ السـنـينـ الـلـيـةـ بـالـتـقـبـلـاتـ .ـ نـتـحـدـثـ  
عـمـنـ صـعـدـ نـجـمـهـمـ عـلـىـ غـيـرـ تـوـقـعـ وـعـمـاـ أـبـعـدـواـ بـوـنـ إـنـذـارـ تـطـبـيـقـاـ لـسـيـاسـةـ السـادـاتـ  
فـىـ الصـدـمـاتـ الـكـهـرـيـائـيـةـ .ـ وـسـائـلـنـىـ إـبـرـاهـيمـ :ـ وـلـكـ كـيـفـ جـتـ أـنـتـ بـالـذـاتـ إـلـىـ هـذـاـ  
الـبـلـدـ ؟

قلـتـ ضـاحـكاـ :ـ أـظـنـ أـنـ السـبـبـ هـوـ مـكـتـبـيـ .

قالـ إـبـرـاهـيمـ فـىـ دـهـشـةـ :ـ أـىـ مـكـتـبـ ؟

أـشـرـتـ بـيـدـىـ فـىـ حـرـكـةـ دـائـرـيـةـ تـصـوـرـ مـكـانـاـ وـأـكـمـلـتـ :

ـ المـكـتبـ .ـ الـفـرـفـةـ التـىـ أـجـلـسـ فـيـهـاـ فـىـ الصـحـيـفـةـ .ـ كـانـ مـكـتـبـاـ كـبـيرـاـ كـمـاـ يـلـيقـ  
بـنـائـبـ رـئـيـسـ تـحـرـيرـ ،ـ وـكـانـ هـنـاكـ كـثـيرـ مـنـ اـرـتـقـاـ يـطـمـعـونـ فـيـهـ وـلـكـنـىـ كـنـتـ هـنـاكـ  
كـالـهـمـ عـلـىـ الـقـلـبـ وـلـمـ يـعـرـفـوـاـ كـيـفـ يـطـرـيـوـنـتـيـ مـنـهـ .ـ أـظـنـ أـنـ إـبـرـاهـيمـ كـانـ مـقـرـداـ مـنـ  
أـوـلـ يـوـمـ فـىـ اـنـقـلـابـ السـادـاتـ غـيـرـ أـنـهـمـ فـوـجـنـواـ بـأـنـ اـسـمـيـ لـمـ يـكـنـ فـىـ قـائـمـةـ  
الـتـنـظـيـمـ السـرـىـ لـلـاتـحـادـ الـاشـتـرـاكـىـ وـلـاـ فـىـ أـيـةـ قـوـائـمـ أـخـرىـ .ـ وـكـنـتـ أـيـامـهـاـ عـضـواـ  
مـتـخـبـاـ فـىـ مـجـاـسـ النـقـابـةـ فـتـحـمـلـوـنـىـ عـلـىـ مـضـضـ .ـ رـقـونـىـ إـلـىـ مـسـتـشـارـ لـلـتـحـرـيرـ  
لـكـىـ لـأـقـعـلـ شـيـئـاـ وـلـكـنـىـ ظـلـلـتـ رـازـحـاـ فـىـ مـكـانـىـ .ـ وـلـاـ فـتـحـوـ مـكـتـبـاـ لـلـصـحـيـفـةـ هـنـاـ  
كـانـ ذـلـكـ يـنـاسـبـنـىـ أـيـضـاـ .

وـلـمـ أـقـلـ لـإـبـرـاهـيمـ أـنـتـىـ رـحـبـتـ بـذـلـكـ الـابـعـادـ لـكـىـ أـهـرـبـ مـنـ مـصـرـ كـلـهـ بـعـدـ  
الـطـلـقـ .

وـلـكـ طـوـالـ حـدـيـثـاـ عـنـ الصـحـيـفـةـ وـعـنـ زـمـلـاءـ الـعـمـلـ كـنـتـ أـفـكـرـ فـىـ شـادـيـةـ فـىـ  
ذـلـكـ الـلـفـزـ الـذـىـ لـمـ اـفـهـمـهـ أـنـاـ وـلـاـ غـيـرـيـ طـوـالـ تـلـكـ السـنـوـاتـ ،ـ شـادـيـةـ ،ـ الرـشـيقـةـ  
الـجـمـيـلـةـ ،ـ أـجـمـلـ زـمـلـائـنـاـ مـنـ الـمـحـرـرـاتـ أـيـامـ بـدـأـنـاـ الـعـمـلـ .ـ أـحـبـتـ إـبـرـاهـيمـ وـأـحـبـهـاـ

وكلت أقول لنفسي هذا هو الانتخاب الطبيعي لأن إبراهيم كان جذاباً أيضاً بجسده الرياضي الفارع وعيونيه البنيتين النفاذتين ، تلفت وسامته النظر على الفور وإن لم يعن بملابسه أبداً على أساس أن الأناقة من قبيل البرجوازية الفارغة ! ظلت شادية وفية له في سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للقرب منها ، بل قبلت الإضطهاد الذي أصابها في الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد «أعداء الثورة» كما كان يقال أيامها . ولكن فور خروج إبراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما وتوسّطت أتا أيامها مع من توسطوا من الزملاء للصلح غير أتنا لم نفاج ولم تعط هى أو إبراهيم أى تفسير لما حدث . ثم فاجأتنا شادية بأن تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذي كانا نسميه «عم عبد اللطيف» بسبب وقاره المبالغ فيه وبيطه حركاته وإشاراته . وأنجبت شادية طفلها الأول بعد سنة بالضبط ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير إلى الإدارة وعملت موظفة في قسم الحسابات . بعدها تلاشت شادية التي نعرفها . ترهلت ولم تعد تهتم بظهورها بالمرة . كانت تلبس باستمرار فوق فستانها في الصيف والشتاء شيئاً يشبه المعلم واسع الكمين ودون أزار ، وهي تربط شعرها بياشارب وتكرر للزملاء بضحكة سعيدة أنها تفعل ذلك لأن «سي عبد اللطيف» يغار عليها جداً . أراها تتنقل بين المكاتب وهي حامل أو منتفخة البطن كالحامل ، تقف فترة على باب كل مكتب تسأله عن أخبار المحررين والموظفين في الصحيفة وتتنقل الأخبار من مكتب إلى آخر لأنها كما تقول وسط الضاحكة المجلجة التي تعلمتها «تموت في النيمية» . ولم أكن أصدق نفسي أن هذه هي شادية . هي نفسها تلك المحررة التي كانت تجلس إلى مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتعل بالانفعال والحماس وهي تتحدث عن حركة للتحرير في أفريقيا أو عن تطور الهجرة إلى إسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان . بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماماً وظلت أتساءل إن كانت هزيمة في الحب يمكن أن تفعل ذلك بالأنسان ؟

لم أطرح هذا السؤال أبداً على إبراهيم ولكننا ونحن نجلس الآن في المقهى في تلك المدينة الأجنبية تحتسى القهوة صامتين بعد وجيتنا الخفيفة وبعد أن أبدى

رغبت في أن تبقى فترة أخرى في ذلك المكان ، لم أستطع أن أمنع نفسي  
قلت لإبراهيم وكأني تذكرت شيئاً : بالمناسبة وما دمت قد سألتني عن منار  
فسأسألك أنا أيضاً سؤالاً حيرني كثيراً ، لماذا انفصلتما أنت وشادية ؟ لماذا  
تركتها أو لماذا تركتك هي ؟

قال إبراهيم دون أن يحول وجهه عن النافذة : وأنا سأرد عليك كما ردت أنت.  
أتظن أن معرفة ذلك تفيد الآن بشيء ؟

ثم ثقفت نحو مكملاً : ومع ذلك فإن لي صديقاً يقول يجب ألا يخفى الإنسان  
شيئاً بعد سن الخمسين . لا معنى بعد ذلك للإسرار ولا لأخفاء أى شيء . نعم ،  
كنت أحبها حقاً ، ولم أحب في حياتي واحدة مثلاً أحببتها . ولما طالت سنوات  
الاعتقال كتبت لها من السجن أني أحررها من الارتباط بي . وإلى هنا فلم يكن  
هناك بأس ، ولكنني .. « بدا على إبراهيم التردد لثوان ولكنه اندفع يكمل » كتبت لها  
أيضاً أنها إن أرادت انتظارى فهى حرة في أن تسلى نفسها بالخروج مع من  
تشاء من الرجال ..

قلت مبهوتاً : لا يقول الرجل شيئاً مثل هذا لأمرأة في بلدنا يا إبراهيم .  
- ولا في أي بلد آخر ياصديقي . ولكن هذا هو ماحدث . لو سألتني الآن لماذا  
كتبت تلك العبارة المشئومة فسأرد عليك بأنني لا أعرف . هل كنت أريد بالفعل أن  
أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له ؟ ربما . وربما كان هناك سبب آخر ،  
يتعذر الإنسان في السجن . العواطف المشبوهة في خارجه تتطفئ داخل أسواره  
ـ كانت رسائلها إلى ، على قصرها ، ملتهبة بالحب والشوق ، وكانت السطور التي  
أكتبها إليها خالية كالرماد ، فاترة كأداء واجب ثقيل . لابد أنها فهمت بالتدريج أن  
حبي لها قد مات . كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت متمسكة بي كل هذه السنين .  
ربما راودها الأمل أيضاً في أن الأمور ستتغير بعد الخروج من السجن لكنها بعد  
الغفران وبعد الانتظار الطويل رأت شخصاً آخر غير حبيبها القديم . رأت بالفعل  
كاتب تلك السطور الفاترة . وكان عبد اللطيف هناك . كانت تشعر بحبه المكتوم  
لها مثلاً تشعر بذلك كل امرأة . وكانت تعرف أن الصراف لا يحلم مجرد حلم أن

تبادله المحررة المهوية حبه . ظلت بالنسبة له معبودة عصبية أبعد من النجوم ،  
أظن أن هذا العشق العايد هو ما كانت تحتاج إليه وقتها ، هو ما كانت مستعدة  
لأن تضحي من أجله بكل شيء ..  
لعلها لو انتظرت قليلا ..

ولم يكمل إبراهيم ما كان يفكر فيه .

غمقت قائلًا : نعم ، لماذا ندم أنفسنا بأيديينا ؟

لم يبد أنه سمعني ، كان وجهه الآن يكسوه حزن عميق ولكنه هز رأسه وحاول أن  
يتكلم بنوع من الاستخفاف وهو يقول : ولماذا تسألني عن شادية وحدها ؟ ما  
حدث معها تكرر مع غيرها . لم أنجح في الارتباط بأية امرأة . عرفت في حياتي  
بعضًا من النساء وحين كنت أعرف فتاة متحررة ومتقدمة كنت أجدهن نفسى دون أن  
أدرى أشعر بحنين للسذاجة والبراءة ، وحين التقى بفتاة بسيطة ينتابنى بعد فترة  
الضيق وعدم الاقتئاع ، أجدهن أدنى احتجاج أىضا إلى عقل اتحاور معه ، وهكذا ..  
أظن أنى ضيعت عمرى أبحث عن واحدة تجمع بين كل المتناقضات ولم تخلق

بعد ..

- أو ربما كان يلزمك شيء من التواضع .

- ربما ، ولكن الوقت فات على كل حال . في سيني الآن لم تعد المرأة تشغلى  
كثيرا ، سيكون أفضل من هذا أن نتحدث عن أشياء تفيد في العمل . سأبقي هنا  
أياما قليلة وأمامي عمل يمكن أن تساعديني فيه ..  
انحنيت في اتجاهه وأنا أخفض صوتي : إذن سأحدثك عن أول شيء يفيدك  
في العمل ولن نبعد كثيرا عن الموضوع .. هل ترى هذه الفتاة هناك ، التي تجلس  
عند النافذة تقرأ في كتاب ؟

نظر إبراهيم نحوها وكانت تعبث بخصلة من شعرها الأشقر القصير وهي  
منهمكة تماما في القراءة ، وتبعد مثل طالبة تلبس بنطلونا من (الجينز) وحذاء من  
المطاط .

حول إبراهيم عينيه عنها وقال بلا مبالغة : هي صغيرة جدا وقد قلت لك إنني لم

أعد مهتما بالنساء ..

- ولكن صدقنى إنها هى مهتمة بك جدا . لاحظتها تجلس فى صالة الفندق  
الذى كان فيه المؤتمر بهذا الانهماك نفسه فى القراءة .

- ولكن لماذا ؟ .. ثم استدرك فجأة وهو يضحك : غير معقول ! حتى .. هنا ..  
- وبالذات هنا ! أتظن أنك تأتى متذوباً لصحيفة فلسطينية ، ويسارية أيضا ،  
ثم تترك الديمقراطية تغيب عن عينيها ؟

قال إبراهيم وهو مستمر في الضحك : وهل يتبعونك أنت أيضا ؟

- لا ، أنا صحفى من بلد مسالم ووديع .

ألقى إبراهيم على الفتاة نظرة عابرة أخرى ثم هز كتفيه باستهانة وهو يقول :  
هذا شيء تعودنا عليه فى كل بلد ، وبما أنتى لا أفعل شيئاً غير أن أكتب فهو لا  
يعنيني . الأفضل أن تحدثنى عن شيء آخر ، ماذا عن البلد والناس هنا مثلا ؟

أردت التهرب لكنى لا مختلف مرة أخرى قلت له إننى لا أعرف كثيراً من  
الناس هنا لأنهم لا يحبون الأجانب ولا يخالطون بهم . فرد بيقينه القديم الذى لا  
يتزعزع أنت لاتخالط بالشعب . لو عرفت بعض اليساريين مثلًا لرأيت صورة  
مختلفة من الحياة . ورفض أن يصدقنى حين قلت له إننى لا أرى فرقاً هنا بين  
يسار ويمين وإنهما عندما يتوليان الحكم يتساويان على الأقل فى استغلال بلاد  
عالماً الفقير ، ويبتزوننا بالديون . كان إبراهيم يهز رأسه مستنكراً ويكرر إننى  
أعيش فى أوروبا دون أن أراها ، وإنها ما زالت رغم كل شيء هى الأمل فى  
المستقبل ..

وواصل إبراهيم بانفعال : أنا لا أتكلم حتى عن العلم أو عن الحضارة بل عن  
الإنسانية ذاتها يا صديقى . قل لى من فضلك كم طبيباً عندنا فى مثل سن  
الدكتور مولر أو أصغر منه يتطوعون للدفاع عن المظلومين فى العالم أو حتى فى  
بلدهم نفسه ؟ أو كم مهندساً أو كم قانونياً أو صحفياً ؟ .. سأقول لك شيئاً .. فى  
المستشفيات وفي المخيمات فى بيروت رأيت مرضات متقطوعات من السويف ومن  
هولندا ومن إنجلترا ومن بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا . يعرفن ما الذى يتذمرون

وسط الحرب الأهلية والقتل الجنون . واحدة منها لابد أنك قرأت عنها فقدت  
أطراها برصاص الكثائب في تل الزعتر ، لكن زميلاتها بقين هناك ..

- ولكن لابد أنه توجد ممرضات عربيات أكثر منها ..  
أطرق إبراهيم برأسه وقال : نعم ، ويوجد أيضاً صحفيون عرب مثل ذهبوا  
لأنهم يؤمنون أن القضية قضيتهم ، فلا فضل لهم إنن إن ذهبوا .. نحن ذهبنا  
ندافع عن أنفسنا لغير ، والبعض منها أيضاً موظفين يتلقون أجراً . ولكن لا  
أتكلم عن ذلك ، أنا أتكلم عمن يطوع . عمن يعطي من نفسه للآخرين ، بالفعل لا  
بالكلام العالى الصوت . أتحدث إن شئت عن الإنسانية التي لا تراها أنت هنا  
وأراها أنا هناك كل يوم . نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متقطعين أو عشرين  
أو ثلاثين . مائة فدائي أو مائتين أو ألفاً . ولكن هل هذه يا صديقي هي العربية  
التي عشت تحلم بها ؟ .

زفرت وأنا أقول : عندي من الهموم ما فيه الكفاية . يا إبراهيم فارجوك أن  
تسكت إذا سألتني أين هم العرب فسوف أسائلك أنا وأين هم عمال العالم الذين  
اتحروا ؟ لا تدعنا نختلف مرة أخرى .

ثم قلت لكى أغير الحديث : ولكن جاعتنى فكرة بعدما قلت ، هي أن نتبادل  
أماكننا تائى أنت هنا لتعيش فى أوروبا مع اليسار الذى تحبه وأذهب أنا إلى  
بيروت ..

فقال مقطباً : ولماذا لم تفعل ذلك من الأصل ؟ .. أنا لا أريد أن أعيش هنا ؟  
ولكن لماذا لا تائى أنت إلى بيروت ؟ ..

- لم تكن أمامى فرصة لل اختيار . تعرف أن صحيفتنا ليس لها مكاتب في أى  
بلد عربى منذ الصلح . وأنا أحتاج للمرتب لكي أربى الأولاد ، ليس لدى أى دخل  
آخر .

ولكنى شعرت بأن إبراهيم لا يتبعنى . كان ينظر الى ركن معين في المقهى  
وقال :

- إن كنت حقيقة لا تعرف أحداً في هذا البلد فسأعرفك أنا على أجمل واحدة  
فيه ..

تابعت اتجاه عينيه فوجدت بريجيت والدكتور مولر يجلسان الى منضدة قرب المدخل .

حولت بصري عنهم قائلا : أنت من المؤكد لا تعنى ما تقول ! .. دعها في حالها يا إبراهيم. يكفى ما جرى لها من تلك الترجمة التعيسة .

فنهض وهو يقول : معذرة إن لم يكن عندي وقت لمثل هذه الحساسية . أنا صحفى لدى عمل هنا وأريد أن أتكلم مع مولر ومع هذه الجميلة ...

عندما كان إبراهيم يتجه إلى حيث تجلس بريجيت ومولر ، تابعته (الطالبة) بعينيها دون أن ترفع رأسها من الكتاب . وحولت أنا نظرى نحو النافذة . كانت هناك سحب خفيفة تنتشر في السماء تغطي قرص الشمس وإن لم تحجبه ولكن مياه النهر فقدت التماعها وبدا سطحها المتموج بلون الزئبق وهجع البُعْجُ والبطْرُ قرب الشط ، غمر المكان كله سكون غريب لكنه لم يغمري .

أخذت كل الأشياء التي تحاورت فيها مع إبراهيم تتدخل ، لا تفسر شيئا ولا تضىء شيئا ولكنها تقطاطع وتتكاثف وتنتهي إلى طرق مسدودة . بعثنا الماضي فإذا كل الألفاظ حية مثلاً كانت في الأمس بعيد . هل عرفت مثل ماذا انفصل هو عن شادية ؟ ليكن أنه قد فعل ما فعل فلماذا لم يشرح لها بعد خروجه من المعتقل أنه لم يكن يقصد إهانتها ؟ .. لماذا لم يشرح لها ولماذا لم تغفر له ؟ ولماذا كان يجب أن تدمر نفسها بعد ذلك ؟ أين هو العطب الذي ينهشنا ويسبب الدمار ؟ ولماذا فسست الأمور بيني وبين منار ؟ أعني الحقيقة ولا أعني تلك التفاصيل التي تحدث آلاف المرات كل يوم بين الأزواج ، أذكر جيدا تلك الصحراء من الصمت التي عشت فيها مع منار شهورا وشهورا قبل الطلاق . نتجنبا أن تلتقي عيوننا ونهرب أن يجمعنا مكان واحد مع خالد وهنادي . كنا محاربين استسلاما للعدو لا يجرؤ أحدهما أن يرفع عينه في وجه الآخر من الخزى . ولكن من كان العدو ؟ .. ما الذي اكتشفته في أو الذي اكتشفته أنا فيها ؟ .. أرآها الآن في ليلة بعيدة أبعد حتى من صدور كتابي الميت . كنا مدعوين إلى العشاء عند أحد الأصدقاء .

وقفت أنتظرها وهي ترتzin أمام المرأة . بعد أن انتهت تحسست بيدها العقد الذي ينتهي بقلب ذهبي ، وكان هدية قديمة عدت بها مرة من أحد الأسفار . قالت متبرمة أظن أن كل صاحباتي سئمن من رؤيتي بهذا العقد . كل واحدة عندها أطقم من المجوهرات تناسب أزياءها وأنا لأشيء عندي غير هذا العقد . أفلتت مني العبارة دون قصد وأنا أزفر : لم ينج من هذا الانفتاح أحد .. هل تعمدت هي أن تتحدث عن العقد أو هل تعمدت أنا أن أذكر الانفتاح ؟ لا أظن . ولكنها التفتت نحو فجأة بعينين محتقنتين وقالت بصوت خافت وشفتين مرتعشتين لا تتكلم عن الانفتاح من فضلك ولا تتخذ هذه المواقف السامية . أنت .. أنت شخصيا أول الانفتحابين ومن قبل أي انفتاح . لم أكن أنا التي طلبت السيارة المرسيديس ولا هذه الشقة في جاردن سيتي . كنت قانعة ببيتنا الصغير في الجيزة ولم أطلب شيئا . قلت ولكنني كنت أحاول أن أسعده يا منار أنت والأولاد . تعرفيين أنى دفعت كل ما أملك من أجل السيارة والشقة . هل سرقت لكى أفعل هذا ؟ .. تكلمت وجسدها كله ينفضض لا ، لم تسرق . فقط كنت تدخل العملات الصعبة وتشترى وتشتري . قلت لم أفعل سوى ما كان يفعله غيري ، فصرخت وهي تنزع العقد من رقبتها إنن لا تعطيني دروسا عن الانفتاح ولا عن غيره . لا تعطيني دروسا من فضلك . استبدل بي الغضب وأنا أقول لها لم لاحظ مع ذلك أنت ترفضين شيئا مما أشتريه ، لماذا قبلت السيارة والشقة دون أن أسمع منك كلمة ؟ .. فقالت وهي تلوح بسبابتها فى وجهى مع كل كلمة : أنا لم أطلب شيئا . وأنا لم أقل إننى ثورية . وأنا لم أحکم قصصا عن فقرى فى القرية وعن عذاب الفلاحين وعن العدل الذى ستاتى به الثورة .. ثم ازدادت اقترابا منى وهي تقول : وأنا لم أهاجم الانفتاح ! ردت عليها .. بماذا ردت ؟ لا يهم . لا يهم . ولكن هل كان ذلك إنذارا بإنها قد تحررت من شيء ما ؟ .. زبما فيبعد ذلك بقليل بدأت منار مشاريعها الخاصة ، بدأت تدخل لحسابها وبدأت تشتري الفضة من خان الخليلى ثم تعيد بيعها عندما ترتفع الأسعار . وقالت لى ذات يوم بطريقة عابرة إنها

اشترت (ربع تاكسي) وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن الإنسان يمكن أن يشتري كسور التاكسي . وذلك قبل أن يصبح التاكسي كله ملكها وقبل أن تشتري من النقابة بالتقسيط قطعة من الأراضي التي أعلنا عنها في الغريبة وقطعة أخرى في الهرم .

ولكن مرة أخرى على أي شيء تلومها ؟ لم تبتذل منار نفسها أبداً وهي تفعل ذلك . ألا تذكر أيامها زميلات محترمات كن يبعن في مكاتب الصحفية ذاتها الملابس المستوردة والنظارات والأدوات الكهربائية وزملاء محترمين كانوا يعملون بتجارة «الشنطة» بين القاهرة وبيروت ؟ على أي شيء تلومها ؟ .. لا ألومها ولكنني أسائل : كيف وصلت إلى ذلك وهي التي لم تهتم عمرها كله بالمال ولا بالاقتناء ؟ .. هل كانت تنتقم مني ؟ .. ولماذا ؟ .. أنت الذي قدمت لها المبرد على أية حال . لم تفعل سوى ما كان يفعله غيرها ولم تفعل أنت سوى ما كان يفعله غيرك . كنت أنت أيضاً تشتري وتشتري .. لماذا ؟ .. وممّى بدأت الكلمات تصبح مجرد كلمات ؟ الثورة والعروبة والاشتراكية والعدل ؟ .. كلمات للمقالات واللبنات ولكنها ليست للحياة ! لم أفعل سوى ما كان يفعله غيري ! .. أن تقنع الآخرين بكلماتنا .. بالعدل والمساواة والثورة والتضحية ، ولكننا نعيش مع ذلك كله في درجة أرفع . في رفاهية أكثر لكي يواتينا الإلهام ! لم أر ولم ير غيري أي تناقض في ذلك كله . ولكن منار كانت ترقبني وفي عينيها الإدانة حين التقى ب أصحابي ونطق الكلمات الرنانة .. أرأيت ؟ .. الانتفاضة ! ١٩٠١ يناير .. الشعب يتحرك .. النهاية تقترب ! أرأيت ؟ الشاه والسدادات في أسوان ، تصور ؟ .. مصر ت يريد أن تدفن النفايات الذرية لأوروبا في الصحراء ! تصور ! كلمات وكلمات وكلمات نقولها ونحن نتحسس ربطات العنق الفالية وتنتلت حولنا وكان الجواسيس يسجلون كل كلمة نقولها . وكان كل كلمة ستهد الحكم ! .. ماذا لو أثنا بالفعل قد عشنا الثورة التي نتكلم عنها ؟ .. لو أنا قد عدنا لقرانا أو لاحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلاً دون خطب دون شعارات ؟ .. هل كان كل شيء سيموت بالفعل ؟ .. وماذا فعلنا ليلة زيارة القدس ؟ .. اعتبرنا أننا أثينا كل ما علينا حين اجتمعنا في المقهي وتناقشنا

وصرخنا وبكينا . طظا! طظا! ما علاقة هذا حقيقة بالثورة ؟ .. وما فائدة تلك الأفكار الآن ؟ وما علاقة هذا الأفندي الجالس على المقهى المطل على النهر والجبل الأوروبي الأخضر بذلك الطفل الفقير الجائع الذي كان يمشي ساعتين كل يوم بحذاه ممزق ، يمشي في التراب وفي الطين وفي الحر وفي البرد لكي يذهب إلى المدرسة وهو يحلم طول الطريق بالجنة لأن فيها الكثير جدا من الأكل ؟ .. وما معنى أن استمر في هذه الحياة الكذبة ؟ .. من أكون .. ولم لا أنزل الآن في جوف النهر . أرقب من قلب الماء بطون ذلك البحيرة الأبيض الرجراحة وأصلى أن يحملني التيار بعيدا جدا ، بعيدا عن البحيرة وعن البحير وعن الأشجار والجبال وعن البشر - بعيدا إلى فجوة مدفونة وسط الصخور أندس فيها وأنزوئ ثم تغمرنى الطحالب والنباتات والواقع والأسماك وتخفينى إلى الأبد ؟

لو أني فقط أتلاشى !

## هذا المساء أريد أن أتكلم

ربت إبراهيم على يدي فاجفلت .

قال : لماذا بك ؟

أجبت بون وعي : أنا خائف !

ضحك إبراهيم وقد ظنني أمزح وقال : إذن لا تبكي وحدك . تعال ، انضم إلينا .

طلب الدكتور مولر أن أمعوك .

عرفت إبراهيم على مولر وبريجيت بكلمات سريعة وتبادلنا بعض عبارات عن عملى وعن الحياة فى تلك المدينة ورأى فيها . وكتت أحارول التركيز وأنا أجيء ولكن اللغة الانجليزية عصتني مثلاً تعصانى عندما أكون شارداً ومتعباً فائترث الصمت .

اتجه إبراهيم نحو مولر يستأنف حديثاً بدأه من قبل : معي بالطبع مستندات عن حالات محددة يمكن أن أعرضها عليك ..

وبينما كان إبراهيم يفتح حقيقة يده الصغيرة ليخرج بعض الأوراق شرح لي بطريقة عابرة : هذه حالات عن بعض الفلسطينيين واللبنانيين الذين تخطفهم دوريات إسرائيل من جنوب لبنان بمساعدة جيش سعد حداد ...

وعندما أخرج أوراقه راح يصنفها قبل أن يقدمها إلى مولر وهو يقول : بعض هؤلاء المخطوفين عذبوا في إسرائيل وبعضهم اختفوا إلى الأبد . رفع مولر عينيه عن الأوراق بعد أن تصفحها وقال وهو يهز رأسه : نعم ، هذه حالات تدخل ضمن اختصاصنا ولكن من بعيد . لا يمكن أن تقدم هذه الأوراق إلى منظمة العفو ..

صوتها مسموع أكثر منا ..

رد إبراهيم : نحن قدمناها بالفعل إلى منظمة العفو . ولكن شهادتكم كأطباء عن حالات التعذيب بالذات ..

ولم أعد أتابع الحوار. كنا نجلس إلى منضدة بعيدة عن النافذة فاختفى عن عيني النهر ولكنني رحت أنطلع باستغراق إلى السماء وإلى الجبل البعيد.. ما الذي نذكرني الآن بهذا الطفل؟.. ما الذي فتح كل هذه الجروح ؟ أم أنها مفتوحة دائما وكل مافي الأمر أتنى أتلهمي عنها في بعض الأحيان؟.. وماذا عن هذا الجرح الآخر الذي لاينسى أبدا ولا يفلح أى شيء في أن يلهيني عنه :إتنى أنا أيضا صنعت شقاء لطفلين هما كل عالمي ، أو كاتنا كل عالمي ؟ .. بم ينفع في هذا أى تبرير أيها الها رب؟.. وهل يعذبك هذا حقا كما يبنغي أم أنك مازلت مشغولا بنفسك قبل كل شيء؟ بطفلك المقهور في داخلك منذ أكثر من أربعين عاما أو ربما خمسين عاما؟.. لو أتنى فقط أعرف أين هي الغلطة الحقيقة أو متى بدأت؟

مالت بريجيت نحوه وقالت بصوت خافت: فيم تفكرا ؟

فقلت دون تدبر - في أن هذه الحياة كذبة..

تراجعت إلى الخلف وهي تقول بدھشة خفيفة : لم أكن أظن أن هذه هي المشكلة .. كنت .. أظنها حقيقة أكثر من اللازم ..

ثم عدنا نلزم الصمت. راحت تدخن وتجيل عينيها بين مولر وإبراهيم المنهمكين في الحوار. ولاحظت أن التعبير الذي بدا في وجهها في آخر ذلك المؤتمر الصحفي مع الفريندو إيبانيز مازال باقيا في عينيها الواسعتين . كانت حدقتها الزرقاءان تتحركان بسرعة وقفناها يختلجان باستمرار وهي تحاول أن تتنقلب على هذا بالاستغراق في التدخين وبسمة ثابتة على شفتيها . واكتشفت وأنا أنظر إليها عن قرب لأول مرة أن ملامحها كبيرة إلى حد ما. كان أنفها طويلا وبارزا وفمها واسعا قليلا ولكن كل شيء في وجهها يبدو مع ذلك متناسقاً وجميلا بجميئتها العريضة وشعرها الذهبي اللامع الكثيف الذي كان مفروقا في منتصفه وقد صنعت منه ضفيرة طويلة تلتف في دائرة مستوية خلف رأسها وبيرز تحتها

عنها الأبيض العالى. واكتشفت ايضاً وانا اطلع اليها أن ابتسامتها لم تكن مفتعلة مع ذلك ، بل إن وجهها باسم بطبعته . وحاولت أن أعرف من أين يأتي هذا الإحساس ولكنني لم أستطع أن أحدد ..

كان مولر يقول لإبراهيم وقتها : لابد أن نرسل لجنة تحقيق . ونحن في الحقيقة منظمة فقيرة تعمل بتبرعات الأعضاء ومعظمهم عجائز مثلى .. يعني حتى لو دبرنا الأموال فستكون هناك مشكلة في أن نجد متطوعين للبعثة .. أعني متطوعين شباباً قادرين على العمل ..

قال إبراهيم ألا يمكن أن تفعلوا هذا عن طريق التعاون مع منظمة أخرى ؟ وراح إبراهيم يستعرض أسماء منظمات ولجان لها فروع في لبنان ويداً أنه مصمم على ألا يتترك مولر قبل أن يحصل منه على رد: ولم يكن لنا مكان في هذا الحوار ، فملت على بريجيت وقت بصوت خافت: فهمت مما قاله مولر في بداية المؤتمر أن الترجمة ليست مهنته .

فقررت وجهها مني وقالت وهي تهمس مثلى: لو كانت مهنتي لما أفسدت المؤتمر.

ثم بسطت كفيها كالمعتدرة وهي تبسم .

قلت : ولكن مافعلته أنت كان هو الشيء الإنساني الوحيد في هذا الاجتماع فاختفت الابتسامة وتصلب وجهها إلى حد ما وهي تقول : أبداً . أنا لست أفضل من غيري . كانت.. كانت مجرد لحظة ضعف ..

قلت مستغرياً: ولكن لماذا تعذررين عن ذلك؟

هزت كفيها وهي تقول : كل ما في الأمر أنى لأحب التظاهر ، لا أريد أن تفهم عنى شيئاً غير حقيقي . قلت إنك تكره الكذب، أليس كذلك ؟

حاولت أن أغير الموضوع فأشرت إلى زيها الأزرق وسألتها : هل أنت مضيفة طيران ؟

— لا، ولكن بالفعل مضيفه من نوع آخر . أنا مرشدة سياحية .

كنت أجاهد لأوصل الحديث بأى طريقة من أجلها ومن أجلى، لكنى لا نرجع مرة أخرى إلى الصمت والشروع، فسألتها : وأنت تحبين هذا العمل ؟ عادت إلى الابتسام وقالت : لم أختره ولكنه كان العمل الممكн لى كاجنبية فى هذا البلد . أعرف بالمساعدة عدة لغات .

بحثت عن شيء آخر أقوله ولكننى لم أستطع أن أستمر أكثر من ذلك . عدت أركن ظهرى إلى المقدع صامتا كما كنت ، وطلت لفترة تنظر نحوى فى تطلع ثم انسحبت هى أيضا وأشعلت سيجارة جديدة .

قطع مولر حديثه مع إبراهيم والتقت نحوها بشيء من الغضب: يكفى هذا التدخين يا بريجيت! فمالت وريبت على يده قائلة: لا تضمض يا دكتور، أنا لا أدخن مطلقا أثناء العمل . ثم ضحكت وهى تكمل: أنت تعرف أن التدخين ممتوٰع فى الآتوبيس السياحى على الأقل .

ومرة أخرى لاحظت أنها حين تضحك أو تبتسم ، أو حتى بمجرد أن تحرك شفتيها ، تظهر فى بشرتها خطوط رقيقة متوازية فى نزقها وعند ركنت عينيها . وقلت لنفسى ربما كان هذا ما يعطى وجهها تعابيره الباسم باستمرار . وأمعنت النظر فيها وأنا أتساءل: فمن أين إذن يأتي ذلك التعبير الآخر الذى لا أستطيع أن أحدهه ؟

وكان مولر يكلمها وقتها بالألمانية التى أفهم منها بعض العبارات واستطعت أن أميز منها قوله : هل هو عقاب ؟.. ليس هذا حسنا يا بريجيت .

اتجه إبراهيم نحوها وقال بلهجة حميمة كأنه يعرفها من زمن طويل على طريقة الصحفيين حين يحاولون إغراء الآخرين بالحديث: بريجيت .. أنت ألمانية أو إسبانية ؟

فردت : لا هذه ولا تلك، أنا نمساوية .

قال إبراهيم: ولكن واضح أنك تجيدين الأسبانية تماماً. كان بيده يتكلّم أحياناً بسرعة شديدة وبصوت خافت في معظم الأحيان لكنك كنت تتبعينه باستمرار. أين تعلمت الأسبانية؟

- في الجامعة.

ثم سكتت قليلاً وقالت: وهي أيضاً لغة زوجي.

خيل إلى أن صوتها تغير قليلاً وهي تقول ذلك. وخيل إلى أيضاً أنني لاحظت نوعاً خفيفاً من الدهشة في وجه إبراهيم حين تكلمت عن زوجها، ولكنه واصل بلهجة العادية: وزوجك أسباني أو من أمريكا اللاتينية؟

رنت في صوتها نبرة من التحدى لم أعرف سببها وهي تخاطب إبراهيم:  
- لا من أسبانيا ولا من أمريكا اللاتينية هو أفريقى من قارتك. من غينيا الاستوائية.

سألها إبراهيم: وهم يتكلّمون الأسبانية هناك؟

وهي كانت تعرف أنه يسأل لمجرد أن يقول شيئاً، ولكن بريجيست ردت والتوتر يزداد في صوتها: أنت صحفى، ومن أفريقيا أيضاً، ولا تعرف إن كانوا يتكلّمون الأسبانية هناك أم لا؟

ثم تراجعت على الفور وقالت: أنا آسفة. لم أقصد ما قلت. هو بلد صغير على أي حال ولم أقابل كثيراً من الناس يعرفون شيئاً عنه.

تدخلت في الحوار لكي أنقذ إبراهيم الذي احتقن وجهه وقالت: إذن حديثنا أنت عن البلد. أعترف أنت أيضاً لا تعرف شيئاً عن غينيا الاستوائية. هل ذهبت إلى هناك؟

قطبّت جيّنها وبدا عليها التردد لحظة قصيرة، ولكنها تغلبت على ذلك التردد بسرعة واندفعت تقول: كنت أتّوّى الذهب ولكنني طلقت قبل أن أذهب.

ثم ضحكت بريجيت ضحكة مرتبكة وحل الصمت من جديد وزاد إحساسى بالتوتر فأردت أن أقوم ولكن إبراهيم قال لحظتها : سمعتكم تقولين إنك مرشدة سياحية وهذه أول مرة أزور فيها المدينة فما هي الأشياء التي تتصحين بأن أراها؟

مدت بريجيت يدها إلى حقيبتها الموضوعة على المنضدة وأخرجت بطاقة صغيرة قدمتها إلى إبراهيم وهى تقول: يمكنك أن تأتى إلى شركتنا في هذا العنوان وفي هذه المواعيد المكتوبة في البطاقة . ويمكنك أيضاً أن تحجز بالטלيفون، وإذا كنت أنا المرشدة في الوقت الذي تأتى فيه فسأرشدك باهتمام خاص .

ضحكتا جميعاً ضحكة بلا روح ولكن مولر قال وفي عينيه نظرة ماكراً :  
- أظن أن السيد إبراهيم كان يفضل أن ترشديه بدون الشركة . فقال إبراهيم مواصلاتك الضحكة الفاترة: نعم بدون الشركة وبدون الإرشاد أيضاً ..  
لكن ابتسامة بريجيت ضاعت فجأة وراحت تنقل بصرها بيننا نحن الثلاثة ثم ركزت عينيها على مولر بنظرية ثابتة وقالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية تماماً: أرأيت يامولر؟ .. ألم أقل لك؟.. ها نحن نضحك ونمزح وكأن شيئاً لم يحدث .. لم يبعث أحد بأصابعه في جروح بيبرو ولم يقتل أحد أخاه فريدي . فما الداعي إذن إلى التظاهر؟

كانت تتطلع إلى مولر وحده وكأنها قد نسيتنا وعاد إلى وجهها ذلك التعبير الآخر الذي لم أستطع أن أحدهه من قبل . ذلك الجمود الكامل في ملامحها وعيونها، قناع يسقط على الوجه فيخفيه . أى قناع هو؟ .. للحزن أم للقسوة؟ .. لا هذا ولا ذاك، فما هو؟.. لكنها لحظتها أستندت رأسها بيدها ومالت برقبتها لتبعدها عننا . وقلت لنفسي ها هو القناع سيسقط! ما هي الآن ستبيك؟ ..  
وتوقع مولر ذلك أيضاً على ما يبديو فمد يده نحوها قائلاً بشيء من الاضطراب:

- بريجيت! ..

التفتت نحونا بعينين محمرتين الى حد ما ولكن لا اثر فيهما للدموع وقالت بنبرة التحدى الأولى وهي تخاطب مولر : لا تقلق ... ثم أشارت نحو بيدها وأكملت : كل مافي الأمر أنتي أردت أن أثثت لهذا السيد أن من يتذمّر يتذمّر وحده. لم يتذمّر أنا ولم يتذمّر أحد ممن حضروا المؤتمر . لم يتذمّر أحد غير بيدهو ...

وداحت تدق على المائدة باصبعها وتطلع الى مولر: مهما كانت اللجان الطبية والمؤتمرات الصحفية يا دكتور ..

سأّل مولر بنوع من اليساس: وإنْ فَهِلْ مِنْ رَأِيْكَ أَنْ تَكْفُ عَنِ الْعَمَلِ؟ فَحَوْلَتْ بِرِيجِيْتَ نَظَرَهَا عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ بِصَوْتِ خَافِتٍ: بَلْ كُنْتَ أَقْصَدْ شَيْئًا أَخْرِيًّا .. ثم نظرت نحو ابراهيم ونحو وقالت : ولكن لم أقصدكم بالذات. أنا أسفه. أصبح الجو ثقيلاً ومحيراً فقال إبراهيم وهو ينظر نحو ويهز رأسه متفاهمًا على أن ننصرف : ولكن لماذا تقولين ذلك ؟ .. نحن الذين يجب أن نعتذر حقيقة . ووضع يديه على مسندى المقعد متأنباً للنهوض وهو يقول : أنا وصديقي كنا نوشك أن ننصرف على أى حال .

غير أنها مدت يدها نحوها وقالت بنوع من الالاحاج : ولكن يمكنكم البقاء قليلاً مع ذلك. أقصد إذا سمحتما .

عدنا نستقر في مكаниتنا بشيء من الارتباك. غير أن بريجيت التي أاحت علينا لنبقى تركتنا وأحنت رأسها وعادت إلى الصمت وزحف على وجه مولر توتر لم أستطع أن أفهمه وهو يراقب بريجيت. بدا لي وهي تتشبث بالمقعد وتشد جسمها إلى أعلى أنها تبذل مجدهداً صعباً لكي تسيطر على نفسها. وقلت لنفسي وأنا أنظر إليها لماذا تقاومين البكاء يا بريجيت ؟ لم لا تبكين وتستريحين ؟ .. لعلك فقدت مثلى القدرة على البكاء ؟ أنا أعرف أنني فقدتها من زمن ولكن متى ضاعت مني ؟ .. ربما كانت آخر مرة بكين فيها منذ سنين. بعد الطلاق عندما أغلقت على

نفسى باب الحجرة التى أجرتها فى الفندق وأمسكت ورقة الطلاق ورحت أقرأ تلك العبارات الغريبة التى قطعت الى الأبد ما بين منار وبينى «أنا مأذون حى... حضر السيد.. ومعه زوجته ومدخلونه .. الشيب الرشيدة .. طلقة أولى بائنة.. ولا يحق له الدخول بها إلا.. رقم ١٠٩٦٠».. لحظتها جاء البكاء من تقاء نفسه.. جاء عنينا لا ينقطع .. اختلطت لحظات الشقاء بلحظات الفرح.. قبلاتنا المختلسة أيام الخطبة.. وجهها الشاحب يوم ولدت خالداً وهى ترقد على العربية التى نقلوها بها من غرفة الولادة.. يدها الرخوة تمسك بيدي وتقول بابتسامة ظافرة رغم التعب: كنت أعرف أنك تريد الولد!.. تلوح لي عند باب الخروج وتشب على قدميها وتقول أسرع لا تشتري شيئاً من السوق الحرة، لا أريد شيئاً اخرج بسرعة.. وجهها الجامد و هي تقول بجسم سأخذ الأولاد، ثم منذ متى كانت تربية الأولاد تهمك؟ .. كل شيء فى لحظة واحدة وسط الدموع، غير أنى وقتها كنت أبكي على نفسى.. كنت أرثى لحالى وأرثى لخالد وهنادى - لا أقصد الآن هذا البكاء، أقصد البكاء على أى بيادرو أو على أى الفريد.. أقصد بكاء كبكائى صبياً على «أم صابر» الشهيدة وعلى جنود البوليس الذين قتلهم الانجليز فى الإسماعيلية .. كالبكاء على جميلة بورحيد حين عذبها الفرنسيون فى الجزائر .. كدموعى على لومومبا يوم قتلوه فى الكونغو ودموع الناس فى الشارع يومها.. أعني تلك الأشياء التى غابت الآن بعيداً جداً.. التى حدثت منذ قرون وقرون.. أقصد منذ متى فقدت الاحساس؟ ولكن فلننقل إلى عجوز فماذا عنك أنت يا بريجيت؟... ربما كان الحق معك من يتعدب يتعدب وحده فلماذا نتظاهر؟

غير أنها الآن تبتسم ابتسامتها العادمة وهى تسحب سيجارة جديدة من علبتها وتعتذر: سامحنى يادكتور ..

هز الطبيب كفيه وعاداً يتبدلان عبارات قليلة بالألمانية ..

ولما انتهيا التفت مولر نحونا وقال بلهجة عاتبة، تكاد تكون لهجة حزينة وهو يشير إليها: هي تعرف أنتى أعتبر نفسى مسئولاً عن كل ما يحدث لها فى هذه

المدينة. والدها هو أعز صديق لي. ذهبتنا معا أيام الشباب إلى الحرب في أسبانيا ولم نفترق من وقتها . كان يريد أن تدرس بريجيت القانون مثله ولكنها فضلت أن تدرس الأدب ووسطتني لكي أقنعه .. ثم التفت نحوها وهو يقول : من يدرى يا بريجيت؟ .. ربما لو درست القانون لكنت معنا الآن هناك في البلد .. ربما كنت قد عملت مع أبيك وربما كنت قد واصلت العمل في مكتبه بعد أن تقاعد ..

قالت بريجيت: ولكنني سعيدة بعملي هنا يادكتور مولر. أفضله ألف مرة على التقى في كتب القانون وعلى كتابة المذكرات . وأفضل البقاء هنا على العودة إلى البلد.

سألها إبراهيم بلهجة تكاد تكون مازحة : ألا تشعرين بالحنين للوطن؟ فردت مبتسمة وهي تشير بيدها بحركة باترة: على الإطلاق ! فالتفت نحوها وقال: وأنت؟

فردت عليه بالعربة: أرجوك أن تتركني في حالى يا إبراهيم . ليس هذا هو ما ينقصنى الآن.

لم يجادلني إبراهيم الذي كان قد استرد حيويته فتحول إلى مولر قائلا: عندما اشتراك في الحرب في أسبانيا ، كنت مع الجمهوريين، أليس كذلك؟

هز مولر رأسه بالإيجاب فتنهد إبراهيم بارتياح ، نظر نحو الدكتور كأنه يراه للمرة الأولى. وأوشكت أن أراهن نفسي أنه سيسأله عن تلك الحرب التي مضت عليها عشرات السنين وكأنها مازالت تدور. ففى أيام شبابنا كانت تلك الحرب التي لم نعشها والتي لم نعرفها إلا من القراءة تعنى لنا أشياء كثيرة : الحلم بعالم جديد .. عالم متعدد ضد الدكتاتورية ضد الظلم .. الحلم الذى انهار وإن بقيت لنا منه الرموز : همنجواى ولمن تدق الإجراس .. مالرو والامل .. وبيكاسو والجويزنيكا .. وأشعار لوركا .. تلك الرموز التى ألهبت خيالنا فى مطلع الشباب، وقلت لنفسي: ربما سيسأله إبراهيم مولر الآن إن كان قد قابل همنجواى أثناء الحرب ! .. ولكنه فاجئنى حين سأله وهو ينظر نحوى :

ـ إذن ربما تستطيع أن تعطيني صورة أفضل عن الأوضاع هنا ..  
ـ وأشار نحوه وهو يقول : صديقى يدعى أن اليسار مات فى أوروبا وفى  
العالم فهل هذا صحيح ؟

ضحك مولر ضحكة عابرة وهو يقول : أخشى أنتى لا تستطيع أن أفيدهك فى  
هذه المسائل . تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن .

ـ فقالت بريجيت : أو لم تجد أن هذا أفضل يادكتور ؟

ـ غير أن إبراهيم لم يهتم بتدخلها وقال بشيء من الاحتجاج : ولكن لماذا ؟ ..  
ـ أغلبظن أنتك كنت ماركسيا أيضا عندما ذهبت لتحارب فى أسبانيا .

ـ فهز مولر كتفيه مرة أخرى وبدأ أنه يفكر فيما يمكن أن يقوله وخطر لى شيء  
ـ فقلت لإبراهيم : ربما تستطيع أنا أن أوضح شيئاً . أذكر أنتى كنت هنا فى أوروبا  
ـ سنة ٦٨ أيام غزو تشييكوسلوفاكيا ، تابعت أيامها حملات الاستقالات من الأحزاب  
ـ الشيوعية وكثيرون أيامها كان رأيهم ..

ـ ففقطعنى إبراهيم قائلًا بشيء من الاشمئزاز والغضب : غزو تشييكوسلوفاكيا ..  
ـ هؤلاء الرفاق الأوروبيون حساسون حقا ! كم مات فى هذا الغزو ؟ واحد أم عشرة ؟  
ـ وهل سمعت عن رأسمالى استقال من الرأسمالية عندما دارت الرشاشات وقتلت  
ـ ألف الشيوعيين فى استاد شيلى وشوارعها ؟ .. أو قبل ذلك عندما أصبحت مياه  
ـ الأنهر فى أندونيسيا حمراء قانية بدماء من ذبحوهم هناك .. غزو تشييكوسلوفاكيا  
ـ حقا !!

ـ قلت دون انفعال - أرأيت ؟ .. ها أنت توافقنى على ما أعنيه . دماء الأمم  
ـ الفقيرة لا تهم ولو كانت دماء ملايين . أما تشييكوسلوفاكيا فشيء آخر ..  
ـ وكنت أتكلم لى أغير جو الجلسة ولكن مولر هو الذى اتفعل لأول مرة حين  
ـ خاطب إبراهيم وقال مقطعا حاجبيه الأشيبين : لم أشهد غزو تشييكوسلوفاكيا

ياسيدي، ولكنني شهدت غزو المجر قبلها. كنت هناك بالمصادفة وكانت أعمل طبيباً متطوعاً قبل أن تبدأ الأحداث .. رأيت الدبابات ورأيت القتلى - لم يكن الجنود الروس المساكين يعرفون أنهم في بودابست . كذب عليهم قادتهم وقالوا لهم إنهم يحاربون الغزاة الانجليز في بورسعيد، في بلدكم ...

غير أنني لم أتابع الحوار. لم يعد يعنيني ذلك كله.. رأيت ابراهيم يفعل ما كان يلومني عليه منذ قليل. كان يتكلم بحماس كعادته من ربع قرن عن اشياء مضى عليها أكثر من ربع قرن، سمعته يتكلم عن حرب بورسعيد وهو يلوح بيديه وقد أحمر وجهه وكأن سفن الانجليز تحاصرها في تلك اللحظة بالذات. ورأيت الطبيب العجوز لا يقل عنه انفعالاً وهو يتكلم عن بودابست ورذاذ خفيف ينتشر من فمه، وسمعت أسماء ناصر وستالين ونهرو وخوشوف وأسماء أخرى كثيرة ، بل وجاء ذكر نكروما في الحوار وإن لم أعرف السبب..

حولت عيني إلى بريجيت . كانت في البدء تزر عينيها باهتمام وهي تتتابع النقاش ثم بالتدريج انطفأ ذلك الاهتمام واختفت وراء دخان سجائرها المتلاحدة.. كانت بين الحين والأخر تنظر إلى مولر وتبدو في عينيها هذه النظرة الجامدة التي حيرتني فتنتقل عدوى تلك النظرة إلى الطبيب المنهك في الحوار دون أن تلتقي عيناه بها وأشعر بنوع من التوتر يسرى في صوته وفي جسمه ، توتر لا يكاد يلاحظ ، ولكن بريجيت تشعر به أيضاً فتحول وجهها إلى ناحية أخرى وكأنما انتابها الندم. ما الذي بينها وبينه؟.. لماذا ترفض تلك الآبوبة التي يحاول يائساً أن يفرضها عليها منذ جلسنا معاً؟ وما شأنى أنا بذلك؟... ولماذا يعدينى أنا أيضاً هذا الجو الغريب الذي لا أعرف سببه ويزيدنى هما ؟

ولكن مولر انتزعنى فجأة من نفسي وهو يقول: معدنة لهذا السؤال ، وارجوك ألا تنسى فهمي. صديقك يقول لي إنك ناصري، وأنا رغم كل شيء كنت معجباً بناصر أيام ثورته ، ولكن ألا تظن أن عصر هذه الثورات القومية قد انتهى ؟

ولكن عن أى شيء يتحدث هذا الطبيب الآن؟ ولماذا ينظرون إلى جميعاً بهذا الفضول وكأنني سأحل لهم مشكلة تتوقف عليها المصائر؟.. وما أهمية أن أقول أى شيء في هذه المدينة الغربية لهذين الغريبين أو لإبراهيم الذي لا يحبني؟ وما الذي لدى في الحقيقة لكي أقوله؟.. يمكن إن أراهنوا أن أحدهم عن منار.. ذلك هو الشيء الوحيد الذي أفكر فيه.. لا، ولا حتى هذا.. أى شيء عرفته عن منار بعد كل تلك السنين التي عشناها معاً؟ قلت : سامحني يادكتور ، ولكنني الآن مثلك.. تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن ولعلى في الواقع لم أعرفها أبداً.. كنت متطفلًا عليها.. توهمت في وقت من الأوقات أنتي أفهم والآن أعرف أنتي كنت مخطئًا..

قال إبراهيم والغضب يستبد به : و تلك النظريات التي كنت تجادلني بها ساعات طويلة ونحن في صالة التحرير؟.. وساطع الحصري والقومية التي تحرك التاريخ وكل تلك الأفكار؟.. وقولك لى مرات ومرات إنهم بنوا قوتهم في الغرب بفضل الدولة القومية وانهم يحاربون الآن وحدتنا لكي لا نصبح أقوياء مثلهم؟.. لماذا لا تقول ذلك كله بدلاً من أن تغمض بعبارات «لا أفهم .. لا أعرف .. كنت مخطئاً؟.. لماذا تتلذذ الآن بإهانة نفسك؟.. أم أنك تداري وراء تلك الإهانة نوعاً من الترفع كعادتك؟ أم أن هذا صحيح وأنك تعتبر نفسك ميتاً بالفعل؟.. وإن كان هذا صحيحاً فلماذا لا تقوم وتلقى بنفسك في هذا النهر؟..

قال مولر بمزاج من الدهشة والذعر: لا داعي لكل هذا العنف يا سيد إبراهيم ربما كان صديقك لا يشعر بالرغبة في أن يتكلم فما الداعي إلى هذا العنف؟... قلت للطبيب: لا تهتم.. تعودنا على هذه الطريقة في النقاش من زمن طويل.. ثم التفت مخاطباً إبراهيم: لا شيء مما قلته صحيح.. كل مافي الأمر أنتي اكتشفت اليوم شيئاً مهماً جداً.. ربما بفضل بيده أو ابانتي أو ربما كنت أنت السبب أو لعلها بريجيت أو لعلها منار: اكتشفت أنتي أكذب..

قال إبراهيم نافذ الصبر: عدنا مرة أخرى لهذه النفة! ولكن لم أعد أشعر بالغضب من إبراهيم ولم يستطع أن يستفزني.. كنت بالفعل بعيداً عن الحوار و بعيداً عن الغضب و بعيداً عن المكان كله و حل بي

الاجهاد فجأة فوقفت قائلاً لإبراهيم : أنا متعب قليلاً ويجب أن أنصرف الآن. هل ت يريد أن أوصلك إلى مكان ؟

فرد إبراهيم بشيء من الارتباك : لا، أنا أعرف الطريق إلى الفندق، ولكن أنت.. هل تنصرف الآن لأنى أغضبتك ؟.. أرجوك لا تفهم أنت.. فقلت محاولاً الابتسام: بالطبع لا.. سأمر على فندقك غداً كما اتفقنا وسنواصل هذا النقاش.. غداً سأكون جاهزاً لك !

ويبينما كنت أصافح إبراهيم نهضت بريجيت فجأة وقالت بجسم : خذني معك.. انحنى تلتقط حقيبتها ولوحت لإبراهيم بيدها ثم طبعت قبلة سريعة على جبين مولر.

★★★

كانت بريجيت تجلس إلى جواري في السيارة واكتفيت بمتابعة ارشاداتها لكي نصل من أقصر الطرق إلى بيتها. سألتني ونحن نخرج من المقهى عن طريقى ولما قلت إنني ذاهب إلى البيت طلبت أن أصحبها إلى أقرب محطة توبيس أو تاكسي ، ثم لم تمانع كثيراً حين عرضت أن أوصلها إلى المكان الذي تريده. كنت أنظر بين الحين والآخر إلى وجهها في مرآة السيارة وأرى ذلك القناع ، ذلك الانسحاب الكامل إلى الداخل فأوشك أن أقول شيئاً. أوشك أن أقول يا بنتي ما زالت الدنيا كلها أمامك فلا تتركي نفسك لتصبحي مثلّي ! عودي إلى زوجك إن كنت تحبينه وإن كان هذا هو سبب كل الهم الذي يطفو على وجهك . ولكنني كنت أتراجع وأقول أنا بالكاد أعرفها . لا يحق لي أن أقتحم صمتها . ولما أوقفت السيارة أخيراً أمام العمارة التي تسكنها في حي هادئ في طرف البلد عرضت بريجيت على أن أصعد معها لكي أشرب شيئاً. قلت لها إنني متعب وأريد أن أذهب إلى البيت لأرتاح. ولم أكن أكذب لكنها وضعت يدها على كفى الممسكة بعجلة القيادة وقالت وهي تبتسّم : إذن تعال.. سأصنع لك قهوة قوية تزيل هذا التعب. تعال إذا سمحت . وأنارت بسمتها المفاجئة وجهها .

كانت تسبقني في مدخل العمارة الذي تحف به المرايا على الجانبين وهي تعشى بخطوات سريعة فرأها خمس أو ست مرات على اليمين وعلى اليسار بزيها الاندق ، طويلة متتصبة القامة ، وأراني خلفها بخطوتى البطيئة وشوبى الداكن نقيضين كاملين . وقلت لنفسي هازناً الربيع والخريف . النهار والليل . تعال يا براهيم هاندا اتلذ بيهانة نفسي !

كانت شقتها في الدور العاشر ، شقة من غرفة واحدة واسعة أو تبدو كما لو كانت واسعة لأن الأشياء القليلة المنتشرة في جوانبها ترك وسطها كله خاليا . بعد المدخل كانت هناك (كنبة) ، كبيرة إلى اليسار خمنت أنها تحولها سريرا في الليل والى جوارها مقدان صغيران يحيطان بمائدة صغيرة من الخيزران عليها مفرش صغير منقوش بورود صفراء وحمراء ، وفي نهاية الغرفة كان هناك ساتر أسود تقطييه صورة فتاة تلبس كيمونو أبيض بحواب مذهبة وتخفي نصف وجهها بمرحة وردية . ومن السقف كانت تتدلى كرة ورقية بيضاء تحتضن مصباحاً وحيداً كبيرا . تركتني بريجيت ودخلت وراء الساتر ، الذي يخفى وراءه المطبخ والحمام . سمعت صوت الماء من صنبور وقالت لي من هناك بصوت مرتفع قليلاً : دقيقة وسأكون معك ، اعتبر نفسك في بيتك وخذ راحتك ...

تجولت في الغرفة شبه الخالية ، وووجدت في ركن بجوار الشرفة الواسعة رفاصغيراً عليه مسجل للموسيقى وبعض الأشرطة لاغان خفيفة ، والى جوار تلك الأشرطة كان هناك عدد من الكتب . قرأت العنوانين وكانت معظمها روايات بوليسية بالألمانية والإنجليزية أغلقتها مهترئة وعلى واحد منها صورة مذبوحة جاحظة العينين وعلى غلاف آخر صورة رجل بيده مسدس يخرج دخاناً ويخنق وجهه تحت قبعة . ولكنني وجدت أيضاً وسط هذه الكتب ديوان شعر بالألمانية لهايني ومجلداً يضم اشعار لوركا بالاسبانية . وجاء من ورائي صوت بريجيت وهي تقول بنبرة اعتذار : لن تجد في هذه الكتب شيئاً يهمك .

عدت نحوها وهي تتقدم من المنضدة الصغيرة حيث وضعت فنجانى القهوة . كانت قد خلعت سترتها وحذاها وظلت بالبلوزة البيضاء الخفيفة والجونلة الزرقاء وخف منزلى .

قلت وأنا أجلس على المقعد قبالتها مشيراً إلى الغرفة والى فتاة الكيمونو:

ـ من أين جاءتك هذه الأفكار اليابانية؟

فقالت بابتسامة خفيفة: لم تأتني أفكار يابانية ولا صينية. عندما سكنت هنا لم أكن أملك شيئاً أبداً وكانت هذه أرخص طريقة لتأثيث المكان ..

وبيكما تمد لي يدها بفنجان القهوة سأّلتها هل أنت بالفعل سعيدة هنا كما قلت؟ ألا تريدين حقاً العودة إلى بلدك؟

فهزت رأسها تؤمن على كلامي وكررت مثل تلميذة تحفظ درساً: نعم، أنا بالفعل سعيدة هنا، وأنا لا أريد العودة إلى بلدى.

ثم نظرت إلى سائلتني: وأنت؟ .. عندما سأّل صديقك هذا السؤال رفضت أن تجيب، فهل أنت سعيد هنا؟

ـ لا، لست سعيداً هنا.

ـ هل ستكون أحسن حالاً لو رجعت إلى بلدك؟

فكرت قليلاً قبل أن أرد ثم قلت وأنا أحك جيبي: ليست المسألة سهلة. أنا مثلك مطلق، وأسرتى تعيش هناك. ولكنك صغيرة تستطيعين أن تبدئى من جديد لو رجعت أاماً أنا ..

لم استطع أن أكمل فتوقفت وقالت هي بعد فترة:

ـ معذرة ولكنى لم أفهم شيئاً. ربما كان ما قاله صديقك صحيحاً، أنت تجد سعادتك في تعذيب نفسك.

ـ ربما

شعرت بريجبيت أنتى لا أريد أن أتكلم فقالت وهي تسند رأسها إلى يدها: لا تهتم ثم سائلتني: هل تريدين أن تشرب شيئاً؟

- ألا نشرب القهوة بالفعل؟

- إذن بعد إذنك أنا سأشرب.

تركت فنجانها كما هو تقريباً واختفت وراء الساتر مرة أخرى ثم رجعت وفي يدها كوب طويل تهزه في يدها وعادت تجلس قبالي. ولفترة لم يكن هناك غير رنين الثلج في الكوب ولكنني فجأة وجدت نفسي أقول لها دون تدبر:

- هناك شيء حيرني مع ذلك ونحن نجلس في المقهى. شيء عن الدكتور مولر.. أسف للسؤال ولكن أقصد لماذا عندما كنتما تتحدثان معاً كان هناك بينكما..

ثم تجلجلت ولم أكمل ما كنت أريد أن أقول.

غير أنها شربت جرعة كبيرة من كأسها ثم وضعتها على المائدة وثبتت عينيها الزرقاء على وجهي وهي تبتسم ابتسامة واسعة حركت كل تلك الغضون الرقيقة في نفتها حول عينيها وقالت: بينما أشياء كثيرة.. أول شيء أنه كان عشيق أمي. تراجعت للخلف كالملسوع وأنا أغمغم: أنا.. أنا متأسف للسؤال.. لماذا تبوحين لي بذلك؟ أنا لم أتصور أن..

قطاععني دون أن تغير ابتسامتها: ولماذا لا؟ ألم تقل إنك تكره الكذب؟

- لم أقل ذلك. قلت إنني اكتشفت أنني أعيش في الكذب.

نهضت وأخذت تتمشى في الغرفة وبiederها كأسها تواصل هزها وهي تتكلم على ايقاع رنين الثلج: حسبت أنك قلت ذلك.رأيت شيئاً في وجهك..

- ولكن أرجوك مرة أخرى لماذا تبوحين لي بهذا السر أو غيره.. نحن لم نك ثلتقي. أشك حتى في أنك تعرفين اسمى.

- ألم تسألني عن مولر؟

- نعم، سؤالاً عابراً. سؤالاً خاطئاً ولكن لم أكن أريد أن أعرف أسراراً، نحن غريبان.

وقفت وتطلعت نحوى قليلا قبل أن تقول: ولكن هذا أفضل كما تعرف. الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء وإنما للغرباء ، في القطارات أو في المقاهي العابرة . ولكن هذه ليست هي المسألة الآن . المسألة أنني أريد أن أتكلم . هذا المساء أريد أن أتكلم . ألا تستبد بك أحيانا هذه الرغبة ؟

- أتكلم طوال الوقت، ولكن مع نفسي. في رأسي حوار لا ينقطع .

- وكذلك أنا ، ولكنني سئمت ذلك .

ذهبت بريجيت نحو ( الكتبة ) ولكنها لم تجلس عليها، بل جلست على الأرض المكسوّة ببساط رمادي ثم أنسنّت ظهرها إلى الكتبة وفردت ذراعها الخالية فوقها . بالكاد مسّت الكأس بشفتيها ثم وضعتها بجوارها على الأرض وفكت الضفيرة المختلفة خلف رأسها وبدأت تحلها ببطء . كانت الشمس تغمرها وهي تجلس هناك ولكنني رأيت من الشرفة السحب البيضاء الرقيقة تزحف مرة أخرى بهدوء نحو القرص الذهبي الذي قارب الغروب . وبدأت بريجيت تتكلم بصوت خافت دون أن تنظر نحوى، كأنما لا يعنيها بالفعل أن أسمعها أو لا أسمعها وإنما المهم أن تتكلم .

قالت : بالأمس جاء مولر ولم أكن قد رأيته من سنتين طويلة فرجع كل شيء من جديد . رجعت بريجيت الطفلة بالرغم مني . كنا نسكن .. أقصد نحن نسكن حتى الآن مدينة صغيرة في الغرب . وكانت إبنة وحيدة . لم أعرف في صغرى أبي كما وصفوه لي في شبابه . لم أر فيه ذلك الحماس الذي قاده إلى الحرب في إسبانيا قبل أن أولد بكثير . رأيت فقط ما صنعته به عشرون سنة بعد ذلك . قيل لي إنه كان محاميا قدّيرا ، ولكنني عرفت أنه لا يقبل غير القضايا الصعبة، القضايا الخاسرة في الغالب . يقبل الدفاع عن الفقراء وعن النقابات باتّهام زهيدة لمجرد أن يرفع ظلما أو يثبت حقا قانونيا ما للنقابات . خطر لي فيما بعد عندما كبرت أنه أراد أن يعوض الهزيمة في إسبانيا بأن ينتصر بالقانون لكل المظلومين في العالم ، أو على الأقل في النمسا . ولكن النتيجة مع الأسف كانت هزائم كثيرة جديدة . لم يكن حظه مع القانون أفضل من الحرب . كل ما حدث هو أن أصحاب القضايا

المهمة التي تحقق مكاسب كبيرة أصبحوا يتجلبونه، ثم قاطعوه بالفعل. وها هو الآن، بعد كل السنين التي عملها، يعيش في المنزل الذي ورثه عن جد، لا يملك غير معاش الشيخوخة الضئيل وإعانته صغيرة من التقابة. ومع ذلك فما زلت أذكر عندما كنت طفلاً كيف كان منهمكاً تماماً في عمله الفاشل، كأنه نسياناً أنا وأمي. كان وقته كله لمكتبه أو للمحكمة أو لغرفة المكتب في البيت يقلب المجلدات أو يكتب المذكرات. أحببته كثيراً جداً. كنت أشعر حتى وأنا طفلاً صغيرة أنه مهزم وأشفع عليه كأنه أمي لا ابنته. أحمل إليه في غرفته القهوة أو العصير ثم أجلس أمامه فترات طويلة أراقبه وهو يقرأ أو يكتب ويحك جبينه باستمرار. وحين يلاحظ وجودي يسألني بدهشة عما أفعله هناك، يسألني لماذا لا أذهب كي ألعب أو أتأم، فذهب إليه وأقبله في وجنته. أطلب منه أن يحك لي حكاية لكي أذهب وأتأم. يبدو في وجهه التذمر لأنني أزعجه عن عمله لكنه يحيطني بذراعه ويبعداً في تأليف حكايات صغيرة ينتصر فيها العدل والخير دائماً. ذكر باستمرار أنه كانت هناك حمامات يطاردها ثعلب شرير ولكنها كانت تستعين بسرب الحمام فتنتصر رغم كل شيء على مكائد. نعم، لم ينجح أبي في الحرب ولا في القانون ولكن كان من المستحيل أن تنهزم حيواناته المسكينة! ... أما عم مولر فكان يختلف. عمى مولر كان باستمرار طبيباً ناجحاً. اعتاد أن يأتي إلى البيت كثيراً في وجود أبي وفي غيابه. في الحقيقة كان يأتي أكثر في غيابه. دائماً يحضر لى الحلوى ويحملني ويقلنني. يسأل أمي التي كانت صحتها على دولة أيامه: كيف تشعر سيدتنا اليوم؟.. يمسك معصمها ويمسك يدها ويتحسس صدرها. يأخذها إلى الداخل ليواصل هذا الكشف أو يصرفاني إلى الخارج بحجة ما. وكنت على ما ذكر في الثامنة من عمري عندما واجهت مولر. فتحت له الباب حين أتى، ولما قدم لي الحلوى رميتها وأخذت أضربه في بطنه ورجليه بقبضتي معاً وأنا أصرخ: اذهب.. اذهب.. أنا لا أريد أن أراك.. لا أريد الحلوى التي تحضرها.. اذهب!.. أنا لا أحبك!.. وقف لا ينطق بحرف وكانت أمي أيضاً تقف خلفي تضع راحتها على فمها وقد اتسعت عيناهما. ويعدها لم يعد مولر يأتي، ولكن أمي هي التي أصبحت

تخرج كثيراً . وسكتت بريجيت قليلاً ثم قالت : هذا قبل أن تموت أمي . قبل أن تذهب إلى المصحة وتموت هناك .

كنت أرها السمع منذ بدأت ، حريصاً على ألا تفوتنى كلمة وقد تيقظت حواسى التي كانت منذ قليل هامدة ومحدرة نفذت إلى قلبي نبرة ما فى حديثها ملائتني حزناً واسفاقاً عليها . وأوشكت أن أقوم فاجلس إلى جوارها هناك على الأرض لأحكى لها أيضاً كل ما أوجعني ، دون كذب ولا كبرباء ولا تستر وراء كلمات أحافظ بها على تلك الواجهة التي تخفي وراءها الانهيار والخراب . غير أنى لم أفعل شيئاً . ظللت أطلع إليها مجدماً فوق ذلك المقعد الصغير ، وكانت قد نجحت في حل ضفيرتها وتركت شعرها الذهبي الطويل ينسدل فوق كفها اليمنى ثم أخذت تمشطه بأسابيعها . ولكن قبل أن أجد ما يمكن أن أقوله فاجأتني بأن ضحكت وهي تتطلع في وجهي مباشرة وتقول : ولكن هذه ذكرى طفولية . تعلمت من زمن أن أغفر لأمي بل وحتى أن أفهمها وكان يمكن أيضاً أن أغفر لموال .

ووجلتني أقول بعد فترة : هو عجوز جداً .

فردت ورائي كعادتها : نعم ، هو عجوز جداً .

مدت يدها إلى كأسها التي نسيتها ، رفعتها إلى فمها ثم عادت تضعها إلى جوارها وتقول بصوت مرتفع إلى حد ما : اسمع . كل شيء يمكن غفرانه إلا أن تكذب على نفسك وتكذب على الناس عن عمد . أنت الذي قلت ذلك ألم تقله ؟ أقصد ، ماذا أقصد ؟ .. أريد أن أقول إن أخطئ فلن شجاعاً . على الإنسان أن يحاول على الأقل أن يتصرف على أنه مخطيء لا أن يواصل الخداع ..

لم أفهم ماتريده بالضبط . هل تتكلم الآن عن أم عن مولر؟ أى أخطاء يجب أن أصلحها وهل بقى وقت؟ .. لكنى بدلًا من ذلك واصلت الكلام عن مولر ، قلت : ربما كان الآن يكفر عن أخطائه هو الآن يحاول حتى في هذه السن . يحاول أن يساعد الآخرين ..

قالت باشمعنراز وكأنى أسمأت إليها: يساعد الآخرين حقا ! ...  
- أليس مايفعله الآن، فى هذه اللحظة هو نوع من ...  
فقطاعتنى بشيء من الغضب.. لا ليس نوعا من أى شيء ! .. قلت لك إننى  
أوشكت أن أغفر له لولا هذه اللجان والأشياء المضحكه..

قامت فجأة وأخذت تسير في غرفتها شبه الخالية وهي تعقد يديها أمام  
صدرها، ومرة أخرى استبدت بي الحيرة والاحساس بأنى لست في مكانى فأردت  
أن أترك هذه الحكاية كلها وهذا المكان وأن أتصرف : ولكنها جاءت ووقفت أمامى  
وقالت بهدوء ولكن بلهجة قاطعة : مولر هو الذى دمر حياتى ...  
قلت في ذعر حقيقى.. هل كان معك أنت أيضا ؟ .. أقصد هل أصبحتى أنت  
وهو ..

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقطاعتنى بائلة: عشيقين ؟ .. لا .. أى خيال هذا ؟ ..  
مولر ؟ .. قلت لك انه ساعدنى على طريقته فدمر حياتى .. أقصد إن كنت لا  
 تستطيع أن تساعد غريقا فلماذا تظاهرة بأنك تمد اليه يدك .. لماذا تعجل  
 بغرفة؟ .. ولماذا تكرر هذا التظاهر مرة ومرتين ومائة مرة حتى تجعل منه حرفه؟ ...  
 كان الغروب قد حل ولكنها لم تضي المصباح، وفي الغرفة شبه المعتمة بدأت  
 تروى حكايتها الحقيقية. عادت تتمشى وهي تتكلم . ترجع أحيانا وتجلس الى  
 جانبي ، ثم تقوم مرة أخرى لتجلس على الكتبة أو لترجع الى جلستها المفضلة  
 على الأرض تحتها دون أن تتوقف عن الكلام . راحت تخرج أمام إنسان آخر ،  
 تصادف أنها قابلته عندما كانت تريد أن تتكلم ، كل الحوار الذى ظل يدور لسنين  
 في رأسها . في مرة أو مرتين لمعت الدموع في عينيها ولكنها في هذا المساء  
 أيضا لم تبك . على الأقل لم تبك أمامي إلى أن تركت شقتها بعد ذلك اليوم  
 الطويل ..

أضاعت النور قبل أن أخرج فاجفلنا معا وكأننا ، كلينا ، نفيق من حلم ،  
 أمسكت بكتفيها عند الباب المفتوح وقبلتها في جيئها .

مالت هي أيضا وقبلتني في وجنتي وهي تقول : شكرنا لك أنت لا تعرف أى  
 هدية جميلة قدمتها إلى !

ثم قالت وهي تصافحني : اليوم عيد ميلادى السابع والعشرين ..

## الفصل الرابع

### هشة كفراشة

في مطلع الشباب ، عندما كنت في كلية الآداب وتعلمت قراءة الأدب الأجنبي ، كانت العبارة التي استهل بها تولستوي رواية «أنا كارنيني» تحيّرني : كل الأسر السعيدة تتشابه ولكن كل أسرة شقية فريدة في شقائصها . كنت أسأل نفسي لماذا يبدأ روایته العظيمة بهذه الحكمة التي لا تقدم ولا تؤخر ؟ ..

الآن في آخر العمر أدرك أنه كان على حق . لا أعرف الكثير عن الأسر السعيدة ، هل تتشابه أفرادها أم لا ، لكنني أعرف أن الشقاء نوبة في الروح ، إن بدأت في الطفولة فهي تستمر في العمر كله . وأفهم أنه لا توجد نوبة تشبه أخرى . ولكنني أستفسر أيضاً - حتى وإن لم تتشابه تلك النوب ، أليس ذلك الشيء المنحور في أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنا على البعض ؟ .. لا تتشابه نحن أيضاً ؟

لماذا اختارت بريجيت أن تحكي لي أنها كل ما قالته ؟ .. هل كنت حقاً بذلك العابر المجهول الذي أرادت أن تحكي له أسرارها لكي تفرغ منها أم كان هناك تصميم والختيار ؟ .. ولماذا استطاعت حكايتها البعيدة عن عالمي وعن كل ما أعرف أن تتفق إلى قلبي بهذا العمق ؟

لماذا حزنت كل هذا الحزن على ذلك الأب المهزوم وعلى بريجيت الوحيدة بل وعلى زوجها الأفريقي الذي جعلتني كلماتها أراه وأشفق عليه ؟ .. فهمت حكاية عالمك الثاني عن بياني ، فلعلك كان يمكن أن تفهمي أنت أيضاً لو حككت لك . ربما كان يمكنك أن ترى مثلك عالماً بعيداً عنك . قرية صغيرة لا تشبه قريتك في شيء ، قرية فقيرة في آخر الصعيد ، ولكن يعيش فيها أيضاً طفل وحيد مع أبيه .

ومع ذلك فاتأ أعرف أنى لن أحكى لك ، وأعرف باليقين نفسه أنى لن أهرب من هاتين العينين ، عينى ذلك الطفل الذى يطاردى من منذ الصباح . لا يجدى ما أرهقنى به ذلك اليوم المشحون . لا يجدى أنى أتقلب فى الفراش يحثى عن نوم لا يجيء . لا يجدى أنى أسأله ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من أن تلزمنى فى مغرب العمر ؟ .. أية دروس ساتعلمها الآن ؟ .. وبم يفيد تعلم الدروس وقد فات الوقت ؟ .. ألم أتك لا ت يريد أن تعلمى شيئا ، بل تطلب حقا ما .. ولكن ما هو ؟

نعم أراك . أراك كما تأتينى دائمًا طفلا وحيدا . طفلا ماتت أمه بالملاريا وهو فى الرابعة من عمره . أول ما يذكره هو وجهها فى تلك الليلة ، وجه كالشمع الأبيض يغسله عرق لا ينقطع وأستانها تصطك . تنتفخ وتطلب ماء . يرى أباه يرفع رأسها ليسقيها الماء فيتوقف ذلك الانتفاخ فجأة وتميل برأسها على يده يرى حتى الآن حدقتينها تسبحان ببطء فوق بياض عينيها . يرى حتى الآن أباه يوسرد رأسها فيبرز وجهها الأصفر وحده صغيرا جدا من ثوبها الطويل الأسود . يراه ينتصب وأضعا يديه على كتفيه الصغيرتين متطلعا نحوه فى دهشة وهو يقول «خلاص يا ولدى» . يغمزه خوف حين يرى نسوة يندفعن إلى الغرفة موللات وهن يلوحن بطرحهن السوداء فيدفن وجهه فى جلباب أبيه .

أتينى بعد ذلك دائمًا فى يومك الأول فى المدرسة . كم كان فخورا يومها وقد ارتدى البذلة لأول مرة وأبوه يصحبه معه ليذهبها إلى المدرسة البعيدة فى المدينة . يتذكر كيف كان فى أيامه الأولى يفرح عندما يقول له أحد المدرسين أن يخرج من الفصل ويطلب من أبيه أن يحضر بعض الطباشير أو حبرا للأقلام أو أن يحمل له إحدى الخرائط الكبيرة التى يضعونها على السبورة . بل وأفرح عندما يطلب منى أبي أن أساعدوه فى نهاية الأسبوع بعد أن يخرج كل التلاميذ والمدرسين فيشمر جلبابه ويربطه فى وسطه ويرفع كميه حتى كتفيه بينما أحمل له جرائد الماء ونمر على الفصول كلها وهو ينتقل من فصل إلى آخر يمسح الأرض بخرقته المبللة مقرفصا فى الأرض . ومتى بدأت أشعر بالغار ؟ .. عندما كبرت قليلا ؟ .. عندما

يقطعني وجهي أحد المدرسین وهو ينظر في ساعته قائلاً «لماذا لم يضرب أبوك المسطلون الجرس يا ولد؟ .. اخرج صحيحاً!» عندما كان التلاميذ يعيرونني إن ما تناولنا في الفسحة؟ .. أيامها كنا نحن القراء حفنة صغيرة في المدرسة وسلاطين ملوك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة . يجدون في إهانتنا متعة وفخراً ويزيد العداء لو تفوقنا في الدراسة . نجح البعض في ستر فقرهم ، أما أنا فكيف كنت أستطيع؟ .. وكيف كنت أملك أن أخفى درجاتي العالية في كل المواد؟ ولكن حتى بعد أن خرج أبي إلى المعاش وأنا ما زلت في المدرسة الابتدائية ظل لقبى متوازناً لدى أجيال المدرسين . عندما يأتي مدرس جديد ويبدأ كالعادة في قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذي لا مفر منه «ما هي مهنة والدك؟» .. يتطلع أكثر من تلميذ في الفصل قبل أن أرد «كان فراش المدرسة» ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سبباً يمنعه من أن يسبني ومن أن يتذلّ بي كل العقاب الذي يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين . كم مرة تناولت مع التلاميذ الذين أهانوني بسبب أبي؟ .. كم مرة ضربتهم وضربوني وأسللت دماعهم وأسالوا دمي دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبي بسبب جروحى؟ .. وكم بالفت في الفخر به بعد ذلك في الصحيفة وفي الاتحاد الاشتراكي وأمام منار أول ما تعارفنا! أحكى للجميع عن أبي فراش المدرسة الذي قتّر على نفسه وادخر الملائم والقروش لكي يعلمونى في الجامعة . ولكن هل شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولى؟ هل أزالت المهانة؟ .. ربما .. عندما كان الرئيس واحداً منا ، نحن أبناء القراء ، وعندما انحاز إلينا . عندما لم يكن القراء عاراً . ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملأ «كشف الأسوقة» وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل الكلية الحربية؟ .. فما الداعي إذن إلى التظاهر؟ .. ما الداعي إلى الكذب؟ .. للهروب جنة القراء . لم توجد يوماً جنة للفقراء . كانت تلك أيضاً كذبة يجب أن تنساها .

أتلذد يا هانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتي النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التي فعلتها ؟ .. لم لا تفكر مثلا في أنك صممتم على أن تعلن فقرك وعلى أن تظهر في داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم في محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفي إخفاء نشائهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب في الصحيفة رفضت أن تسابر الرب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسموس لك : أبعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلًا لن أرسل برقية وإن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعوا الثمن . ولم لا تذكر أنك حارب السقوط بعد أن تركت منار ؟ .. إنك حارب أن تنهار أمام مهانة الحب المخنوظ ؟ .. إنك رفضت أن تشكوا وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت في كل الظروف أن تنجو من السقوط في بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لي هذا يا إبراهيم ؟ .. ألا يغفر لي أنني حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لي ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركني ؟ .. لو يأتي النوم ! ..

لكنه لا يأتي .. أغفو قليلا فتدمني أحلام أصحو منها في فزع دون أن أذكر ما هي . أجلس في الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة في أن أقوم وأدخلن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسي . يزورني وجهه المتجمد بعد أن فحصني وقاس الضغط في آخر مرة . عندما طلب مني بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيد في أزمة الضغط الأخيرة . فتهاً رغبتي في التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك في الشعر ؟ .. جربته في مثل تلك الليالي ... أسترجع كل أبيات الشعر التي أحفظها إلى أن يغلبني النوم . تبدأ بالشعر الجاهلي ؟ .. بطرفة بن

العبد الذى تعيش ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثمد ، تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد .. هل هي فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فابن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلمسنى فى الحوانىت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال شرابى الخمور ولذى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير العبد ..

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت - تحامتى العشيرة مع أنتك لم تذهب إلى الحوانىت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى العوانىت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شيء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكي لا يأتى بيت : أولم تكن نوار بائنى وصال عقد حبائل جذامها . لكي لا تجر نوار منار . أدخل على المتنبى - ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا .. لن يجعل نوما .. من إدن ؟ .. البحرى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جمعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلأ من نغم ؟ .. ولكننا سنصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أهل متنقل ؟ .. سيجربنا على لا تصالح فننزل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادينا .. زهير ؟ .. عمر بن أبي ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السباب ؟ .. أحمد شوقي ؟ .. من ؟ .. من ؟ .. شاعر مريع .. شاعر طيب .. لكتى أدخل فى بهو طوليل على جانبيه صfan من رجال صلح الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وانما أمر بينهم مسرعا .. شيء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصمعه متننة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا - يجب أن أنفذها .. يجب أن أنفذها ! .. يكن مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالتنذير .. يظهر شخصى فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وبيده عصا كالصولجان .. يشير

أتلذذ يا هانة نفسي حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتي النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التي فعلتها ؟ .. لم لا تفكر مثلا في أنك صممتم على أن تعلن فترك وعلى أن تظهر في داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم في محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفي إخفاء نشأتهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب في الصحيفة رفضت أن تسابر الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسموس لك : أبعث ببرقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . أكتب افتتاحية ضد مراكز القرى ! صرفت بأدب قائلًا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا وبدفعت الثمن . ولم لا تذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخنوبل ؟ .. إنك رفضت أن تشكوا وأن تتجاهر بجراحك ؟ .. إنك حاولت في كل الظروف أن تنجو من السقوط في بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لي هذا يا إبراهيم ؟ .. ألا يغفر لي أنني حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتي يسمع لي ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركتني ؟ .. لو يأتي النوم ! ..

لكنه لا يأتي .. أغفو قليلا فتدهمني أحلام أصحو منها في فزع دون أن أذكر ما هي . أجلس في الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة في أن أقوم وأدخل . أستعين بتحذيرات الطبيب لأنفني . يزورني وجهه المتجمد بعد أن فحصني وقاس الضغط في آخر مرة . عندما طلب مني بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف في أزمة الضغط الأخيرة . فتهداً رغبتي في التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك في الشعر ؟ .. جربته في مثل تلك الليالي ... أسترجع كل أبيات الشعر التي أحفظها إلى أن يغلبني النوم . تبدأ بالشعر الجاهلي ؟ .. بطرفة بن

العبد الذى تعشقه ؟ .. لىكن : لخولة أطلال ببرقة ثمد ، تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغى فى حلقة القوم تلقى وإن تلتمسنى فى الحوانىت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد .

نعم ، بالضبط أىها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت - تحامتى العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانىت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانىت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شيء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكي لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بائنى وصال عقد جبائل جذاماها . لكي لا تجر نوار منار . أدخل على المتتبى - ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يارق . دعك منه الآن أيضا . لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جمعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلا من نعم ؟ .. ولكننا سنحصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجربنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبي ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقي ؟ .. من ؟ .. من ؟ .. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلح الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شيء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد مئذنة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا - يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذها ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالتنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا ويبيه عصا كالصولجان .. يشير

بعصاه بطريقه امرة .. ينهرنى قائلًا تأخر الوقت ! .. أحول عينى إلى حيث يشير  
بعصاه .. أسمع صرخة وأرى عربات إسعاف كثيرة مقبلة .. فاجرى . لا أعرف إن  
كنت أجرى منها أو أجرى خلفها ..

★★★

مدت يدى وأنا فى الفراش وأسكت المتبه .

★★★

فى الصباح أخذت حبة علاج الضغط مع كوب العصير .

كنتأشعر بتعب شديد ولكننى اتصلت بإبراهيم فى فندقه لأقول له إننى أخذت  
موعدا مع أحد الصحفيين وإننى سأمر عليه فى الفندق لكي نذهب معا .

وكلت قد حدثت بالفعل موعدا مع برنار ، هو أول من طرأ على بالى عندما  
طلب منى إبراهيم أن أقدمه لمن أعرفهم من الزملاء فى البلد . لم تكن علاقتى  
بالصحفيين تتجاوز المقابلات العابرة فى المؤتمرات أو فى الحفلات الرسمية .  
واكتشفت بسرعة أن الأمور هنا تختلف عن بلدنا ، حين تدعى من تتعرف عليه بعد  
أول أو ثانى مقابلة لكي يزورك فى بيتك ، عرفت أن الصحفيين هنا ، مثل غيرهم ،  
لا يرحبون بالعلاقات الاجتماعية التى لا تفيد . ولم أكن أنا مصدرًا مهما  
للمعلومات أو على علاقه بجهات ذات نفوذ تجعلهم يسعون إلى معرفتى ، فاعتبرت  
هذه العزلة جزءا من فترة العقوبة التى أقضيها فى المنفى والتى لم أكن أعرف لها  
نهاية .

ومع أن برنار أيضًا لم يدعنى إلى بيته فقد كان يختلف عن بقية الصحفيين  
الذين أقابلهم . حتى مظهره كان يختلف . هنادمه دائمًا فى الحد الأدنى المقبول  
ولكنه بعيد جدًا عن تلك الأناقة المحكمة التى تميز الصحفيين البارزين ، والذين  
أراهم دائمًا بياقات القمصان العالية وربطات العنق «الموقعة» ، والسترات من  
بيوت الأزياء الراقية إلخ .. إلخ . على العكس ، كانت ستة (برنار) تبدو دائمًا

أوسع قليلاً مما ينبغي ، ربما لكي تخفي بطنه الكبير . ولم أره مرة واحدة في البرامج التي تستضيف الصحفيين في التليفزيون . لا أظن أنه كان يستطيع أن يتغلب على تلقائيته في الحديث وأن يعرض أفكاره على الشاشة بطريقة منمقة لا تغضب أحداً كما يفعل الآخرون . ولا أظن أيضاً أنه كان لديه الوقت لذلك . كنت أعرف أنه أرمل وأنه يتبنى طفلاً فيتنامياً من لاجئي القوارب ويرعاه بمفرده منذ ماتت زوجته .

وبينما كنا في الطريق إلى المقهى الذي تواعدت فيه على اللقاء مع برنار راح إبراهيم يرتدي مرة أخرى الأدراق التي يحملها في حقيبته الجلدية الصغيرة ، وبدأ أميل إلى الصمت والشروع . أما أنا فكان خمول الصباح قد فارقني وحل محله ذلك النشاط الزائف الذي تولده عندي القهوة مع قلة النوم . ولم أكن أستطيع أن أسيطر على رغبتي في أن أتكلم عن أشياء جادة وأشياء فارغة ، ولكن إبراهيم كان يرد على باقتضاب وكان يحول دفة الحديث دائماً إلى العمل الذي جاء من أجله ، ويسأله عن اتجاهات الصحف التي تصدر في البلد ، وأيها يمكن أن يساعد في عمله . وحتى عندما كان يسأل عن ذلك كان واضحأ أنه يفكر في شيء آخر .

وجاءت خيبة أمله الأولى في الصحافة عندما قابلنا برنار .

تقابلنا في المقهى المقابل للدار التي يعمل فيها ، وكان ملتقى للصحفيين ، تحرص صاحبته (إيلين) على أن تضع في أركانه صوراً فوتوغرافية للكتاب المشهورين وهي تقف إلى جوارهم أو تضع يدها على كتف واحد منهم . وفي صدر المكان كانت هناك لوحة زيتية كبيرة ، يبدو عليها القدم لا الأصالة ، لامرأة ممتنعة إلى حد ما تلبس ثياباً شفافة وتمسك بيدها اليمنى ريشة طائر بيضاء طويلة وباليد الأخرى ميزاناً متوازى أكفتين .

قال برنار بمجرد أن عرّفته على إبراهيم : قادم من لبنان ؟ .. لابد إذن أن لديك آخر الأخبار .

فنظر إليه إبراهيم طويلاً واعتقدت أنه لن يرد ولكنه قال أخيراً بهدوء :

ـ ما الذي تود أن تعرفه عن لبنان؟

ـ ما يود أن يعرفه كل إنسان . أن أفهم سر هذه الحرب الأهلية الطويلة وأن أعرف ما الذي يدور هناك .

ـ ولكن لا يوجد أى لغز . أنت تعرف أن إسرائيل تسلح جيشاً في الجنوب وتسلح الكتائب في الشمال لكي تستمر الحرب أليس كذلك؟

هذا برنار رأسه قائلًا : ليست المسألة بهذه البساطة . اللبنانيون ليسوا دمى مع ذلك يحركها من يشاء . لابد أن هناك غلطة ما في لبنان ذاته .

لم يعلق إبراهيم على ذلك وأخذ بدلاً من ذلك يحدثه عن دوريات إسرائيل التي تخطف الفلسطينيين واللبنانيين من الجنوب . ثم أخرج من حقيبته مجموعة الأوراق التي كان قد رتبها وقال ل برنار :

ـ خذ مثلاً . هذه حالة السائق اللبناني سعيد داكر . أوقف الجنود عربة الإسعاف التي كان يقودها في جنوب صيدا واعتبروه إرهابياً لأن السيارة كانت تتبع الهلال الأحمر الفلسطيني . عصباوا عينيه ووضعوه في سيارة عسكرية أخذته إلى إسرائيل وانهالوا عليه ضرباً بالعصى وبيكعوب البنادق حتى حطموا عظام ساقيه فلم يعد يستطيع المشي . تعرض أيضاً للتعذيب بالكهرباء مثلاً سمعت بالأمس من يبدوا إيبانيز بالضبط . ما هي صور لأثار التعذيب بالكهرباء حول حلمتي وهناك بالطبع آثار في المواقع الأخرى . ومعك شهادة طبية محايضة عن حالته .

قال برنار وهو يتصرف الأوراق ويقرأ سطورها بسرعة : نعم ، هي حالات واضحة ولو أن اللغة المكتوبة بها رديئة جداً .

قال إبراهيم باستغراب : حقاً؟ .. قال لنا الزميل اللبناني الذي ترجم هذه الأوراق إلى الفرنسية إنها لغته الأم !

فقال برنار - هو إذن ابن ميتوس منه ، وإن لم تكن هذه هي المشكلة .  
أستطيع بسهولة أن أعيد صياغتها وأن أكتبها لك باللغة التي تجعلها قابلة  
للنشر غير أن هذا لن يحل شيئاً ..

ثم أكمل بهدوء وهو يعيد الأوراق إلى إبراهيم : لن تجد صحفياً هنا مستعداً  
لنشر هذا الكلام .

قال إبراهيم : لماذا ؟ .. أنا أعطيك حالات محددة بالأسماء وبالشهادات من  
مصادر محايدة .

فقطّعه برنار - وأنا أصدقك مائة في المائة ، ومع ذلك فائنا لا أستطيع أن  
أنشر هذا ...

قال إبراهيم في خيبة أمل : ولكن لماذا ؟ ..

تلعلع إليه برنار من خلف نظارته السميكة وهو يقول ببطء : أنت تعرف لماذا .  
إن قلنا إن هناك جنوداً مسلحين يخطفون مواطنين عزلاً من السلاح من دولة  
أخرى فهذا اتهام خطير ..

قطّعه إبراهيم : ولكنني أعطيك دليلاً على ما أقول وأعطيك أسماء حقيقة ...  
تردد برنار قبل أن يقول : لا يكفي . قلت لك أنا أصدقك ، ولكن كيف يصدقني  
رئيس التحرير ؟ ماذا أفعل أنا أو يفعل هو لو جاءنا تكتيب رسمي وقيل لنا إن  
هؤلاء فدائيون وإننا بذلك نشجع الإرهابيين ، أو قيل أخطر من هذا ، إننا نعادي  
السامية بالدفاع عن هؤلاء الإرهابيين ؟

تعتمد إبراهيم وكأنه يحدث نفسه : تعادي السامية ؟ ما الذي جرى للدنيا ؟ ..  
كنت أعرف أنني سأجد صعوبة ولكن ليس إلى هذا الحد .

فضحك برنار وهو ينظر نحو قائلًا : لماذا تبتئسون بسرعة ؟

لروح إبراهيم بالأوراق التي في يده وقال : بسبب ما نراه .

سكت برنار لحظة ثم قال : ولكنك تعرف أن الصحفى كالطبيب . يجب أن

يبعد مسافة ما عن الحالات التي يعالجها . يجب ألا تكون هي همه بالليل  
وبيالنهار إن أراد أن يعيش ...

قلت مازحا - إبراهيم صحفى ملتزم .

قال برنار - وحتى الصحفى الملتزم له حياته وله أفراده وهمومه الخاصة .  
أعرف صحفيا يعتبر نفسه ملتزما مثل إبراهيم .. تتوالى عليه متذ الصباح أنباء  
العالم ومشاكله : الحروب والمجاعات والجرائم ، يهتم بها كثيرا ويحزن لها . ولكن  
ما يوجع قلبه بالفعل طول الليل والنهار هو أن ابنه الذى أحبه ورباه ما إن كبر  
قليلًا وكون أسرة حتى نسى أباه تماما . لا يكلف نفسه أن يطليه بالتلفون مرة كل  
أسبوع أو حتى كل شهر ليسأل عن حاله أو ليعرف حتى إن كان حيا أو ميتا ...  
كان صوت برنار يمتلىء الآن بالمرارة ، ولم يبد لى أنه يتكلم عن مجرد  
صحفى يعرفه . وسألت نفسي إن كان له ابن من صلبه ؟

غير أنه استرد نفسه بسرعة وقال وهو يلتفت إلى إبراهيم : أرأيت ؟ هذه  
مشكلة صغيرة جدا ولكنها يمكن أن تشغل الصحفى أكثر من حرب لبنان .  
اهـا ... منذ جلسنا معا وأنت مشدود كالوثر ، مع أنك تعرف بالتأكيد ما هي  
مشاكل المهنة . فلنفكر إذن في حل لمشكلة هذه الأوراق التى تعذبك ...

وفي هذه اللحظة كانت إيلين صاحبة المقهى تقدم نحونا بقامتها القصيرة  
وشعرها الأشقر المصبوغ وهى تحمل فنجانى القهوة . وضعتهما أمامي وأمام  
إبراهيم وهى تقول بابتسامة عريضة : صباح الخير ياسادة ..

وقالت لى : هذه هي قهوتك الطبية كالعادة يا سيدى ! .. القهوة بدون كافيين ..  
وتحولت إلى برنار تتسأله : كوبا آخر يا سيد برنار ؟

نظر برنار إلى الكوب الذى فى يده متأنلا ما بقى فيه قبل أن يتخاذل قرارا ثم  
قال لإيلين كائنا بشيء من الأسف - لا ، لابد أن أعود إلى العمل . ولكن سألت  
عن زوجك على ما أظن . إن كان هنا فقولى له إننا نود لو نراه ..

طلت إيلين منحنية على المائدة وقالت : بالطبع هو هنا ولكنه في المطبخ ، لابد من إعداد الغداء للزيائين كما تعلم ، هل أقول له ؟

- نعم .

انسحبت إيلين وتطلعنا إبراهيم وأنا في تساؤل نحو برنار الذي قال لي :  
- عندي لكتا الآن مفاجأة .. سأقدمكما لمصري مثلكما ، ولكن هذه ليست  
هي المفاجأة بالطبع . فالمصريون كثيرون هنا .. المفاجأة هي أنه زميل في  
المهنة ! ..

دهشت حين رأيته وهو يتقدم منا بمريلة المطبخ البيضاء . ترددت خطواته  
قليلا قبل أن يصل إلينا ثم عاد وخلع (المريلة) وعلقها فوق مشجب وجفف يديه  
جيدا في فوطة قبل أن يتجه نحونا من جديد . كنت قد رأيته مرات عديدة من قبل ،  
وفي أول مرة لمحته شعرت أنه كان أشقر ولم تكن ملامحه تختلف  
كثيرا عن الأوروبيين . كان في سحته ذلك الشيء غير المحدد الذي يجعل أبناء  
كل بلد يتعرفون على بعضهم البعض . ولكن في المرات التي رأيته فيها في  
العقول لم يظهر أى إقبال ولم يحاول أن يتحدث معى فقلت لنفسي ربما أخطأت  
في تخميني . أما ما أدهشنى الآن فهو اكتشافى أنه زوج لإيلين . كان أصغر  
منها في السن بكثير ، وقلت لنفسي إن الفارق لا يقل عن عشرين عاما بأية حال .  
صافحنا بيد رطبة بما تشربته من المياه رغم ما بذله من جهد في تجفيفها ،  
بينما كان برنار يشير إليه قائلا : السيد « يوسف » . وبعد التعارف سحب مقعدا  
وجلس على طرفه مطرقا ومحرجا .

قال برنار مشجعا : هيا يا يوسف . أدخل في الموضوع بسرعة . السيدان  
صحفيان ومن بذلك .

قال يوسف : المسألة ليست سهلة وتحتاج إلى وقت .

قال برنار : مفهوم المطلوب الآن أن تحكي الخبر باختصار . ألا ت يريد أن تكون صحفيا ؟ .. يجب أن تتعلم الإيجاز .

ثم التفت برنار نحوى وقال : وباختصار يوسف يريد أن يصدر صحيفة عربية من هنا . ويريد استشارتك في الموضوع .

نظرت إليه باستغراب : تريد أن تصدر صحيفة مرة واحدة ! ... أنت مليونير ؟

فضحك يوسف وقال : لا . ولكن معى المليونير .

قلت : حتى ولو كان هذا صحيحا فهو لا يكفى . هل لك خبرة سابقة في الصحافة ؟

قال متغريا على خجله : نعم ولا . أقصد لم يسبق أن أصدرت صحيفة ولكن كنت طالبا في كلية الإعلام في جامعة القاهرة ... منذ عدة سنوات .

سألته : ولماذا تركت مصر ؟

فضحك يوسف بصوت خافت وقال : هذا تحقيق صحفى أو تحقيق فقط ؟

قلت بما يشبه الاعتذار : لا ، هو مجرد فضول . لا ترد إن كان هذا يضايقك .

ـ لا يضايقنى على الاطلاق . كنت في السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما على بالسجن ستة أشهر ، لأننى اشتراك فى مظاهره هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة . هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا .

قال إبراهيم بابتسامة صغيرة : إذن يا صديقى حالك من حالنا ...  
فأشار يوسف باصبعه لليمين واليسار قائلا : لا ، حالى ليس من حال أحد .  
ما رأيته منذ خرجت من مصر يكفى لى ..  
ثم سكت ..

فقال له إبراهيم : ولكن كيف وصلت إلى .. وتوقف قائلا لا ، لن أشتراك فى هذا التحقيق .. معك حق يا يوسف ، كأننا نحاكمك .

وكان ذلك بالفعل هي المرة الوحيدة التي تدخل فيها ابراهيم في الحوار ، ظل يتبعنا بعينيه ولكنني لاحظت أنه بعيد إلى حد ما ..

وفي تلك الأثناء كانت (إيلين) تحوم في المقهى ، تضع على الموائد الخالية المفاصش والشوك والسكاكين ولكنها تختلس نظرة نحونا بين الحين والحين . وكان يوسف يتبعها أيضاً بنظره وهي تتنقل بين الموائد.

قال برتران : طبعاً أنا فهمت كل ما قلتموه باللغة العربية ، ولكن هل كل شيء على ما يرام ؟ .. هل اتفقتم ؟

قلت له : نحن بالكاد نتعرف على بعضنا البعض !

فضحك وهو يزبح كوبه - أخشى أنه لا يوجد وقت لاكثر من ذلك !

وبالفعل كانت إيلين تقترب منا ووضعت يدها على كتف برتران وهي تسأله : هل انتهيتم ؟ .. يسألون عن يوسف في المطبخ . هو الرئيس كما تعلم ! ..

طلت هناك ابتسامة على شفتيها ولكن نظرة صارمه أطلت من عينيها وهي تقول : أليس كذلك يا يوسف ؟ .. يحتاجون إليك هناك .

لم يرد يوسف ولكنه قام قائلاً : ساتصل بك بالטלيفون يا أستاذ . أعرف اسمك وسأستخرج رقمك من الدليل .

هز رأسه محياً وهو يبتعد وإيلين وراءه . وعندما احتفى قلت لبرتران :  
- هل هذه القصة الحقيقة أم أنها مجرد أحلام ؟ .. هل يوجد بالفعل مليونير؟

رد برتران ببطء وهو يهز رأسه مؤكداً : هو ليس مليونيراً فقط ، بل أمير عربي أيضاً . ليس أميراً فقط بل أمير تقدمي أيضاً .

كروت باستمتع : ليس أميراً فقط ، بل تقدمي أيضاً .

فقال برتران : أنا لا أمزح . هو أمير من بلد في الخليج ، كان يوسف يعمل معه في وقت من الأوقات ، وهو الآن يريد أن يصدر هنا صحيفة باللغة العربية ، وكلف يوسف أن يدرس له المسألة ..

مدينة هو الأشجار والخضرة . ومع الشيخوخة أصبحت أبحث عن كل ما يذكرني بطفولتي .. بمجرى النيل وبأشجار الجميز والصفصاف . أنا فلاح كما تعلم!... يمكن أيضاً أن نذهب إلى مقهاك بجانب النهر .

- سنذهب إلى هناك للغداء إن أردت . ولكن هناك حديقة صغيرة بالقرب من هنا وأنا أيضاً أحبها . أسميها حديقتي السرية .

وبينما كنا في طريقنا من وسط المدينة المزدحمة نجتاز شارعاً جانبياً يهبط نحو النهر سأله إبراهيم بطريقة عابرة :

- إلى أين أخذت بريجيت بالأمس ، أو أين أخذتكم هي ؟

فقلت : أوصلتها حتى بيتها .

.. هل أقول له أيضاً لو سأله إنتى صعدت إلى شقتها ؟ وماذا سيظن لو قلت له ذلك ؟

لكن إبراهيم لم يسألني عن شيء .. وعندما وصلنا إلى واجهة بناية قديمة دلفنا من بوابتها المقوسة واجتنزا ممراً صغيراً فأصبحنا في الحديقة التي تتوسط باحة كبيرة بين عمارتين قديمتين ترجع إلى قرن مضى على الأقل . وكانت بالفعل حديقة سرية جميلة لا تراها من أي مكان في الطريق .

توقف إبراهيم في مدخل الحديقة مبتسمًا وظل يديه بعثنيه وهو يدور بيصره بين أشجارها وقال لي بطريقة عابرة : هل تأتى هنا لتحب ؟

فردلت أيضاً بلهجة عابرة :

- ألم تكن أنت الذي قلت بالأمس إننا تجاوزنا هذه السن ؟

لم يرد إبراهيم وراح يسير ببطء وأنا أتابع خطواته وسط الممرات التي تحف بها أشجار الحور العالية بخضرتها الكثيفة وأشجار الكستناء التي بدأت تطرح ثمارها الخضراء المستديرة . سار يتأنى أيضاً أحواض الزهور على جانبي الممرات ، وكانت وروداً تشرع أوراقها الحمراء والصفراء في زهو الفتولة مع

الصيف الجديد ، وإلى جوارها أحواض أخرى لزهور البانسيه ، في ألوان مختلفة بيضاء وينفسجية وبنية ، وفي قلب كل منها خاتم أصفر مستدير من نقط صغيرة كالوشي المنمنم . ويدا إبراهيم مستغرقا تماما في تأمل تلك الزهور فلم تتبادل كلمة إلى أن جلسنا على مقعد في ركن يشرف على الحديقة كلها .

ظللنا نجلس صامتين وكل منا مستغرق في أفكاره . ولكن إبراهيم هو الذي قطع ذلك الصمت حين سأله دون أن ينظر نحوه :

ـ ما هو عمر ابنك ناصر ؟

التفت نحوه في شيء من الدهشة : اسمه خالد كما قلت لك . عما قريب سيصبح عمره ٢٠ سنة . ولكن غريب حقا أن تسأله عنـه الآن . كان خالد على يالي في نفس اللحظة التي سألهـيـفيهاـ عنه . ولكنـيـكـنـتـأـفـكـرـ فيـأنـاليـومـ هوـ موـعـدـ مـكـالـمـتـيـ معـهـ . أماـأـنـتـ فـماـذـىـ ذـكـرـ بـهـ ؟

ـ تذكرت عندما كنت في مثل عمره .

قلت بقلب مثقل : بالتأكيد أنت كنت تختلف عنه

ـ كيف ؟

ـ خالد تغير كثيرا في الفترة الأخيرة . كان شابا عاديا يحب الرياضة ويحب قراءة الأدب والشطرنج بصفة خاصة . كنت أنا الذي علمته الشطرنج ولكنه بدأ يهزمـيـ حتى وهو في سن ١٤ أو ١٥ وأسعدـنـيـ ذلكـ مـثـلـ كلـ أـبـ .

ـ وتوقفـتـ قـلـيلاـ قـبـلـ أـكـمـلـ : وـكـانـ أـيـضاـ مـتـدـيـنـاـ طـوـلـ عمرـهـ ، أـمـاـالـآنـ فقدـ ذـهـبـ بـعـدـاـ ..

ـ تقصد أنه انضم إلى الجماعات أو شيء من هذا النوع ؟

ـ لا ولكنه أصبح يغالـيـ كثيرـاـ ، حتى طـرـيقـهـ فـيـ الـكـلـامـ تـغـيـرـتـ .

ـ شـمـ غـلـبـنـيـ الحـزـنـ وـأـنـاـ أـقـوـلـ لـهـ : هـنـادـيـ تـقـوـلـ لـىـ الـآنـ إـنـهـ لـمـ يـعـدـ يـشـاهـدـ التـلـيـفـيـزـيـوـنـ وـإـنـهـ يـرـيدـ مـنـهـ أـيـضاـ أـلـاـ تـشـاهـدـهـ .

ضحك إبراهيم وقال : فى هذا بالذات معه حق ! .. التليفزيون عندنا جهاز للتخلف العقلى.

أراد إبراهيم فى الغالب أن يغير الجو وحين رأى أنى لم أستجب له قال :

– اسمع يا صديقى، هذه مرحلة من العمر . هل يدهشك لو عرفت أننى فى مثل سنه أو عندما كنت أصغر منه قليلاً لم أكن أغادر المسجد ؟ لم أكن أكفر عن الصلاة ، وأكبر الوضوء لأن وسواساً أتاني أنى قد نقضت وضوئى وأستغفر الله لذنب لم أرتكبها . استغفر لمجرد أفكار محمرة طافت فى ذهنى. كنت أبكي وأنا أدعوا الله أن يغفر لى هذه الأفكار الشيرية وأعد بالتوبية عنها ..

– كلنا مررنا بذلك .

– وإنذن فلماذا تخاف على خالد ؟ .. هو أيضاً سيجد طريقه . هيا – مرة أخرى أنا أسف لأنى أبعث أفكاراً مزعجة . هيا .. فلتترك هذه الأفكار .. سأقول لك الآن شيئاً يدهشك بحق ! .. هل تصدق أن حديقة منزلنا فى القرية كانت بمثل هذا التنسيق والجمال ؟ .. لم يكن أبي يتتساهم مع البستانية أبداً لو حدث أى إهمال .

حاولت الابتسام وأنا أقول : سمعت أنه كان قصراً لا متزلاً .

– لا ، هذه مبالغة . كان بيته كبيراً ، ولكنه كان بيته جميلاً ..

ثم سكت لحظة قبل أن يضيف وقد غلبه هو الاكتئاب فى هذه المرة :

– ولكنى لم أعرف فيه السعادة أبداً ..

– حتى أنت ؟

تطلع إبراهيم نحوى وقال فى بطء : ماذا تقصد حتى أنا ؟ .. نعم ، حتى أنا ! .. سمعتك مرات تتحدث عن طفولتك الفقيرة وصدقنى أننى فى بعض الأحيان كنت أحسدك ! .. كنت أسأل نفسي لماذا لم أكن أنا أنت ؟ .. لماذا لم أكن أى إنسان آخر بخلاف من أن أكون أنا ؟ .. أحياناً ما تأتينى هذه الأفكار الغريبة ..

- هل كانت طفولتك شقية حقاً إلى هذا الحد؟

ولكنه واصل كأنه لم يسمعني: أسأل نفسي كثيراً في هذه الأيام ، ما هي تلك المضادفات التي تتحكم فينا وتصنعتنا؟ هل كان من الضروري حقاً أن أولد ابناً لمالك الأرض في القرية؟ .. وهل كان من الضروري أن يملاً أبي البيت بالكتب التي يقتنيها ويجلدها ويطبع عليها اسمه بالخط النسخ المذهب دون أن يفتح منها كتاباً ، ثم يترك لي أنا هم القراءة منذ تعلمت القراءة؟ .. ماذا لو أن شيئاً من ذلك لم يحدث؟ هل كانت حياتي ستفسد من أولها؟ .. هل كانت عيني ستقع على العطب في كل شيء؟ .. لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلاً يستمتع بها كل إنسان؟..

بدأ إبراهيم أسلنته بهدوء ثم تسللت نبرة من التوتر إلى صوته . وأوشكت أن أقول له إن هذه الأفكار ليست «علمية»، ولكنني أمسكت لسانى حين رأيته يحك جبينه بيده ويحدق أمامه مباشرة ، وكأنه يبحث الآن في هذه الحديقة ، عن إجابة للأسئلة التي عذبتني طويلاً .

عاد ينظر نحو أخيراً ويكرر سؤاله بصوت خافت : لماذا؟ الآن أسأل نفسي: متى بدأت همومي . هل كانت أمي هي السبب؟ .. ربما . هي أول حزن قعبيت عليه في حياتي دون أن أفهم سببها . مازلت أراها هناك في بيتنا الكبير في القرية .. في البيت الكبير الغرف ، المملوء بالاثاث وبالصور وبالكتب .. تتحرك وحيدة من غرفة إلى أخرى .. ترفع أشياء ثم تضعها مكانها . تقول للخدم الكثرين أوامر ، ولكن بصوت غير واثق كأنها تتوسل إليهم ثم بسرعة تسحب ما أمرت به .. تقول للخادم : إن كنت متعباً أجل هذا العمل بعد الظهر ولا داعي للجلة .. الدنيا لن تطير .. تكاد تعذر له عن وجودها . في الصبح كانت تشغل نفسها بوضع الزينة .. أحمر الشفاه والكحل للعيون وتلبس ثوباً للخروج ومجوهرات كثيرة ثم لا تخرج من البيت ، ونادرًا ما ينورها أحد . فقط تتحرك في غرف البيت وتتنهد . أما أبي فلم أسمعه يناديها باسمها أبداً . كان يقول لها دائمًا

## الفصل الخامس

### كم أنت جميل !

عندما فتحت باب الشقة أطل على عبد الناصر مبتسمًا من صورته الملونة على الحائط . وكانت في يدي الأشياء التي وجدتها في صندوق البريد : أعداد من الصحيفة مرسلة من القاهرة وأوراق الإعلانات الكثيرة . فرمت الصحف ولم أجد من بينها عدد الخميس الذي تكتب فيه منار بابها الأسبوعي ، فوضعت الأعداد الجديدة على المكتب في الصالة فوق الصحف الأخرى .

جلست إلى المكتب وبدأت أحاول الاتصال بالقاهرة . بدأ قلبي يدق كالعادة وأنا أطلب الرقم متطلعاً إلى صورة خالد وهنادي في البرواز الموضوع على المكتب . حاولت مرات كثيرة دون جدوى . كالعادة كانت هناك إشارة الخط المشغول حتى قبل أن أنتهي من إدارة الرقم ، أو صمت مطبق بعد أن انتهي من إدارته يستمر طويلاً فاضطر إلى معاودة الطلب من جديد . كنت معتاداً على ذلك وأعرف أنه لا حل غير تكرار المحاولة مرات لا حصر لها فبدأت أدير الأرقام بأصبعي في القرص بصورة آلية وأنا أختلس النظر إلى عناوين الصحيفة التي أمامي . وفجأة دون أن أشعر ودون رنين مسبق أتاني صوت هنادي كالمفاجأة :

«ألو .. بابا ؟

– أيوه ياحبيتى .. إزيك يا هنادي ؟

– هلكانة من المذاكرة ، والدنيا حر جداً .

– معلهش شدى حيلك يا هنادي هانت .. الامتحان الأسبوع الجاي ، مش

كده ؟

– أيوه ، ادعى لى يابابا ؟

– بادعى لك دايماً ياحبيتى بس عايزين مجموع حلو في الإعدادية السنة

دوى .

- حلو يعني كام كده يا سى بابا ؟
- على قد ماتقدرى يعني نقول ٩٠ فى الماية مثلا ؟
- نعم ؟ ! ده إحنا ٦٠ فى الماية نبوس إيدينا وش وضهر .. و ٥٠ فى الماية حلو برضه ، مالها الخمسين ؟ هو أنا حادخل الجامعة بالإعدادية ؟
- ماهو لو ماكتبىش من دى الوقت .. ولا أقول لك ! خلاص إنتى ذاكرى ويس .. وما تفكريش ولا فى مجموع ولا فى أى حاجة تانية ..
- أنا مش بافكر فى المجموع ، بس أنا با أفكرا فى حاجة تانية مهمة جدا.
- إيه هي ؟
- هدية النجاح طبعا ياسى بابا !
- يعني ؟
- يعني تنقل جيبك كويس جدا ، لأنى السنة دى عايزه تعمل لى اشتراك فى النادى بتاع الفروسية . عايزه أتدرب على ركوب الحصان .
- ودى حاجة كتيرة يعني ؟
- قول مثلا خمسماية ، ألف إزاي ما حضرتك تحب .
- ألف ؟ معقول ؟ وكل ده عشان ٦٠ فى الماية ، أمال لو كانوا ٩٠ ؟
- كنت حا أقول لك اشتري لي عربية طبعا ! .. خد يابابا .. أهو خالد الصمام بتاع الامتياز والتعدين فى الماية وال حاجات ده . باى باى بابا .
- باى باى يا هنادى . آلو ؟
- جاعنى صوت خالد عميقا ووقدورا وهو يقول بالفصحي :
- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ياخالد .. إزيك يا ابنى ؟
- الحمد لله يابابا .. وأنت إزاي صحتك ؟ كويس إن شاء الله ؟
- كويس جدا . صحيح جبت امتياز يا خالد ؟

- يا بابا ما تصدقش البنت اللمسة دى . النتيجة لسه ماطلعتش .  
 - حا تطلع إمتي ؟  
 - الأسبوع الجاي إن شاء الله .  
 - وحاتيجى على طول بعد النتيجة . مش كده ؟  
 - بعد النتيجة ؟ لا . أصل أنت عارف يا بابا .. لازم أحضر للمشروع  
 بتاع السنة الجاية .. وحاجات تانية ..  
 - يعني حا تيجى إمتي يا خالد ؟ .. أنا مشتاق لك جدا يا ابني ، وعايزك  
 تقدر معايا أسبوعين أو ثلاثة قبل ماتروح على مسابقة البطولة بتاعتني .  
 - أنا كمان مشتاق لك جدا يا بابا .  
 - يعني حا تتأخر قد إيه يا خالد ؟  
 - بصراحة يا بابا .. مش عارف .  
 - ليه يا ابني ؟  
 سكت خالد لثوان قبل أن يقول : اسمع يا بابا أنا بصراحة اعتذرت عن  
 السفر للمسابقة .  
 - اعتذر ؟ ليه يا خالد ؟ مش عايز تشوفنى ولا ايه ؟  
 - لا سمع الله يا بابا . الحقيقة صعب إنى أقول لك مش حا آجي أشوفلك  
 لأنى مشتاق لك فعلا . لكن أنا ما أحبيش الكذب ...  
 - تكذب ؟ .. فيه إيه يا ابني ؟ .. إنت تعبان ؟ فيه حاجة ؟  
 - لا يابابا ، أنا كوييس جدا الحمد لله . بس بصراحة أنا قريت فتوى  
 يقول إن الشطرينج حرام .. وأنا مقتنع بالكلام ده .  
 - حرام ؟ الشطرينج ؟

سكت خالد لثوان قبل أن يقول بلهجة قاطعة : أيوه يابابا .. حرام » .

★★★

ظللت فترة بعد المكالمة أقف مستندًا بيدي إلى المكتب ثم دخلت المطبخ لأعد فنجان القهوة الذي كنت أنتوبيه . ولكنني بدلاً من ذلك جلست على المهد الصغير هناك ورحت أتطلع ساهماً من نافذة المطبخ إلى العمائر المقابلة وإلى السماء والأشجار ، مشتت الذهن ، لا أستطيع أن استجمع فكري .. وأخيراً وجدتني أتمت بصوت خافت :

– حرام .. بالفعل حرام !

★★★

كان إبراهيم يتبعني في صالة الاستقبال بالفندق ولوح لي بيده مبتسمًا بمجرد أن رأني أدخل من الباب . ولكن عندما اقتربت منه وقف ويداً في وجهه الانزعاج وهو يسألني : ماذا بك ؟ أنت مريض ؟  
قلت : لا ، أقصد هو مرضي العادي ، الضغط المرتفع . أحياناً يشتد ويسبب صداعاً شديداً كما تعلم .

– ولكن لماذا خرجت ما دمت متعباً ؟ .. كان يمكن أن تتصل بالتليفون .  
وكلت سأفهم .

– لا تهتم يا إبراهيم . أخذت حبة العلاج للضغط وسأصبح عادياً بعد قليل .

وكنا قد اتفقنا منذ الظهر أن نأخذ في هذه الليلة هدنة من كل شيء وأن نذهب معاً إلى السينما . رأى إبراهيم إعلاناً عن فيلم لورانس العرب وقال إنه شاهده منذ عشر سنين ويود أن يراه مرة أخرى لأنه أحب موسيقى الفيلم كثيراً . وأخذ يحاول أن يشيني عن الذهاب إلى السينما قائلاً : إن الأفضل أن أرتأح ولكنني أقنعته بأنني محتاج أيضاً إلى شيء من الترويح وأن لورانس قد يكون مفيداً الآن .

قال إبراهيم : إذن سنتكلم عن ذلك فيما بعد . الآن ستاتي معى لنمر على الدكتور مولر . وعدنى بالأمس أن يعطيني قائمة كاملة بالمنظمات والجمعيات التي يمكن أن أراسلها .

ـ اتفقنا على هدنة من العمل في هذا المساء ، أليس كذلك ؟

قال إبراهيم مبتسما : نعم ، ولكنني أخذت الموعد مع مولر منذ الأمس ،  
ولن تستغرق المقابلة طويلا على كل حال .

كانت المسافة قصيرة حتى الفندق الآخر . وبينما كان إبراهيم يحاول  
إقناعي مرة أخرى أن أرتأح هذه الليلة ، لم أتمالك نفسي « فحكيت له كل شيء عن  
مكالمة خالد . كنت أغالب دموعا وأنا أحكي له ولكنه قال لي بهذه :

ـ لا تلمه يا صديقي . قلت لك هو الآن في سن البراءة . ليس معنى هذا  
أنه لا يحبك أو أنه لا يريد أن يراك . ولكن ما يؤمن به الآن أهم من حبه لك ومن  
حياته ذاتها . ألا تذكر أنت كيف كنت ؟ .. هل فكرت في حياتك عندما دخلت  
بورسعيدي تحت غارات الانجليز ؟

ـ المسألة تختلف . أيامها كانت هناك قضية ..

قاطعني إبراهيم : تؤمن بها ؟ .. وهو أيضا يؤمن بقضيته ، فلماذا  
تختلف المسألة ؟ في مثل سنته تقريبا أنت أردت أن تضحي بحياتك ذاتها ، وهو  
ضحي بشي أقل بكثير . ضحي برحلاة كان يمكن أن يلacak فيها .

ـ المسألة تختلف . في رأسي فكرة لا أستطيع أن أشرحها لك بوضوح ولا  
حتى أن أشرحها لنفسي .. أقصد .. إن ما كنا نفعله في شبابنا كان من أجل  
المستقبل .. من أجل الحياة .. ما لاحظه بالتدرج عند خالد نوع من النفي الكامل  
للحياة .. المستقبل هو ما بعد الموت فقط .. بالأمس أنت شرحت كيف كانت في مثل  
سننها .. تلك الأحساس بالذنب حتى على الفكرة أو الخاطرة الشريرة .. ألم يكن  
هذا قبل أن نكتشف أننا لسنا ملائكة ولا شياطين ؟ إننا بشر خطيء ونتب ؟

قال إبراهيم ضاحكا : كنت أحدثك عن ذكرياتي ولكنني لست حجة في  
شئون التوبية . أنا الآن إن كنت قد نسيت رجل ماركسي ! .. وعلى العموم فأنتم لم  
تبق مع خالد لكي ..

توقف إبراهيم عن الكلام وغمغم باعتذار ولكنني تابعت فكرته :

ـ أفهم ما تريده أن تقول . لو بقيت معه لكان يمكن أن أؤثر عليه . ولكن

كيف كان يمكن أن أبقى ؟ .. منار وأنا عودنا خالد وهنادي منذ الصغر على الإقناع والاقتتاع وعلى حرية الاختيار . بعد الطلاق اختار هو أن يبقى مع أمه وأخته ، وكان هذا من الأسباب التي دعتني إلى السفر . كان صعبا على أن أكون في المدينة نفسها مع أولادي ولكنني بعيد عنهم . نرتب مواعيد اللقاء مثل الأصدقاء والغرباء . مثل ..

سكت قبل أن يختنق صوتي بالدموع التي كنت أقاومها ، وكنا قد اقتنينا من فندق مولر فحاولت أن أهدى نفسي قبل أن نترك ظلام الطريق إلى صالة الفندق .

★★★

كان مولر يجلس في البهو ومعه بريجيت ، يحتسيان البيرة صامتين وواجمين . فهمس إبراهيم في أذني ونحن نتقدم منهما :  
- يبدو أنه هنا أيضا قد حدث شيء ما ، ولكن ما هو ؟

كان وجه مولر الذي يشبه القناع عادة مكفها ومتقدرا في هذه اللحظة . ولكننا عندما جلسنا أخرج من جيبيه ظرفا أبيض كبيرا وقال :  
- لم أنسك ياسيد إبراهيم . ستجد هنا كل العناوين .

فتح إبراهيم الظرف ورأيت ورقة طويلة مقسمة إلى خانات مكتوبة بخط اليد لكنها منظمة ومنسقة تماما أكثر من أية ورقة مطبوعة .

وقال إبراهيم بعد تصفح الورقة : شكرا يا دكتور مولر . لن نعطيك أكثر من هذا . وهم بأن يقوم .

ولكن مولر قال : انتظر ، لو سمحت . ربما يمكن أن تساعداني .  
ثم التفت نحوى وقال : ربما أنت أيضا بالذات يمكن أن تساعدنى .  
ثم سكت لحظة قبل أن يقول : بيدرو اخترى .

قلت : من بيدرو ؟

تذكرة فجأة وخجلت من نفسي لأنى نسيته قبل أن يرد دكتور مولر قائلا :

- بيدرو إيبانيز ، الذى كان فى المؤتمر الصحفى ، أخذ حقائبه وترك

الفندق .

بدأ الدكتور مولر يشرح لنا أنه تعب كثيرا حتى حصل على تأشيرة الدخول لبيدرو لكي يتحدث فى المؤتمر ، فهم لا يرحبون هنا باللاجئين من شيئاً ولا من أى بلد آخر . ولذلك فإن التأشيرة لا تسمح لبيدرو بالبقاء ، أكثر من أسبوع واحد . و رغم علمه بذلك فقد أخذ حقائبه وترك الفندق دون كلمة .

قال إبراهيم : ولكن لماذا تقلق إلى هذا الحد يادكتور ؟ .. بيدرو ليس طفلًا وهو يستطيع أن يتحمل مسؤولية مافعل .

رد مولر في توتر ولكن ب TLCانية : المشكلة الآن ليست بيدرو لكنها المنظمة . اختلست لحظتها النظر إلى بريجيت فبادلتني النظر وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ، ولكن دكتور مولر لم يلاحظ شيئاً واندفع في شكواه قائلاً إنه يخشى إلا يظهر بيدرو قبل انتهاء موعد التأشيرة فتواجه المنظمة متابعة في البلد : ربما يقولون إن المنظمة تشجع الهجرة غير المشروعة فتسوء سمعتها هنا ، وهو يخشى إن حدث ذلك أن تهتز صورة المنظمة في البلاد الأخرى أيضاً .

سؤال إبراهيم في شيء من الحيرة :

- ولكن ما هي المشكلة بالضبط مع ذلك يا دكتور مولر ؟ لماذا هرب بيدرو ؟

قال مولر مبتسماً : هذا ما أود أن أعرفه .

ولكن بريجيت وضعت كوب البيرة بعد أن رشقت جرعة كبيرة وقالت : ولكن بالتأكيد تعرف يادكتور ! تعرف أنه منذ هرب من شيلي لم يحصل على إقامة شرعية في أى مكان . وتعرف أنه كان يقيم في النمسا في مركز الاستقبال للهاربين من بلادهم وأن هذا المركز يشبه السجن .

قال مولر محتاجاً : كانوا يبحثون حالي وكانوا سيقبلونه لاجئاً في النهاية . من المؤكد أنه كان سيخرج من مركز الاستقبال .

فواصلت بريجيت بلسان ثقيل إلى حد ما ولكنها تحاول مع ذلك أن تكبح

انفعالها : وكم كان سينتظر يا دكتور ؟ ... شهودا أم سنوات ؟ وكم تظن أن الإنسان يحتمل البقاء في معسكر الاستقبال هذا ؟ .. أنت رأيتم هناك في المعسكر المجاور لبلدتنا . دعك من قسوة الحراس ، كم تظن أن الإنسان يحتمل نظرات العداء والكراهة من سكان بلدنا الودودين ؟ .

غُلَب الغضب مولر فقال بالرغم منه : هو كان هاربا من شيء أسوأ .. وكان يحب أن يقدر مافعلته المنظمة من أجله !

قالت وهي ترفع الكوب مرة أخرى إلى شفتيها : نعم .

ثم رجعت تسترخى في مقعدها . كانت تلبس بنطلونا من الجينز وبلوزة بيضاء خفيفة وقد تركت شعرها يسترسل في إهمال ، وبدت في جلستها صورة للهُمود والاستسلام .

أُلقي إبراهيم نظرة سريعة نحوها ثم التفت إلى مولر وقال بحرارة وانفعال حقيقين : هذه مسألة تستحق أن نعمل من أجلها بالفعل يا دكتور . أصارحك أنتي منذ حضرت ذلك المؤتمر بالأمس وأناأشعر بالهم وبنوع من الذنب نحو هذا الإنسان . أنا سأكتب عنه في صحيفتي الصغيرة ، ولكن كيف يفいで ذلك ؟ والآن أنت تقول إننا يمكن أن نساعدك ، صديقي وأنا ، كيف ؟

قال مولر : نعم . «ثم التفت نحوى وأكمل» .. لابد أنك كصحفى مقيم هنا تتصل بجهات كثيرة وبأشخاص يمكن أن يساعدونا في البحث عنه . أقصد بالطبع بعيدا عن الشرطة ..

ولكن قبل أن أرد هتفت بريجيت فجأة وهي تتحقق في إبراهيم : أيها الرجل كم أنت جميل !

ساد الصمت لحظة ، وصعد الدم إلى وجه إبراهيم وبدا على مولر نوع من الغضب ولكنه ابتسם فجأة للمرة الأولى وهو يقول بلهجة يائسة : ابنة هانز شيفير ! ثم تحول نحوها وأكمل : هكذا أبواها منذ عرفته من نصف قرن ! يفاجئك دائما بالعبارات الغريبة في الوقت غير المناسب ..

قالت بريجيت : ولكن كل الأوقات مناسبة لتقول المرأة للرجل إنه جميل !

فتدخلت أنا : دائمًا ما كنت أقول لإبراهيم إنه أخطأ طريقه للصحافة ،  
وإنه كان سيصبح نجمًا عالميًا لو اشتغل بالسينما !  
لكن إبراهيم صاح غاضبًا : كفى !

كان وجهه محترقاً وعابساً ولكن بريجيت اعتدلت في مقعدها وتابعت  
تاختطفني وهي تنظر إلى إبراهيم : لا . نجوم السينما كالدمى ، أشياء مرسومة  
بالستيميتير الرابع ! الجميل في إبراهيم تلك الحياة في وجهه ربما لو تأملته  
بالتفصيل فستجد مثلاً أن فمه ..

فهتف إبراهيم مرة أخرى ولكن بما يشبه الضراعة : كفى أرجوك ! ..  
نحن نتكلّم عن شيءٍ أهم ..

قالت بريجيت : هل أغضبتك ؟ أنا أسفه !

وقال مولر بلهجة حكيمة : في مثل سن إبراهيم ، لا يسعد الرجل بأن يقال  
عنه إنه جميل . بل أن يقال إنه ذكي مثلاً ...

فردت بريجيت متشكّكةً - تعتقد ذلك ؟ لا أفهم ماتعنيه بالسن . ولكن  
أعرف رجالاً أذكياء مستعدين للتنازل عن كل ذكائهم مقابل أن يسمعوا ..  
ثم وضعت بريجيت كوب البيرة على المنضدة أمامها وأصبح وجهها جاداً  
 تمامًا ..

حدث لها ما يحدث للأشخاص الذين يشعرون أنهم يتكلّمون بتأثير الخمر ،  
فسكتت دون مقدمات .

وبيعد فترة التفتت إلى إبراهيم بتلك النظرة الجادة وقالت : أسفه إن كنت  
قد أغضبتك .. غير أنها لم تتمالك نفسها فتابعت وهي تضحك : ولكن ماذا أفعل  
إن كنت جميلاً فعلاً ؟ أنا لا أغازلك ولا أئي شيء ، أريد فقط أن أقول إنك جميل !

وتابعت ضحكات قصيرة متقطعة وهي تضع يدها على فمه .  
نظر إبراهيم إلى ساعته ولكن قلت له : لا تنظر إلى الساعة . لورانس  
العرب يركب الآن جملًا في الصحراء وقد قطع به مسافة طويلة !

ثم سألنى : هل تضمن له أو يضمن له الدكتور شيئاً أفضلاً مما يحاوله هو بنفسه؟  
ولم يكن عندي رد ولكن برئار وافق مع ذلك على أن يقابل مولار . وظل  
يصحبنا في أمسيات الأسبوع مع إبراهيم ومولار إلى الجمعيات التي تعنى  
باللاجئين والى الأحياء الفقيرة التي تأوي الأجانب المقيمين بصورة غير شرعية؛  
غير أننا لم نعثر على أثر لبيدو حتى أوشك الأسبوع ان ينتهي .

وفي خلال تلك الأيام أيضاً كنت أذهب إلى إبراهيم في الصباح لكي  
أصحابه إلى موعديه المختلفة مع الصحفيين ودرجات الأحزاب السياسية ومع بعض  
العرب المقيمين في البلد . أراد أن يكتب سلسلة من المقالات بعد أن يعود إلى  
بيروت ، وبدأ يجمع المعلومات التي تفيده وظل في أثناء ذلك كله يعرض وثائقه عن  
المختطفين في لبنان فيعدونه بتهذيب شديد بأن يبحثوا المسألة ولكنهم يخفون بعد  
ذلك . وكنا بين الحين والآخر نرى «الطالبة» في صالة الفندق أو نجدها فجأة في  
أحد المقاهي التي نجلس فيها ؛ يظهر معها في بعض الأحيان شاب رياضي  
ويتصرفان كحبيبين يتعانقان ويقبلها وتقبلها ولكن دون أن تغيب عن بصرهما . غير  
أنها كانت «تهجر» حبيبها في بعض الأحيان فيضطر إلى أن يتبعنا وحيداً .

وكان المكان الوحيد الذي صمم إبراهيم أن يذهب إليه بمفرده هو مكتب  
الحزب الشيوعي . يومها قابلني في المطعم بعد عودته مشرقاً الوجه وعيناه تلمعان  
بالزهو . قال لي : أخيراً رأيت أوروبا الحقيقة ! أخيراً عرفت أوروبا التي لم  
تعرفها أنت ! تصور أنهم هنا أيضاً يضطهدون الشيوعيين كما يضطهدونهم في  
بلدنا .. تصور أن الشرطة تلاحقهم وترقب تليفوناتهم وأنهم يضيقون عليهم في  
الوظائف والأعمال التي يجدونها بكل صعوبة ، بل تصور أنهم أحياناً لا يوافقون  
على إسكانهم في البيوت الرخيصة التي تبنيها الدولة مجرد أنهم شيوعيون !

سألته في دهشة : ولكن ما الذي يسعدك في كل هذا يا إبراهيم ؟  
فرد بفخر : وجدت الرفاق هنا في منتهى الصلابة ، رغم كل هذا  
الاضطهاد !

وبصعوبة منعت نفسي من الابتسام أو هكذا ظننت ، لأنه تابع حديثه

يشيرة تأنيب : أنت تسخر من هذا ؟ اسمع ! .. كل ذلك الاضطهاد يملؤني بالأمل على عكس ماتظن . هم هنا أقلية صغيرة ، أعرف ذلك جيداً، وصحيقتهم بحجم الكف كما قلت أنت ، ولكن لماذا يخافون منهم إلى هذا الحد وهم أقلية ؟ لا يوجد حزب شيوعي في أوروبا يحمل السلاح أو سيعمله في أى يوم لكي يسقط الحكم ، فلماذا يخافون منهم ؟ .. هل تريد أن تعرف الجواب ؟ لأنه طال الزمن أو قصر فهم البديل لأنمورة أوروبا ولشكلة العالم .. هم المستقبل وهم حتمية التاريخ .

قلت في ذهول : ولكن يا إبراهيم ولا أعتن الشيوخين يقولون ذلك الآن ! ..  
ولا حتى الكرملين نفسه يحلم بأن يحدث هذا في الغرب ، ما الذي جرى لعقلك ؟

وهكذا كان يمضى بينما النقاش على الغداء أو في السيارة . نعاود الشجار والخلاف كما كانا نفعل أيام الشباب .. ورغم أننا لم نتفق على شيء أبداً فقد كان صادقاً تماماً عندما قال أول ما التقينا محا الموت أسباب العداوة بينما . بينما بينما في خلال أيام قلائل نوع من التقارب والود الحقيقي رغم استمرار الخلاف . وكأنما كنا في عمق دفين من نفسينا لا نأخذ كل ذلك الخلاف مأخذ الجد .. نتناقش مجرد المحافظة على الشكل غير أننا نشعر أننا شبحان من عصر مات .. نعرف أن عبد الناصر لن يبعث من جديد وأن عمال العالم لن يتحدون . ولكننا لم نقل ذلك أبداً ، بل كنا نقول عكسه باستمرار . كنت أقول له لكي أتفق نفسى قبل أن أتفقه إن الشعب لن ينسى ما فعله من أجله عبد الناصر .. إن الناس في قريتنا لن ينسوا أنه هو الذي بني الوحدة الصحية في بلدة مات نصف سكانها من الملاريا ذات يوم ، ولم تكن تعرف قبله غير طبيب الصحة الجوال الذي ي يأتيها مرة كل شهر .. لن ينسوا أنه بني مدرستين وزع على القراء الأرض وأنه عين أبناء هؤلاء القراء في المصانع التي بناها . وكانت مثل إبراهيم أتمس اليقين في أشياء صغيرة . أقول له إننى منذ أيام جعلت أحد الأصدقاء يستمع إلى جزء من خطبة لعبد الناصر فلمع في عينيه الدموع ! .. أذكره بأن الناس فى مصر بعد أن قيل عن عبد الناصر كل ما قيل خرجوا سنة ٧٧ يحملون صورته ويهتفون بياسمه .. أقول له معنى هذا أن ثورت ستتصحو على أيدي الناس مرة أخرى ذات يوم ، أقول أشياء كثيرة وإبراهيم يستمع إلى وهو يهز رأسه في عتاب ويكبر :

ولكنه حارب حلفاءه وقرب أعداءه فضيعوا كل شيء . ثم من الذي أتى بالسادات ؟  
- وأحاول الرد فيبدأ من جديد الانفعال والشد والجذب .

ولكن مرة ونحن في دوامة النقاش توقف إبراهيم فجأة وسألني : اسمع ..  
بم تحاول أن تقنعني ؟ .. أن غير الآن رأيي وأنضم اليك ؟ في هذا العمر ؟ ..  
الأفضل أن أنتحر !

فعلمته أنه مثلى .. يتشبث بيقينه لكي لا ينتهي عالمه . لكي لا يضيع الحلم  
الذى دفعنا فيه ثمنا عمرا ياكمله !

ولكن قرب نهاية الأسبوع قل اهتمام إبراهيم كثيرا بهذه المناقشات . كان  
في البداية يغمغم بشكوى مبهمة .. قال لي مرة إننى وإن يكن زواجى قد فشل  
ومرت بمحنة ، إلا أننى أسعد منه حالا لأننى عرفت على الأقل فى حياتى حبا  
 حقيقيا كاملا . كرر لي ما قاله من قبل : إن حاجزا كان يقف بيته وبين كل امرأة  
 عرفها وإنه لا يدرى ما هو ؟ .. ثم ما الفائدة أن يجد الإنسان ما ظل يبحث عنه  
 طول عمره ولكن بعد فوات الوقت ؟ ولم أكن فى العادة أرد على أسئلته ، أعرف  
 أننى يمكن أن أساعده بالصمت أكثر . مما أساعده بالثرثرة .

و قبل أن يسافر بيومين التقينا على العشاء فى المطعم المطل على النهر ..  
ولم يكن هو إبراهيم الذى أعرفه . جاء متأخرا قليلا عن الموعد وجلس فى مواجهتى  
شاحبا وهو يشبك يديه أمامه على المائدة وإن لم يوقف ذلك ارتجاف أصابعه  
و يديه . خيل إلى أن كل شيء فيه يرتجف وهو يهز ساقه بعصبية تحت المائدة ،  
فقلت له برفق قدر ما استطيع : ما الذى جرى يا إبراهيم ؟

ولكنه بدلا من أن يرد سألهني : هل يمكن أن تقول لي أنت ما الذى جرى ؟  
أقصد لماذا لم نعد نعرف أبدا أية فرحة حقيقة ولا حتى أى سكينة حقيقة ؟ هل  
تعرف كيف صدر الأمر بحرماننا من السعادة ؟

تابعت حديثى معه بالرفق نفسه وقلت : قبل أيام تحدثت أنت عن  
مصالحات تصنعننا . حدثتني عن والديك وقلت لي إن ما عذبك طول حياتك هو  
الظلم .

فقال بشيء من الحيرة : أنا قلت ذلك ؟ وما أهميته ؟ .. هل هذه هي المشكلة ؟ أظن أن الظلم عذبني مثلما عذب غيري من الناس لكن هذا لم يكن معناه أن تنتهي حياتهم. الحياة تقبل العدل وتقبل الظلم أيضا .

قلت في شيء من الحذر : ماذأ تقصد بذلك ؟

ـ ماذأ تقصد ؟ .. لا أقصد شيئا .. عندما وصلت الى هنا سألتني عن شادية ومن وقتها وأنا أفكـر .. ولكن ما هو الذى أردت أن أقوله ؟ .. نعم .. لم أكن أريد أن أظلمـها معي. أردتها بالفعل أن تتركـنى ، لم نـكن نـعرف ونـحن في المـعتـقل مـتـى سـنـخـرـج أو إن كـنـا سـنـخـرـج في أـى وقت . فـكـرـتـ أـنـهـاـ مـعـقـلـةـ مـثـىـ .. تـجـلـسـ وـتـنـتـرـرـ ، قـلـتـ أـسـتـطـيـعـ عـلـىـ الـأـقـلـ أـنـ أـحـرـرـهـاـ هـيـ ..

ـ ولكن بينما كان هذا قـصـدـكـ يا إـبرـاهـيمـ فإـنـكـ بـدـلاـ منـ أـنـ تـحـرـرـهـاـ قـدـ دـمـرـتـهـاـ .

ندمت بمـجرـدـ أـنـ قـلـتـ ذـلـكـ ، وأـرـدـتـ أـنـ أـعـتـنـرـ لـإـبـرـاهـيمـ . ولكن ردـ عـلـىـ دونـ اـنـفـعـالـ بـلـ فـيـ شـرـوـدـ كـامـلـ : أـوـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ هـيـ أـيـضـاـ قـدـ دـمـرـتـهـ ؟ أـوـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـكـوـنـ قـدـ قـضـيـتـ عـمـرـىـ كـلـهـ أـبـحـثـ عـنـ شـادـيـةـ التـىـ كـانـتـ وـالـتـىـ ضـاعـتـ ؟

ـ شـرـبـ كـوـيـاـ كـامـلـاـ مـنـ المـاءـ فـيـ جـرـعـاتـ كـبـيـرـةـ ثـمـ مـلـأـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ وـدـرـاجـ يـقـطـلـعـ إـلـىـ النـهـرـ فـيـ صـمـتـ . كـانـتـ هـنـاكـ بـجـعـةـ وـحـيـدةـ مـؤـرـقـةـ تـنـزـلـ بـبـطـءـ فـوـقـ سـطـحـ النـهـرـ الأـسـوـدـ وـهـيـ تـحـنـيـ رـقـبـتـهاـ الـبـيـضـاءـ الـطـوـلـةـ وـتـدـفـنـ مـنـقـارـهـاـ فـيـ صـدـرـهـ ، رـاحـ إـبـرـاهـيمـ يـتـابـعـهـ حـتـىـ اـخـتـفـتـ ثـمـ قـالـ دـوـنـ أـنـ يـنـظـرـ نـحـوـيـ : أـنـاـ أـحـبـ بـرـيـجـيـتـ .

ـ أـعـرـفـ .

ـ نـعـمـ ، أـظـنـ أـنـكـ تـعـرـفـ وـلـكـ مـالـعـمـلـ ؟

ـ لـاـ دـاعـىـ لـاـنـ أـقـولـ لـكـ يا إـبـرـاهـيمـ مـاـ تـعـرـفـهـ أـنـتـ أـيـضـاـ بـالـفـعـلـ . أـظـنـ أـنـهـاـ صـغـيـرـةـ وـأـنـاـ أـصـبـحـتـاـ عـجـوزـينـ ..

ـ وـلـمـاـذـأـصـبـحـتـاـ عـجـوزـينـ ؟

ـ وـالـفـتـ نـحـوـيـ مـكـمـلـاـ فـيـماـ يـشـبـهـ الغـضـبـ : مـاـذـأـ يـمـرـ الزـمـنـ دـوـنـ أـنـ يـتـرـكـ

في النفس علامة؟ .. دون أن يقول هنا تتوقف عن الحب ، وهنا تترك الأمل ، وهنا تكف عن التفكير؟

قلت وأناأشعر أن توتره يعيديني : ربما تأتى العلامات ولكننا نتجاهلها ..  
فقال وهو يلوح بسبابته أمام وجهي بالتفى : أبدا ، أبدا .. أنا لا أجد في  
داخلى هذه العلامات . أنا ما زلت الطفل الذى يعذبه شقاء أمه . ما زلت أعيش  
نفس الفرحة حين قالت شادية إنها تحبني ، ما زلت أراها تستقبل عينيها وهى  
تقولها . أسمع الآن لسعة السوط على جسمى فى السجن وأول قبليه فى بيروت  
تدوى فى أذنى . كل ذلك يحدث الآن ، هنا على شاطئ هذا .. النهر فما معنى أن  
تحدثنى عن الزمن؟ أقصد .. هل تتبعنى؟ .. أفهم الموت ، ولكن ما معنى الزمن؟  
.. ما معنى أن أقول لك إننى أحبها فتحدثنى عن الزمن؟ أية علاقة؟

سكت وكانت أنفاسه تتلاحم بسرعة كأنه سيخنق .

قلت بعد لحظة : اسمع .. هل قالت هي إنها تحبك؟ .. سمعتها تغازلتك تلك  
الليلة حين التقينا عند مولر فهل قالت لك بعدها إنها تحبك؟  
هز رأسه لليمين واليسار فى بطاء ولكن بصورة قاطعة .

قلت : إذن على أى شيء تلومها؟

أخذ يحك جببته بيده ثم قال : هل قلت أنا إننى ألومها؟ كل ما قلته إننى  
أحبها .

وسكط مرة أخرى قبل أن يقول : أنا عائد الآن من عندها .

تقلص شيء فى داخلى حين قال ذلك لكنى لم أنطق .

ثم بدأ يتكلم بصوت خافت ، محайд ، كأنه يحكى عن شيء حدث لشخص  
آخر ينطلع إلى النهر عبر زجاج النافذة ، ويقطل على وجهى أحيانا ولكنى أكاد  
أجزم أنه لا يرانى .

قال : من البدء .. ربما فى اليوم التالى لمقابلتنا عند مولر حدثتها عن  
حبي .. لم أكن أستطيع أن أقاوم ، لأنى لم أكن أفكر فى أحد أو فى شيء آخر منذ

الصرفت هي في تلك الليلة معك . حتى كلمة الحب لا تنفع في وصف ذلك الشيء الذي حدث لي . ما هو ذلك الشيء ؟

كرب سنتين عمرى كله وتلخصت الحياة كلها في شيء واحد . إنني أريد هذه الجميلة لي ، أريدها هنا وأريدها الآن . سيمصلح ذلك كل شيء ، كل الأخطاء وكل خيبات الأمل . سيرد العدل للدنيا ، كنت أمثل حين أتناقش معك أو مع غيرك . كنت أكذب . حتى عندما قلت لها إنني خجل لأنني أحدثها عن حبى وهى في هذا الشباب وأنا في هذه السن لم أكن صادقا . كنت أشعر أنها من حقى . إنه لا يوجد في الدنيا شيء طبيعي أكثر من أن تكون لي . وأعفتنى هي من الكذب حين قالت لماذا أنا ؟ فتىات كثيرات يتمنين أن تفازلن فلماذا أنا ؟ أنا لا أصلح لك . لم ترد أن تقول أنت لا تصلح لي .

وابتسم إبراهيم في حزن وهو يفرد يديه أمامي : لم تكن الحكاية هي السن ولا الشباب ولا أي شيء آخر ، يخجلنى أن أقول لك هذا ولكن كانت لي علاقات بفتيات أصغر منها ، وكانت مشكلتى هي أن أتخلص منها ، لا أن أطاردهن . كل ما في الأمر أنها لم تحبني . كانت تستمع إلى في أدب ولكنها بعيدة وعصية . ظلت دائماً بعيدة وعصية . غير أنها في هذه الليلة كانت غريبة . تشرب كثيراً وتضحك . تقول أحتفل بعطلي غداً . وكانت أكثر قسوة من العتاد على الدكتور مولر . هل لاحظت مثلى أنها توجه له دائماً تأنيباً خفياً ، وأن نظراته تجعها محملة بالذنب ؟ هل طاردها مثلى بحبه ؟ .. ولم لا ؟ لن ألمه ، أى فرق إن زلـد هو عنـي عـشـرين سـنة أـخـرى أو ثـلـاثـين ؟ .. كانت تقول له يا عـمى مـولـر وكـانـها تـهـيـنـه .. تـخـرـجـ كـلـمة عـمـى مـنـ فـمـها كـمـا لـوـ كـانـتـ سـبـبـ . تـضـحـكـ دونـ سـبـبـ وـتـرـبـتـ علىـ يـدـهـ . ظـلـ صـبـورـاـ . قـالـ لـهـ لـاـ تـشـرـبـيـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ يـاـ بـرـيـجـيـتـ . لـكـنـهاـ قـالـتـ لـهـ مـاـ رـأـيـكـ أـنـ نـخـتـمـ القـائـمـةـ يـاـ دـكـتـورـ فـيـ النـهـاـيـهـ ؟ـ مـاـ رـأـيـكـ أـنـ نـتـوـقـفـ بـعـدـ بـيـدـرـوـ ؟ـ .. فـلـمـ أـقـهـمـ مـاـ تـقـمـدـهـ ..ـ أـمـاـ هـوـ فـقـدـ أـحـمـرـ وـجـهـ فـجـأـةـ وـانـفـجـرـ فـيـهاـ بـعـاصـفـةـ طـوـيـلـةـ بـالـلـفـةـ الـأـلـلـانـيـةـ وـكـانـتـ تـقـاطـعـهـ وـتـرـدـ عـلـيـهـ وـلـكـنـ فـيـ بـرـودـ شـدـيدـ وـعـنـدـمـاـ اـنـتـهـيـاـ نـظـرـتـ نـحـوـيـ وـقـالـتـ لـاـ تـهـمـ ،ـ اـعـتـدـنـاـ أـنـاـ وـالـدـكـتـورـ مـوـلـرـ عـلـىـ هـذـهـ مـنـاقـشـاتـ مـثـلـاـ اـعـتـدـتـ أـنـتـ عـلـيـهـ مـعـ صـدـيقـكـ ،ـ لـكـنـاـ صـدـيقـانـ أـيـضاـ ،ـ دـكـتـورـ مـوـلـرـ وـأـنـاـ .ـ أـلـيـسـ

كذلك ؟ لم يبد أنه سمعها كان يجلس في مقعده مطاطي الرأس وهو يستند بذراعيه على جانبي المهد ، ثم قامت هي . كانت تترنح تقريبا .. قالت لي أما أنت فلن تسمع شهامتك لأن تركني هكذا .. ستوصلي حتى البيت أليس كذلك ؟ سكت ابراهيم لحظة واعتمد ذقنه بيده . وانتظرت أن يستأنف الحديث ، لكنه غاب تماما في شروده .

ولم أستطع أن أسيطر على لهفتي وأنا أسأله: ثم ماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

انتبه إلى مجفلا وقال : لم يحدث شيء .

- كيف ؟

همس وهو يكز على أسنانه كأنه يمنع نفسه من الصراخ : قلت لك لم يحدث شيء ! لا تسألني كيف . كانت تمسك بيدي ونحن في التاكسي . تقبض عليها تشنج ، ألم يكن هذا ما حلمت به ؟ بمجرد أن دخلنا شقتها أخذتها إلى صدري . قبلت وجهها وقبلت كل شبر وكل أنملة فيها وكانت هي تلهث مغمضة العينين وتحاول التخلص من ثيابها وهى بين ذراعى وتقول بهمس متوتر : نعم ، نعم ، قبلنى هكذا ، هكذا ، هيا ..

ثم خبط ابراهيم المنضدة بيده خبطة صغيرة وقال : فما الذي حدث ، قل لي أنت ؟ ألم يكن هذا هو ماتمنيت ؟ أم ربما لم يكن هو هذا ماتمنيت ؟ كانت تنتفخ بين يدي . كانت تصيح في غضب وهى تسألنى ماذا حدث لكنى كنت أقف أمامها مشلولا يكاد يقتلنى الخجل واليأس وهى تضربني بقبضتها فى كتفى وتسائى فى غضب : إذن لماذا ؟ لماذا ظللت ودائى كل هذا الوقت ؟

قلت مخافتا ويلهجة مواسية : فى مثل سنتنا تحدث مثل هذه الأمور .

فضحك بعصبية وقال : ولكنك لم تفهم . ما حدث لم يكن هو العجز ، أقصد لم يكن جسدى هو الذى عجز ، بل روحى كان جسدى مستعدا تماما . مستعدا أكثر من أى وقت بقدر لهفى إليها .. ولكن رعبا آخر كان يشلنى كأنى

لو لستها فسنتموت لتونا معا .

انتظر لحظة ربما لم أفهم . تقول إنك كنت تريدها وإنك لم تكن عاجزا  
جسديا ولكنك توقفت ؟ لماذا ؟ .. لا أفهم .

ـ ولا أنا فهمت ، ولا هي فهمت . اعتدت أنى أسرخ منها ، أنى أتلعب  
بها فراحت تقذفني بالكتب وبالأشياء ، التى تطولها يدها ، وهى تسبنى قالت إنى  
مجنون وجبان وأشياء أخرى ، ولكنها فجأة توقفت وراحت تتطلع نحوى بدھشة .  
رأت دموعا غزيرة تنزل من عينى ورأت شيئا فى وجهى جعلها تتوقف عن سبابها  
وعن ثورتها وتقدم منى ثم تحبظ رقبتى بذراعيها العاريتين وتدفن وجهى فى  
صدرها وتقول : لا تهتم . سامحنى أرجوك أن تسامحنى . ربما هي غلطتى أنا  
.. لا أفهم ما يحدث ولكن ربما هي غلطتى . بدأت تهدىدى على صدرها وتحدىنى  
برقة كما لو كانت تحدث طفلا . بل لطها كانت هي أيضا تبكي . فقتلتني تلك  
الشفقة أكثر من صراخها الأول . وجريت . هربت . صدقنى كنت أجرى فى  
الشوارع مثل شخص مطارد . لم يسبق أبدا أن حدث لى شيء كهذا من قبل ،  
فلمادا يحدث لي مع تلك التى لم أرغب امرأة كما رغبتها ؟ .. هل تعرف أنت ؟

هززت رأسى بالنفى ولزمت الصمت .

فابتسم ابراهيم ابتسامته الحزينة وهو يحول وجهه بعيدا عنى وهمس .  
ولكنى قلت لك من قبل : هي شادية ترجع لي فى آخر العمر : ترجع هذه المرة  
كعقارب .

وتحولت ابتسامته الى ضحكة خافتة وهو يمسك يدي الموضوعة على المائدة  
بكى يديه وينظر فى وجهى طويلا قبل أن يقول : كان الله فى عونك أنت ؟  
فهتفت : ماذا تقصد ؟

## الفصل السادس

### طبول لوركا لدم الشاعر

لماذا إذن كنت حريصا على ألا يمر يوم دون أن ألقاها ؟ .. لماذا كنت أذهب إلى (مقهانا ) قبل موعد حضورها بكثير مسمرا عيني على باب المدخل .. يقفز قلبي بمجرد أن أراها وهى تخطو بزىها الأزرق .. تمشى كعادتها على أطراف قدميها وابتسامتها تغمر وجهها كله وتغمر الدنيا من حولها ؟ لماذا كنت أخفى خجلى وحيرتى بالأحاديث الطويلة عن بلاد زرتها وعن أناس قابلتهم وعن أى شيء آخر غير أن أتكلم عن نفسي وعنها هي ؟ .. ولماذا كنت أخاف نظرتها المستقيمة وهى تفتش فى وجهى خلف كل الكلمات الفارغة عن الحقيقة ؟ .. ولماذا شجعت صورة منار وأصبح وجه بريجيت هو الذى يلزمنى فى ليالى الأرق ؟ .

ورغم ذلك فلم يكن الحب المكبوت الذى حمسه إبراهيم هو كل شيء . أردت أيضا - أنا المكشف الجراح - أن أحيمها وكأنى أكفر عن ذنب ما غير أنى لا أعرف ما هو . و كنت أدرك عجزى . أعرف أنى لا أستطيع أن أصحح ما فات ولا أن أشفى تلك التدوب التى تخفىها بسمتها الدائمة ولا أن أجعلها تبكي . وعلها هى أيضا شعرت أن هناك شيئا آخر يربطنى بها - غير الاشتاء والحب - جعلها تحكى لي بكل تلك البساطة منذ الليلة الأولى فى شقتها فرأيتها وعرفتها .. رأيت بريجيت الطفلة تدق بقبضتها الصغيرتين صدر مولر .. ورأيتها فى المدرسة ، لم يتشكل جسدها الجميل بعد ، طولية بالنسبة لسنها لكنها أميل إلى البدانة .. تلبس تلك النظارة الطبية السميكة ، قبل أن تظهر العدسات اللاصقة .. تخجل من مظهرها وتجد أنفها أطول مما ينبغى .. تنزوى فى غير ساعات الدرس فى أركان

بعيدة في المدرسة وبيدها كتاب تقرؤه .. أحببت الكتاب الذين أحببهم أبوها .. همنجواي ولوكا وجوت .. تتجنب الأولاد بالذات .. وقتها لم تكن تحب الرجال تقول لي وهي تضحك ، هذا قبل أن أكتشف أنني لا أستطيع الاستفقاء عنهم .. ومرة ، إذ جلس في الحديقة منكبة على كتابها يأتي واحد من التلاميذ ويلقي رسالة في حجرها .. ولم تصدق نفسها ، كان هو بالذات يوهان ذلك الوسيم الذي طارده نصف فتيات المدرسة وإن لم تفز به إحداهن .. هل كان هو أيضا خجولاً مثلها ؟ .. هل كان ما اجتنبه هو ابتعادها ووحدتها ؟ .. تقول بريجيت : كان كلانا يحتاج إلى الآخر لكي يكتشف نفسه وجسده .. وحين اشتبتت أيدينا معاً استطعنا أن نخرج للعالم الواسع من ثقب الغوف الضيق .. ثم حين نضجنا افترقنا .. مازلنا صديقين حميمين .. عرفت بعده آخرين .. كانوا لطافاً ولكن أحدهم لم يترك علامه .. وفي الجامعة كان هناك الأجانب أيضاً .. وكانت البنات أيامها يتهمسن عن الأفريقيين .. لم يكن معنا في الجامعة غير ستة منهم أو سبعة ولكنهم كانوا محبوبين جداً من البنات ومكرهين جداً من الطلبة .. أو هكذا ، ظننت ، أقصد ظننت أنهم محبوبون من البنات .. لم أكتشف حين عرفت البرت أن المسألة بالنسبة لهن لم تكن تزيد على الفضول لمعرفة الشيء الغريب .. لذلك الرقص الجنوبي بالساعات في النادي .. لتلك الفرحة الأفريقية التي لا تنتهي والجسد يرقص .. وأهم من ذلك الفضول للتحقق من متعة ذلك الجنس الأفريقي الذي يحكى عنه الجميع ، ثم بعد التجربة يرجع كل شيء إلى أصله .. ترجع البنت إلى صديقها النمساوي ويرجع الأفريقي إلى مكانه في الغابة.

وكان البرت يختلف .. لم يكن هو أقدرهم على الرقص ، بل على العكس كان أكثرهم اهتماماً بالدراسة ، وكان لديه همه الخاص ، فهو لا يعرف متى سيعود إلى بلده ..

كان هاريا من النظام في بلده ومطارداً منه . لا يعرف كيف سينتهى كابوس ذلك الحكم الجاثم هناك .. حدثني من أول لقاءاتنا عن ذلك الطاغية الذي كان يحكم أيامها ، والذى خرب البلد . قال لي إن بلده قبل أن يحكمها (ماسياس) المجنون كان واحة سعيدة في ذلك الركن من أفريقيا : لكل إنسان عمله الذى يكتبه

وبيت الذى يأنبه .. الكل يعرف على الأقل القراءة والكتابة .. والذين يريدين أن يكلوا تعليمهم يذهبون إلى الجامعات فى الخارج .. يذهبون إلى أسبانيا فى الغالب التى كانت تستعمر البلد والتى خلفت لفتها هناك .. سكان البلد ولا يتجاوز عددهم مئات الآلوف لا يكفون لاستغلال كل خيراته فىستورىون العمال من بلد مجارة .. من نيكاراجوا ومن الكاميرون ليساعدوا فى زراعة البن والكافا وليستخرجوا الذهب والنحاس .. ولا جاء الجنون فهؤلاء الأجانب بجلودهم ، و Herb أيضا من استطاع من أبناء البلد.. أما الآلاف الذين وضعهم فى السجون فقليل منهم من نجا من القتل .. وفي بلدنا ، فى التمسا ، كان هناك مصنع للشيكولاتة يستورد الكاكاو من هناك .. هذا قبل أن تكف غينيا حتى عن تصدير الكاكاو - وتجتمع فى بلدنا قليل من المعارضين يطبعون المنشورات ويراسلون صحف أوروبا .. وكانت أخاف على ألبرت .. ظللت طوال حياتنا معاً أخاف عليه بعد أن اخفى اثنان من زملائه ولم نعثر لهما على أثر ..

وهكذا فإنى لم أعرف، ألبرت فى المرقص ولكنى عرفته فى المكتبة .. كان يعد رسالة عن لوركا .. فى البدء كان يحتاج إلى مساعدتى لكي يكتب بالألمانية السليمة الأفكار التى فى رأسه ، وكانت أحتاج إليه ليساعدنى فى اللغة الأسبانية .. كنا نخرج من المكتبة أحيانا ونتمشى على شاطئ النهر بالساعات .. نتكلم لغة غريبة اخترعناها معا .. بعضها من الألمانية التى لا يجيدها وبعضاً من الإسبانية التى أحاول أن أتعلمها وكلمات أخرى بالإنجليزية أو الفرنسية .. نتحدث عن لوركا وعن شيلار .. عن كتاب افريقيين لم أسمع بهم قط ولكن جعلنى أقرأ لهم وأحبهم .. أشيبى وسيمبىنى وسوينكا وغيرهم .. هؤلاء هم الذين مازلت أذكرهم .. ومعه لم اكتشف قراءات جديدة بل عالما آخر سحرنى .. وحين كنت أقرأ عملاً لا يعجبنى يستبد به الغضب .. يقول إنتى مثل بقية البيض .. انظر للأخرين من فوق وإن حاولت أن أخفي ذلك .. أسأله فى حيرة ولكن كيف يريدى أن أفهم فى هذه القصيدة تلك الطقوس والأساطير الأفريقية التى لا أعرفها؟ .. فيرد وكيف عرفت أنا الأفريقي أساطيركم الأوروبية ، كيف عرفت أوروب وفواست؟ يتعلم الإنسان إن أراد أن يفهم .. ولم يكن سهلاً أن أتعلم ولكن حاولت .. ولم يكن سهلاً أن أقنعه

بحبي ولكنني حاولت .. جاء الحب طبيعياً كالمنشى أو الكلام .. إذ أقىض على يده في الطريق .. إذ أقبله في وجنته كصديق حين اللقاء .. ولكن حين تبادلنا أول قبلة حقيقة على شاطئ النهر سألني إن كنت أنا أيضاً أحب أن أُجرب الأفاريقين .. بالكلاد منعت نفسي لحظتها من أن أصفعه، غير أنني سببته بشتائم المانية نابية أعرف أنه لا يفهمها وتركته واقفاً هناك .. قررت ألا أعود أبداً إلى هذا المغورو .. وحين مرت أيام دون أن يأتي ليصالحني ، حين لم يعد في الحياة شيء غير الشوق إليه ، سعيت أنا إليه في مكانه في المكتبة .. جلست إلى جواره صامتة وأنا أفتح أحد المراجع بيد ترتعش بينما جسدي كله ينادي .. مد نحوي يداً متربدة فقبضت على يده .. تطلع إلى وجهه مذنب وحزين لكنه لم يقل شيئاً .. هكذا كان كبرياً ..

ومع ذلك فلم يكن البرت يبالي حين يسمع داخل الجامعة أو خارجها تلك الكلمات الفليظة عن الأفاريقين والسود .. يقول هؤلاء لا يعنيوني في شيء .. أنت التي أحب وأنت التي تهمني لأنك ستصبحين واحدة منا .. أما الآخرون ، حين أسمع شخصاً يقول شيئاً من عينة هؤلاء الأفاريقين القروء ، أو لماذا يبقى هنا هؤلاء السود فانا أعرف نوعية عقله ولا أضيع وقتي حتى في التفكير فيما قال .. لست مثل الأفاريقين الذين يريدون اعتراف الآخرين بهم .. فليذهب الآخرون إلى الجحيم .. أنا أريد أولاً أن أعترف بنفسي .. همومي أكبر بكثير من معالجة هؤلاء المرضى .. همومي هناك بعيداً ، مع ماسيماس ..

وكلت أوافقه تماماً .. ما أهمية الآخرين وما يقولون مادام هو ، وحده ، كل عالمي ؟ مادمت حتى لا أرى هؤلاء الآخرين وهو معى ؟ ..

ولكن ذلك لم يكن كافياً لعمي مولر .. كان يحتاج أيضاً إلى البرت لكي يواصل حربه الخاصة .. أيامها بدأ مولر حكاية حقوق الإنسان هذه بعد أن تقاعد وأغلق عيادته .. وكان البرت واصدقاؤه يذهبون إليه لكي يساعدتهم في معركتهم ضد ماسيماس .. لا أكاد أغفر لنفسي حتى الآن أتنى أنا التي قدمته إلى مولر .. ألف الدكتور في بلدتنا الصغيرة جمعية لكافحة العنصرية ضم إليها البرت وبقية الأفاريقين وبعض الأجانب من كانوا يدرسون في الجامعة .. وكان مولر يدعوه

أصدقاء النمساويين القلائل ويلقى خطيبا وينظم مظاهرات فى الميادين العامة ضد العنصرية . ويقيم احتفالا بيوم افريقيا . ويعقد ندوة باسم «من أجل عالم واحد» إلخ الخ .. ومن وقتها تغيرت البلدة .. قبلها كانت الأمور تسير ، أما الآن فقد صار الناس إما مع جمعيته وهم على الأكثر عشرة أفراد من أهل البلدة وإما ضد جمعيته وهم بقية الناس .. حتى الذين كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود فى البلد ويظهرون العداء لكل الملونين .. كانت فرصة مثيرة لأن يحدث شيء فى حياة مدینتنا الصغيرة الراكرة .. لأن يكون هناك موضوع كبير يهتم به الناس .. موضوع يذكرهم ب أيام الحمى الازية وألمانيا فوق الجميع وهذه الأشياء ..

وفي تلك الأيام بالذات صار يلح على أنا وألبرت لكي نتزوج .. كنا نعيش معاً منذ مدة وكانت سعيدين .. لكم كنا سعيدين ! .. نقضى الليل معاً وإنقاص كل منا يسيره الآخر .. نقرأ في وقت واحد .. نذاكر .. نتكلّم .. نرقص .. نمارس الحب.. كل شيء في وقته .. نداء خفي من العقل ومن الجسم ومن الكيان كله يستجيب له الآخر .. لأن ذلك النداء كان يأتيانا معاً في اللحظة نفسها .. وكنا متفقين ، لا .. لا أكذب .. لم يكن هناك اتفاق ولكننا كنا متفاهمين على أننا سنذهب معاً إلى بلده بعد أن يسقط ماسيسا ، وهناك نتزوج ثم أعطيه وقبيلته عشرة أبناء كلهم ذكور ، غير مسموح بالبنات .. يقول لي أبناء يشبهونك فاقول بل في مثل جمالك .. يظن أنني أسرخ منه ويغضب فاقبله وأنا أقول صادقة ولكنني لم أعرف مثل جمالك ! .. لم أعرف أجمل من التماع هاتين العينين حين تغور قان بالحب وحين تشتعلن بالغضب .. لم أعرف فما مكتملاً كالذى تصنعه هاتان الشفتان المكتنزان .. يضحك ألبرت ويسألهني : هذا من شعر رامبو ؟ فاقول ، بل هو أنت ! ..  
فكيف ضاع ذلك كله بعد أن تزوجنا ؟ .. كيف ضاع حين لم نعد هو وأنا وحدنا ، بل هو وأنا ومولر والعالم ؟ .

لم يرد أبى أن نتزوج .. قال لي على طريقته في الكلام ولكن لست عاملة في بار ! .. يمكن أن يمر هذا الزواج لو كنت عاملة في بار .. كأنه كان يرى كل شيء .. نصحتنا أن ننتظر كما كان قرارنا الأول ، ننتظر إلى أن ينتهي ألبرت من الجامعة

ومن مasicاس ثم نرحل بعد ذلك معا. قال لنا ما لم نكن حتى تلك اللحظة نفهمه جيدا . قال إن الناس فى بلادنا يغمضون عيونهم عن العلاقة بينما على أنها نزوة عابرة. حرية محاكمة يسمون بها للشباب على ألا تتجاوز الحد . أما الزواج فهو جريمة . دنس للجنس الأبيض كله لا يففره أحد فى بلادنا . ولم نصدق . مرة أخرى خسر أبي القضية . مرة أخرى كسب مولار وهو يلح على ألبرت : فلنلقنهم درسا ! .. فلتعلم أهل هذه البلدة البليدة أن الدنيا قد تغيرت .. يجب أن يفهموا أخيرا أن العنصرية تحط من أدميتم .. كلام كثير راح مولار يردده على آذان ألبرت مثل ذلك الكلام الذى كان يكتبه فى منشورات جمعية الوهمية حتى أثر عليه فى النهاية . أما أنا فبالنسبة لي لم يكن هناك فرق . قلت لأبى حتى لو قاطعتنى البلدة كلها فإن بلادى هي ألبرت. لا يعنينى أحد غيره .

كنت صادقة ، ولكن أبى كان على حق ..

فبعد الزواج لم يعد يزورنا فى بيتنا حتى هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا من قبل ، ولم نهتم . وفي الجامعة كان الطلاب يسيرون خلفنا. فى مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلاحقوننا فى كل مكان بمنظرات الكراهية ، ولم نهتم . وحين ذهبنا إلى المطعم الذى اعتدنا من قبل أن نأكل فيه وقف الجرسون بالباب وهو يشك بيده على صدره وقال إن كل الموائد محجوزة . ورأينا معظم الموائد خالية ، ولكننا لم نهتم . بل ضحكتنا . رحنا نذر شوارع البلدة وهو يحيط كتفى بذراعه. نرد على صغير من يهزاونا بنا بالصغير مثلهم ونحن نتفى بصوت عال، وحين يقام من يجلسون بجوارنا فى الأتبوبس أو السينما وهم ينظرون نحونا فى استنكار وحقد . كنت أرمى معطفى على مقعد وحقيبتي على مقعد آخر وأنا أنتهى فى ارتياح . لم نهتم .

ولكن هل حقيقة لم نهتم ؟ .. أم أنا وحدى التى لم أكن أهتم ؟ .. لملاحظ فى الوقت المناسب أن ألبرت أصبح يكره الخروج فى الليل . لملاحظ أنه أصبح يقضى أياما فى غرفتنا الصغيرة دون أن يذهب إلى الجامعة . لملاحظ أنه بدأ يشرب أكثر من المعتاد .. فهمت معنى ذلك فيما بعد ، ولكنى أيامها كنت مشغولة بشئ أهم .. فعندما بدأ ألبرت يتغير كنت أنا أيضا أتغير ، كان فرح جديد

يغمرني .. أقصد أنه حين بدأ يستقبل أصدقاءه الأفريقيين وحدهم وببقى معهم في ركن من الغرفة ، وهم يشربون ويتكلمون لهجة لا أفهمها ، كنت مشغولة عنه . كان طفلي الذي بدأ يتخالل جسمى يصرفي عن سواه . يصرفي حتى عن المذاكرة لامتحان آخر السنة الذى اقترب ، فلم أفهم إلا فيما بعد معنى تلك النظرة الفاترة فى عينيه وتلك الضحكات العصبية .. كنت مستغرقة تماما فى فرحي الخاص ..

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يستمر كل شيء ، أن نسترد نفسينا بعد قليل ، أن انتبه أنا وأفهم ما الذى يحدث لأنبرت ، أو أن يرجع هو إلى ازدراه القديم لذلك الغباء وألا يبالي به . كان كل شيء ممكنا حتى ليلة السبت تلك ، حين خرجنا معا ، مثلاً كنا نفعل فى القيم ، نتمشى على شاطئ النهر ..

كانت ليلة سلام . لم يزره أحد من أصدقائه ولم يشرب هو . ورجعنا كما كنا فى البداية نتحدث عن الشعر وعن لوركا . واستجاب هو لرجالى فراح يقرأ بصوت عال تلك السطورة العذبة من رثاء أجناشيو مانشيز . لم أعرف فى حياتى أحداً مثل أنبرت يقرأ الشعر . ولم يهزمى شيء حتى الآن مثل طريقة وهو يردد رثاء لوركا الموجع لصديقه مصارع الثيران . لم يكن صوته يتهدج أو يتغير . كانت الأصوات تخرج عادية من حنجرة أنبرت القوية وكأنه يواصل الحديث الذى كان يتبادله معى قبل أن يقرأ الشعر . وبالتدريج تتحول تلك الأصوات الها鸣سة ، تلك الأصوات الحزينة ، إلى أغنية أفريقية شجية . أصوات المد فيها طولية ممطولة مثل آهات عميقة متصلة ، كأن الشفتين لا تتنطبقان أبدا ، لكي تظل تلك اللوعة تتدفق باستمرار من ذلك الصدر الواسع ومن شلال تلك الحنجرة الهادر .. وشيناً فشيناً تختفى أشجار السرو المنسقة على شاطئ النهر النسالى وتتلاشى البيوت الحجرية الصلدة التى تصطف على جانبيه لكي تتشكل غابة بكر ، غابة حارة تحظى أكواخاً متتاءة تحت قمر فضى كبير .. فجأة يخلع لوركا قبعته وثيابه الإسبانية لكي يقف عارياً أسود ، لكي يقرع الطبل هناك فى تلك الغابة وهو يمط أيضاً آهاته الملتاعة على أجناشيو .. فيها هي الحمامات تصارع فهدا ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وجذع الرجل مع قرن وحيد ، فى الساعة الخامسة عصرا ..

والثغر وحده يغنى زهوا ، في الساعة الخامسة عصرا .. والموت يلقي بيضه في الجروح ، في الساعة الخامسة عصرا .. وتابوت على عجلات هو سريره ، في الساعة الخامسة عصرا .. والجروح تلتهب كشموس ، في الساعة الخامسة عصرا .. وكل الساعات تشير إلى الخامسة عصرا .. والظل هو ظل الساعة الخامسة عصرا ..

الخامسة عصرا ...

الخامسة عصرا ...

وأنا في قلب الغابة ، مع الطبل ، مع لوركا مع إجناثيو ، مع ألبرت ، وقد توقف العالم في الخامسة عصرا .. كان ألبرت يضع يده على كتفي ، يحملني إنشاده إلى ذلك القرع الحزين البعيد ، وقد غبنا معاً في تلك النشوة لأننا بعد لحظة واحدة - لحظة لا أكثر ! - سنكتشف ذلك السر العصري ، وسنعرف لماذا أصبح حزنه على إجناثيو هو كل الحزن في العالم ولماذا تتولد من حزن هذه الكلمات تلك الموسيقى التي تعلو بقلوبنا فوق الأرض وفوق الزمن .

لكن تلك اللحظة لم تأت أبدا !!

لم نكن قد اتبهنا إلى الضجة التي تأتي من خلفنا ، بل ولم نفهمها في أول الأمر . ألبرت هو الذي كف عن الإنشاد حين أصبحت تلك الضجة خلفنا مباشرة على شاطئ النهر المهجور ...

كانت سبعة أو ثمانية من الشبان ، مخمورين تماما ، خرجوا لتوهم من أحد (البارات) التي تتأخر ليلة السبت ، واستطاعت أن أميز بينهم وجهين لطالبين معنا في الجامعة . أما الباقيون فلم أعرفهم . كانوا يغفون إحدى الأغانيات التي كانت شائعة في تلك الأيام ويحوروون كلماتها لكي يقولوا : هي أكثر من امرأة .. أكثر من امرأة .. هي كثرة من العاهرات في وقت واحد .. ثم يضحكون ويكترون ذلك بصوت يزداد ارتفاعا في كل مرة .. وشعرت بجسد ألبرت وقد تصلب كله ، فضفت على نزاعه وأنا أهمس ، هيا بنا ، هم مخمورون ، فلنسرع من هنا .. وكنت أجذبه بعيداً لكنهم تقدموا منا وصنعوا دائرة واسعة حولنا لكي لا نهرب

وداحوا يرقصون مباعدين بين سيقانهم .. يرفعون أرجلهم عن الأرض إلى أقصى ما تستطيع أجسادهم المخمرة ، مقلدين ما رأوه في الأفلام عن الهنود الحمر أو عن الأفريقيين في الغابات .. وحاول البرت أن يصرفهم فصق وقال برافو .. غدا نكل هذا الفيلم يا طرزان .. وأزاح واحدا منهم لكي نخرج من الدائرة لكنهم لم يتحركوا .. بل تقدم أحدهم منا وهو يتزوج ، ثم فك بنطلونه وأنزله عن وسطه وقال وهو يتحسس سرواله : أنظرني ! .. هل الأفريقي أفضل من هذا ؟ .. لماذا تذهبين بعيدا ؟ .. بضاعة النمسا أفضل ! .. دعنا نقارن ياكنج كونج .. ومد يده إلى بنطلون البرت يحاول أن يفكه وقد سقط بنطلونه هو عند قدميه .. ولم يكن في سكره يحتاج إلى أكثر من دفعة واحدة من البرت لكي يسقط في الأرض متغمرا في ثيابه المحلولة .. ولم يكونوا هم أيضا بحاجة إلى أكثر من ذلك لكي يهجموا على البرت بقضائهم وركلاتهم وسبابهم البذئ .. واستطاع البرت أن ينزع حزامه من وسطه وراح يدور حول نفسه ملوحا بالحزام لكي يبعدهم عنه وهو يصرخ بي .. اهربى أنت - اطلبى الشرطة .. أو اطلبى النجدة ..

ولكن في لحظتها بالذات وأنا أحاول أن أخرج من الدائرة التي تفككت حلقتها قليلا دفعني أحدهم في ظهرى دفعة قوية فسقطت على الأرض وأنا أصرخ :

البرت .. البرت .. قتلوا طفلى !

ولما سمعوا ذلك .. ولما رأونى ممددة هناك أتلوى ويدى بين فخمى ، صمتوا لحظة ثم لأنوا جميا بالهرب ..

ولكنى كنت بالفعل قد فقدت طفلى ..

لم أفقد طفلى وحده ولكنى فقدت البرت ...

لم أفقد البرت وحده ولكنى فقدت نفسي ..

كانت تلك هي ساعتى الخامسة عصرا ..

بعد الأيام الأولى في المستشفى ، وبعد تحقيقات الشرطة رجعت إلى البيت .. كان مولر مشغولا بتنظيم مظاهرة وتجهيز لافتات كتب عليها « القتلة » .. ورسم أيادي ن قطر بالدماء وأشياء من هذا النوع .. وصممت أنا ألا أخرج في هذه

المظاهره ، ولكنه أخذ معه ألبرت . قال لي ألبرت إنها كانت أكبر من كل مظاهرات مولر السابقة وإن الناس كانوا يتبعونها على الأرصافه صامتين . ولم يرحنى هذا أبدا ، بل شعرت بالغضب . كأنما كان لابد أن أفقد طفلى لكي يشعر هؤلاء بالذنب . وصرخت فى ألبرت : كفى ! .. قل لمولر أن يكف عن هذا العبث . قل له أن يخرس ! .. قل له أن يموت ! ..

وكانت تلك من المرات القليلة التي قلت فيها أى شيء ، أيامها كنت معظم الوقت فى الفراش . أرقى صامته مفتوحة العينين وألبرت هناك على مقعده فى الركن ، يشرب ويتظاهر أنه يقرأ . أحيانا كان النهار ببطوله يمر دون أن تتبادل كلمة ودون أن تأكل ودون أن تذكر حتى أنت لم تأكل . واعتاد أبي وقتها أن يأتي كل يوم تقريبا . يحمل لنا الطعام وينظر بنفسه القدرة التى تراكم فى غرفتنا . يغسل الأطباق والأكواب ويصرخ فىنا - لماذا ترك الغرفة دون تهوية ؟ .. وكنا نترکه يفعل ما يشاء ، مع عبارات اعتذار وغمفمات : لا داعى لذلك . لا تتعب نفسك . كنا على وشك أن ننظف البيت ، إلخ .. إلخ . ولم يكن يبالي بما يقول . هو وحده الذى ظل واقفا على قدميه ، هو ، أبي الذى كان قد قرر أيامها أن يتყاعد ، رجع من جديد شابا غاضبا ومحاربا . صمم أن يجد هؤلاء الشباب وأن يأخذهم للمحكمة . اشتغل مخبرا ومحقا ومحاميا . ولما طلب مني ذات يوم أن أذهب معه لكي أتعرف فى الجامعة على واحد من هؤلاء الشباب كنت قد أعطيت أوصافه وظن أنه توصل إليه . قلت إننى لن أخرج من البيت وطلبت منه أن يهدأ . قلت له أن يترك هذا العمل للشرطة وسألته إن كان هذا سيعيد طفلى . فصفعنى أبي على وجهى وحملنى من الفراش وأرغمى على أن ألبس ثيابى ودفعنى دفعا ليخرجنى من البيت . صمم هذه المرة أن يكسب القضية ولأول مرة كسبها بالفعل . استطاع أن يعثر عليهم وأن يقدمهم جميعا للمحكمة ، كانت مرافعته قوية وحجته دامغة فوضعوا ثلاثة منهم فى السجن . وهكذا انتهى الأمر وارتاح ضمير كل إنسان . صمم أبي أيضا فى هذه الأيام أن نرجع إلى الدراسة وأن ندخل الامتحان . كان يأتى بنفسه فى الليل بعد أن ينتهى من العمل فى مكتبه لكي يتذاكر من أنتنا نفتح الكتب على الأقل وأنتا نقرأ . ولا أدرى كيف نجحت أنا فى الامتحانات ولكن ألبرت رسب .

وشعرت بالخجل من نفسي تقريبا لأنى نجحت شعرت بالخجل لأنه كان لدى أبي الذى يقف إلى جانبي بينما كان البرت وحيدا دون أسرة ودون أقارب فى هذه المدينة التى تكرهه . و كنت قد بدأت أسترد نفسي . غلط . لم أسترد نفسي أبدا . مع تلك الدماء التى خرجت من بين فخذى فى ليلة السبت تلك خرج شيء لم يعد أبدا . ظهرت بريجيت أخرى . لا أعرف بالضبط ما الذى ضاع ، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزننى . لم أعد أطلب من البرت أن يقرأ لي كما كنت أفعل دائما ولم يكن هو وقتها يقرأ شعرا أو غيره فقط يجلس فى البيت ويشرب . وحاولت كل ما كنت أستطيعه . ذهبت إلى أصدقائه الأفريقيين وطالبتهم أن يزوروه كثيرا وأن يشجعوه على الخروج من البيت ، أن يطلبوا منه كتابة المقالات ضد ماسيساس كما اعتاد أن يفعل من قبل ذهبت إلى مولر ورجوته أن يسترد رجه مرة أخرى إلى جمعيته الأفريقية وإلى حقوق الإنسان فربما يرجع البرت إلى طبيعته . وكان مولر يأتى بالفعل ويتكلم مع البرت الذى يظل صامتا أو يضحك بلا معنى أو يناقش مولر بجدية مزيفة ، ولكنه ذات مرة قال فيما يشبه الهمس : اسمع .. إن كنت لم أستطيع أن أحمى طفلى فكيف تريدينى أن أدافع عن الغريب ؟ فقال مولر ستحمىأطفال الآخرين وستحمى طفلك الم قبل . لن نغير العالم فى ليلة واحدة ولكن يجب أن نعمل .. إن كانوا قد أهانوك فلماذا تستسلم ؟ ويبطل مولر كلما جاء يكرر هذه الخطب الرنانة فيقوم البرت ويخرج معه وأشار أنه يصحبه لمجرد أن يسكته عن الكلام . أما ذلك الطفل الآخر الذى تحدث عنه مولر فلم يأت أبدا ، ولعلنا كنا ، علانا ، نحرض على ألا يأتى .

ثم تشتبث البرت بعناده فلم يعد يذهب إلى مولر أو إلى أى مكان . ولم يعد الأصدقاء الأفريقيون يظهرون أيضا . قلت لنفسى لعلهم سئموا منه ، فكل ما كان يفعله الآن هو أن يشرب حتى يسكر ، و كنت أناأشتغل فى الصيف لكي نعيش ولકى أوفر مصاريف الدراسة للعام الجديد .. أما البرت فلم يكن يفعل . كان يعيش ويسدد مصاريف دراسته من مبلغ شهري ترسله له أسرته التى فرت إلى إسبانيا بعد حكم ماسيساس واستطاعت أن تهرب معها بعض اموالها . وعندما عرفته كان حريصا على ألا يتتجاوز ما تصرفه معا هذا المبلغ . لم يقبل أن أنفق

شيئاً في البيت أو أن أطلب مساعدة من أبي . أما الآن فالكلاد أصبح هذا المبلغ يكفيه أسبوعاً لشرب الليل والنهار ولم يعد يخجل أن يطلب مني نقوداً ، وحين كنت أرفض إعطاءه شيئاً لعله يكف عن الشرب ويستجمع نفسه ، كان يبكي ويتوسل ويعذرني أن هذه هي المرة الأخيرة وأنه منذ الغد سيبحث هو أيضاً عن عمل . ولكن هذا لم يحدث أبداً . على العكس بدأتلاحظ نقوداً تختفي من حقيبة يدي وحين أسؤاله عن النقود التي كانت في الحقيقة يظل ينكر ويقسم ويتظاهر بالغضب .

ومرة حين عدت من العمل في المساء سمعت وأنا على السلم أصواتاً كثيرة حادة في غرفتنا . دخلت مفروعة فوجدت أصدقائه الأفريقيين جمِيعاً هناك . كانوا يحيطون به وهو يجلس على مقعده مغموراً ورأسه يهبط بين كتفيه كعادته في تلك الأيام .. كانوا يشتمونه ولم يبالوا بي عندما دخلت .. بالعكس أمسكه أحدهم من ياقه قميصه ورفعه قليلاً وهو يقول : انطلق ! ثم عاد يرميه مكانه ولكن أليبرت لم ينطق .

هتفت وأنا أحاول الوصول إلى زوجي : ماذا حدث ؟ .. قلوا لي ما الذي حدث ؟

فرد أحدهم وهو ينتفض غضباً : هذا الكلب .. هذا الخائن يكتب إلى ماسياس ! .. حدث أم لم يحدث ؟ ..

تطلعت نحوه مثلاً كانوا يتطلعون جمِيعاً .. كنا ننظر إليه وظل هو صامتاً لفترة وهو ينقل بصره بيننا ثم ثبت نظرته على أنا طويلاً وقال ببطء وهدوء ، بصوت أليبرت الحقيقي القديم : أنا لم أخن أحداً ..

وعاد يجيء بينهم عينيه الواسعتين المحمريتين لينظر إليهم واحداً واحداً وعلى شفتيه ابتسامة غريبة قبل أن ينفجر بالضحك وهو يقول : لأنكم سعداء هنا حقاً .. ردوا على .. لأنكم سعداء هنا لا تريدون العودة إلى هناك ؟ .. وبصق جانباً حين قال ذلك فصفعه أحدهم على وجهه .. وقال آخر وهو يصوب نحو عينين محققتين أيضاً بالغضب : هذه المرأة الأوروبية هي السبب .. ولكنهم جذبوه بعيداً وخرجوا

وهم يغمون لى باعتذارات . غير أنى أنا وحدي كنت أعرف ، كنت متأكدة ، أنه على حق .

نعم ، هذه المرأة الاوروبية هي السبب .

★★★

عشت طويلا مع كلمات بريجيت التي تدفقت في تلك الليلة في غرفتها اليابانية . عندما انتهت هي كان المساء قد انقضى وكان الليل قد تقدم ولكنها ظلت تجلس على الأرض ، في الغرفة المظلمة ، وقد انسدل شعرها يكاد يخفى وجهها وتهدل كتفاها ، وقالت لى دون أن ترفع رأسها :

ـ كيف بدأ كل هذا الكلام على أية حال ؟ .. لماذا وقد رضيت بسنوات من الصمت أشعر الآن وكأنى مرغمة أن أحكيه ؟ .. ومع ذلك فاتنا لم اتختلف من أي حمل ، بل أشعر بكل الوجع القديم يرجع من جديد . فلماذا كان يجب الآن أن أحكي ؟ ..

ثم رفعت رأسها ببطء وقالت : سامحني ، ولكن هل يمكن الآن أن تتركنى وحدي ؟

تركتها ، وتصرفت بعدها بالفعل مثل ذلك الجار العابر في القطار الذي يحكي له الإنسان أسراره . كنت ألقاها في أمسيات عديدة مع إبراهيم وموار قبل أن يسافر كلاهما . فلا أشير من قريب أو بعيد إلى ليلة المصارحة تلك ، ولا تشير هي إليها . أيامها ، كلنا ، مشغولين بـإبراهيم . لم أرها معه يوم سفره . ولكننا في المطار تعانقنا عناقا حارا ، إبراهيم وأنا ، وترقرقت دموع في عيوننا . لم تكن العداوة قد انحنت فحسب ، ولكننا ، بعد أن كشف كل منا للأخر جراحه ، وتعرف على ثبوته ، نما الود العميق بيننا فجأة وكأننا لم نعرف العداء في أى يوم .

ومن المطار ذهبت إلى المقهى مباشرة وهناك وجدتها ، فهل كانت مصادفة أم أنها كانت تعرف عاداتي وكانت تنتظرني هناك ؟ .

لم أسأّلها عن ذلك ، ولكننا صرنا بعد ذلك نلتقي كل يوم في الظهيرة ، لم أتختلف يوما ولا هي تختلف . حتى في أيام العطلات ظللنا نلتقي . لا نخرب موعدا

ولا تنفق على شيء ولكن بعد أن أوصلها إلى مكتبها ، تقول قبل أن تنزل من السيارة إلى اللقاء . ونعلم دون كلام أننا سنكون في المقهى غدا في الموعد نفسه .  
وفي تلك الأيام الأولى كنت أنا الذي أحكي لها . لم أكن أعرف أيضاً لماذا أشعر بالرغبة القاهرة في أن أتكلم عن نفسي وعن همومي .. في لقائنا الأول قالت هي هذا المساء أريد أن أتكلم ، وفي أوقات الظهيرة تلك أيضاً كانت تستبد بي أنها الرغبة في أن أحكي ، في البدء قلت لها حكايتها مع متار ، ما استطعت أن أفهمه من تلك الحكاية على الأقل . ما عجزت عن أن أقوله لإبراهيم أو لأى إنسان ، وما كان يطاردني في الصحو والمنام . حكيتها بالبساطة التي حكت بها هي قصتها ، حكيتها دفعة واحدة ، دون تردد ، ولم أشعر أيضاً أنني تخففت من حمل ، ولكن كان على أن أحكيه .

ولكى أطمئن نفسي أن هذا الذي يحدث بيننا ليس هو الحب كنت أردد في داخلى أشياء كثيرة : إن ما يجمعنا هو حبنا للشعر فى وقت لم يعد فيه للشعر مكان .. إينى فى وحدتى البعيدة اتخاذها بديلًا عن أولادى .. إينى أشفق عليها بسبب ما جرى لها .. إتنا برمغ فارق العمر صديقان جمعتهما الفربة ، فلم لا ؟ .. ولكن شيئاً فلقاً فى داخلى كان يسخر من هذا كله .

وفى اعترافاتنا اليومية لم يعد هناك شيء يخفيه أحدنا عن الآخر . سائلتها مرة عن ألبرت ، فقالت إنها لم تعد تتتابع أخباره بعد الطلاق .. كان هو الذى هجرها وعاد إلى أفریقيا بعد أن قاطعه كل زملائه وبعد أن تكرر رسوبه في الجامعة . قالت لي بلا اكتراث ، سمعت أنه أصبح سفيراً لبلده في مكان ما ، وربما يكون الآن وزيراً . لا أعرف ولا أريد أن أعرف . ثم قالت بطريقة توحى أنها لا تريد متابعة هذا الحديث : العالم أنهى ما بين ألبرت وبيني .

ومع ذلك فقد كان هناك شيء واحد لم تكلمني عنه أبداً ، ولعلها كانت واثقة أنى أعرفه وإن لم أقل شيئاً . لم ألح أبداً من قريب أو بعيد إلى ما جرى بينها وبين إبراهيم ، ولا هي قالت شيئاً .

ثم بالتدريج لم نعد نتكلم في جلساتنا عن أمورنا الشخصية . ولاحظت بعد مدة إينى وحدي الذى أتكلم ، وأنها تجلس في معظم الوقت صامتة ، تنصت

باهتمام ، وكأن كل تلك الحكايات التي لا معنى لها عن أسفارى وعن طفولتى وعن أصدقائى أشياء ينبعى ألا تقوتها منها كلمة . بين الحين والآخر تطلب أن أقرأ لها شعرا باللغة العربية ، وتظل تتنصت وهى تصوب عينيها نحوى . ترفع يديها أمام وجهى إن حاولت أن أترجم لها قصيدة أو مجرد بيت من الشعر . تقول ما الأهمية ؟ .. ألا تفهم أنى كلاما جهلت الألفاظ أخترقنى الشعر ؟ .. وأحيانا كانت تقاجحتنى . فمرة حين فرغت من قصيدة لصلاح عبد الصبور قالت لى ما أشد حزن هذا الإيقاع ! .. مثل إيقاع دموع تنزل متربدة من العين .. وفي مرة أخرى ابتسمت وأنا أقرأ لها من ملقة امرئ القيس وقالت : ها هى قافلة مسالمة تشق الصحراء ببطء وفجأة تنقض عليها خيول الأعداء من كل مكان ، ألا تسمع هذا الصخب ؟

ذلك ما كانت تقول قبل أن نكف حتى عن الشعر . قبل أن يتدفق شلال الثرثرة اليومية وهى تتنصت وأنا أخاف أن أصمت . أظن أيضا أنى كنت أخاف أن تسمىنى فظلت أسليها كطفلة بالحكايات ، ولم أكن أعرف قبلها أنى أستطيع أن أتكلم كل هذا الوقت أو أن عندي مثل هذا الرصيد من الذكريات . وكانت تبدو لي مستمتعة وهى تتنصت . أم تراها كانت تأمل طول الوقت أن أكف عن تلك الثرثرة وأن أصرخ بالحقيقة ؟ وكيف كنت أجزو ؟ .. كيف وعمرها نصف عمرى ؟ .. وكيف بعد كل ما عرفت عن حياتها ؟ .. فيم أزيد أنا على ألبرت ؟ .. ألسست مثله ملونا وأجنبيا وطريدا من بلدى ؟ .. لا مكان لي هنا ولا هناك مثلا لم يكن له مكان . وقبل كل شيء فائين لى شبابه ؟ .. بل فيم أزيد أنا عن مولر ؟ .. ألا أطعن مثنه بالكلمات ؟ .. أحيانا كنت أنتبه . هي التي كانت تتبهنى فى واقع الأمر . فحين كنت أنزلق إلى الحديث عن السياسة أو عما يحدث فى بلدى كانت تقططنى . تمسك رأسها بين يديها وتقول بلهجة اعتذار : فلتتكلم عن شيء آخر أرجوك . تجربة واحدة تكفينى .

لكن كل شيء تغير بعدما حدث فى لبنان .

★ ★ ★

- ١٢١ -

كنت أجلس في المقهى في ذلك الصباح من يونيو ، منكبا على الجرائد التي اشتريتها .. الجرائد العربية والإنجليزية والفرنسية محاولاً أن استخرج شيئاً من بين السطور . أن أنتبه بالتغيير الذي سيحدث أخيراً في لبنان وفي مصر وفي كل مكان من الوطن . كنت منفعلاً ومتهمساً عندما دخلت بريجيت فلم أنتبه إلا وهي تتفق أمامي . حبيتها بسرعة وأنا أجمع الصحف لأخلي المنضدة . ويجرب أن جلست بدأت أحدها عما قرأته وعما سمعته في الإذاعات . قلت لها : إسرائيل فرضت الحرب الشاملة على العرب بحجة غريبة هي أن شخصاً مجهولاً أطلق النار على سفيرها في لندن . ولكن بريجيت ظلت تستمع إلى دون انفعال وأخيراً وبينما كنت متذمراً في رواية التفاصيل قاطعتني بوجه مكفر : كفى ! .. ألم أقل لك من قبل ؟ .. أنا لا أقرأ صحفاً وليس في بيتي راديو ولا تليفزيون . أنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن هذا العالم المجنون الذي لا أفهمه . ألم تكن أنت الذي قلت لي في أول لقاء بيننا إن هذه الحياة كذبة ؟

فقلت لها بغضب وأنا أخطب على الصحف المكومة أمامي : ولكن هذا الدم حقيقي جداً !!

فردت بدهوة : لم نكن نحن الذين أرقنا هذا الدم ، ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفه . فقمت وقد استبد بي الحنق ، وأنا أقول : تلك هي البلاد بعينها ! ... وكانت أول مرة أتشاجر معها . قلت وأنا أجمع صحفي المكومة على المنضدة إنها تجعل من حكايتها الشخصية عذراً لأنانيتها ولكن تعيش دون مبالاة بشيء مثلها مثل الآخرين . قلت لها إنها كان يجب على الأقل أن تقدر ما تعنيه لي تلك الحرب حتى وإن لم تعن شيئاً لها .

وبينما أنصرف عنها أمسكت بيدي وقالت بلهجة ضارعة : ليكن . أنا مثلاً تقول وأسواً منه . ولكن لا تذهب . فلنظل صديقين كما نحن . لا أريد أن أفقدك أنت أيضاً ! ..

غير أنني جذبت يدي منها في عنف وقاطعتها وأنا أعيش تلك الأيام من الحمى . أقطع قصاصات من الصحف بكل اللغات وأشاهد كل النشرات في التليفزيون ،

وأكتب في كل يوم رسالة مطولة إلى صحفتي في القاهرة عن ريد الفعل في أوروبا على تلك المجزرة - أترجم التعليقات الخاصة وأصف المظاهرات التي تنظمها الأحزاب اليسارية وأنتظر . أدير مؤشر الراديو من المغرب إلى القاهرة إلى بغداد وأنا أنتظر في كل لحظة أن يحدث شيء . أقول لنفسي لابد أن شيئاً سيحدث . شيئاً غير تلك الصور التي يجرح بها التليفزيون والصحف عيني كل دقيقة . أنتظر شيئاً آخر يغير ذلك الهوان ...

ولكن لا شيء .

لا شيء غير الدبابات والقناابل تطير وتدرك ، والطائرات تتصف وجنود إسرائيل الأصحاء يتسمون في وجهي على الشاشة وهم يرفعون رشاشاتهم بعلامات النصر وفي المختبرات يجري الأطفال العرايا والأمهات بالشياش البلاستيك وهن يلطمون الوجوه وسط أكواخ انزلقت أسفاقها على جدرانها لتصنع أكواماً مهوشة من التراب والطوب وأسياخ الحديد الملتوية وسط دخان أسود ودخان أبيض . وعصر تعرّب عن الأسف ولجنة الاقتصاد تعقد اجتماعاً لبحث الخطة الخمسية . وصور تسقط وصيادا تسقط ومخيّم عين الحلوة يباد ومخيّم الرشيدية ومخيّم العية مية كلها تسقط وتحترق ، والسعوية تعرّب عن الأسف وتعلن ثبوت رؤية الهلال وتبعث رسائل للملوك والرؤساء . والجزائر تستذكر وتعلن تيسيرات جديدة للمستثمرين الأجانب . والطائرات فوق بيروت - ٢٠٠ قتيل و ٤٠٠ جريح و ٩٠ قتيلاً و ١٨٠ جريحاً .. أرقام تنقلها الأخبار لا غير .. وشارع بأكمله يحترق وتفقد كل عماره واجهاتها بعد ضربه بالقناابل الفراغية وتبدو في الصور بقايا الحياة في الفرف العارية - مناضد مقلوبة ولعب أطفال ملوثة بالدم وصور فوتغرافية وتماثيل صغيرة للعذراء مهشمة على الأرض وسط حرائق وجثث ملقاة على ظهرها وأخرى مكورة على جنبها ، وامرأة عجوز مشلولة في ملأاً تجلس على مقعد وتحاول أن تدفعه للأمام أو للخلف وسط عنبر فقد جدرانه ولكن الأحجار المتناثرة في الأرض تمنعها من الحركة في أي اتجاه فترفع الشال الأبيض عن رأسها وتبكي ..

طاردنى صورة تلك المرأة فى الليل وأنا أصارع النوم وصورة رجل يجرى  
مذعورا فى الشارع وسط نوى المدافع وهو يحمل نراعاً أدمية مبتورة يلفها فى  
صحيفة تقطر دما . لماذا يحمل هذه النراع ؟ يطاردنى جنود إسرائيل وهم  
يسوقون بکعوب البنادق شباباً مغضوبى الأعين وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم .  
ولكنى أقول لنفسى غداً فى الصباح سينتغير كل شيء . لا يمكن أن يستمر هذا .  
إن كانت إسرائيل قد فعلت هذا لأن سفيرا ، فرداً ، قد أصيب ، فلابد أن يركاناً من  
الغضب سينفجر عندنا ونحن نرى ونسمع عن مئات يموتون كل يوم .. لا يمكن أن  
تكون النخوة قد ضاعت إلى الأبد . هي دماء على كل حال تلك التى تجرى فى  
عروقنا وليس جليداً وسينفجر الغضب قبل الصباح !

ولكن فى الصباح وقف إطلاق النار الثانى .. الثالث ... الخامس .. والمبعوث  
الأمريكى يأتي .. المبعوث الأمريكى يذهب .. ووقف إطلاق النار السابع ..  
وعربات إسعاف تجرى فى الشوارع المحترقة وتطلق صفاراتها العالية ..  
وإسرائىل تقطع عن بيروت الماء والكهرباء .. وطفلة حافية القدمين مهوشة الشعر  
تملاً بکوز صحيفة من مياه المجارى ..

وفي غير بيروت لا شيء يحدث ..

وتقول لي الممرضة النرويجية كل ما رأيته فى التليفزيون وكل ما قرأته فى  
الصحف شيء آخر غير الحقيقة .

★ ★ ★

ذات صباح ، ولم أكن قد نمت جيداً مثلاً كان حالى منذ بدأ الحرب ،  
اتصل بي برinar وقال : تعال فوراً . هناك شيء مهم عن لبنان يجب أن تسمعه ..  
وذهبت إلى مقهاه . كان ينتظرنى ومعه سيدة شقراء تميل إلى البدانة ، فى  
حوالى الأربعين من العمر ، قدمها إلى قائلها : ها هي ماريان إريكسون . ممرضة  
من النرويج تركت لبنان بالأمس وتقضى هنا يوماً فى طريقها إلى بلدتها .  
فقالت بابتسامة صغيرة : بل طردت بالأمس من لبنان . هذا شيء مختلف ..

تأملت وجهها الشاحب وعينيها المحتقنتين وهي تسند ظهرها الى المقعد في استرخاء وقد تدلّت يداها الى جوارها وتبذل مجهوداً مع ذلك لكي يبيو عليها الانتباه والتقط ، وقلت لنفسي هذه إنسانة بحاجة الى النوم لا الى الكلام ..

والتفتت هي نحو برنار وقالت بتلك الابتسامة المتعبة : حتى الطرد كان مشكلة، هل حكيت لك كيف طربونا ؟ .. كانوا يحتاجوننا في المستشفى بعد إغلاقه وظل سفير النرويج خمسة أيام يحاول ترحيلنا دون جدوى ، كانوا يجدون عذراً في كل مرة لإبقاءنا في الحجز ، مرة لأنهم لا يعملون في يوم السبت ومرة أخرى لأن الضابط المسؤول عن إعطاء التصاريح في إجازة ميدان . وأخبرني السفير أن قائدتهم قال له : لماذا العجلة على السفر ؟ .. البنات يستمتعن ...

وضحكـت ضحـكة خـافتـة ثم تـوقـفت عنـ الـكلـام .

قال برنار الذي كان يبيو عليه الوجوم على غير عادته : سامـحـينا ..

فـنظـرتـ إـلـيـهـ بـدـهـشـةـ وـقـالـتـ :ـ وـلـكـنـ ماـذـاـ فـعـلـتـ أـنـتـ لـكـ أـسـامـحـكـ ؟ ..ـ ثـمـ شـبـكـ

يـديـهاـ عـلـىـ الـمـنـضـدـةـ وـقـالـتـ لـىـ :ـ هـلـ سـتـنـشـرـ مـاـ سـاقـولـهـ لـكـ ؟ـ بـرـنـارـ يـقـولـ إـنـهـ

سيـحاـولـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـعـدـ بـشـيءـ ،ـ فـهـلـ أـنـتـ مـتـاـكـدـ أـنـكـ سـتـنـشـرـ ؟ـ

تجـبـتـ عـيـنـيـهاـ المـصـوـيـتـيـنـ نـحـوـيـ وـقـلـتـ :ـ أـنـاـ أـيـضـاـ لـسـتـ مـتـاـكـدـاـ وـلـكـنـ

سـأـحـاـولـ ..

سـأـلـتـنـىـ فـىـ أـىـ صـحـيفـةـ تـعـمـلـ ؟ـ فـقـلـتـ صـحـيفـةـ فـىـ مـصـرـ .

هـنـزـ رـأـسـهـاـ وـقـالـتـ أـفـهـمـ :ـ (ـثـمـ سـكـتـ لـحـظـةـ)ـ أـوـ فـىـ الـوـاقـعـ لـاـ أـفـهـمـ ،ـ وـلـكـنـ مـنـ

أـيـنـ تـرـيـدـ أـنـ أـبـدـاـ ؟ـ

قـلـتـ :ـ أـنـ أـتـعـرـفـ عـلـيـكـ أـوـلـاـ .

ـ مـعـ حـقـ ،ـ أـنـاـ أـعـمـلـ ..ـ أـقـصـدـ كـتـ أـعـمـلـ فـىـ مـخـيمـ عـيـنـ الـحـلـوةـ فـىـ الـجـنـوبـ

مـعـ مـمـرـضـاتـ أـجـنبـيـاتـ أـخـريـاتـ ،ـ كـنـاـ نـسـاعـدـ الـأـطـبـاءـ وـالـمـمـرـضـيـنـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ

هـنـاكـ .ـ هـلـ تـعـرـفـ هـذـاـ الـمـخـيمـ ؟ـ

ـ لـاـ ،ـ زـرـتـ بـيـرـوـتـ مـنـ حـوـالـيـ عـشـرـيـنـ عـامـاـ وـلـكـنـ لـمـ أـذـهـبـ لـلـجـنـوبـ ..

- حتى لو كنت قد زرته في ذلك الوقت فلا أظن أنك كنت سترفه الآن . أقصد قبل أن تدمره الحرب . قيل لي إن المخيم تغير كثيرا خلال عشرين عاما . لم يعد مجرد مخيم . عندما رأيته أول مرة منذ حوالي سنتين كان يشبه قرية أو ضاحية صغيرة من ضواحي صيدا ، كان يضم حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ بيت ، مزدحمة على آخرها بسكانها من الفلسطينيين ومن اللبنانيين الذين لا مكان لهم خارج المخيم . سكتت مرة أخرى .. فتدخل بربار قائلة : اسمعى يا ماريان . لا تزيد أن تنقل عليك . أنا بونت أهم النقاط التي ذكرتها لي ويمكن أن أعطيها لزميلى .. فقاطعته ماريان قائلة : لا .. بالعكس . يهمنى أيضا أن يسمع صديقك ما حدث .. فأخرجت جهاز التسجيل ووضعته أمامها . ولم أقل شيئا كثيرا بعد ذلك . كانت هى التي تنتبهنى إلى أن الشرط قد انتهى وتطالب منى أن أغيره ..

قالت : سأحكي فقط ما شاهدته بعيني . عندما ظهرت الطائرات وبدأت الغارة صباح 7 يونيو بدأنا نعد المخبأ في الطابق الأرضي من العيادة .. نسيت أن أقول إن عيادتنا لم تكن مستشفى حرب . كل عملنا في الأصل هو أن نعالج الأطفال المعوقين جسمياً وعقلياً وأن نقدم أيضاً إسعافات أولية للحالات العادمة قبل أن تحولها إلى المستشفيات . وكان معنا زميلتان من التمريض لم تتعودا على صوت القنابل وكنت أنا أيضاً خائفة رغم أنني عشت هذه الغارات من قبل . سمعنا بما حدث في مخيم الرشيدية قبل يومين فنزلنا إلى المخبأ . أقصد إلى الطابق السفلي من العيادة وجهزنا بسرعة أماكن للأطفال ونقلناهم إلى هناك ، وكنت أعرف أن هذه الغارات تنتهي بعد نصف ساعة على الأكثر ، وبعد الغارة كان هناك كالعادة بعض القتلى وبعض الجرحى وبعض البيوت التي دمرت وكثير من الشظايا . ووجدنا أيضاً إلى جانب الشظايا منشورات مكتوبة باللغة العربية ألقتها الطائرات تطلب من السكان إخلاء المخيم لأن القصف سيبدأ بعد فترة .. ولكنه لم يبدأ بعد فترة ، بل بدأ على الفور وقبل أن نتمكن حتى من تضمين جراح ضحايا الغارة الأولى . أخذ الممرضون يجررون بمحفاتها التي تحمل الحالات الخطيرة إلى عربات الإسعاف ، وكانت كل واحدة منها تحمل طفلاً أو

طفلين من الجرحى وكان الناس يجررون إلى المخابيء المحفورة في الأرض عندما بدأت القنابل تسقط من جديد . الذين كانوا قريبيين لجأوا إلى العيادة لأن عليها علم الهلال الأحمر والصلب الأحمر ولأنها مميزة عن كل المباني بطلانها الأبيض والمفروض أن يبتعد عنها القصف . ولم يكن تدفق الناس على المستشفى شيئاً سيئاً . طلبنا من الأصدقاء الذين لجأوا إلى العيادة أن يساعدونا في إعداد أماكن لبقاء الأطفال والنساء في الطابق الأرضي وجدنا بعضهم للمساعدة في الإسعافات الأولية للجرحى الذين لم ينقطع وصولهم إلى عيادتنا غير المجهزة وكانت مستترتين في العمل مع جرحى الغارات الجوية عندما سمعنا في المساء قصفاً من نوع جديد يسبقه صفير طويلاً ثم بوى مكتوم قبل أن تتوالى انفجارات متلاحقة وارتجاجات في المبني وزلازل في الأرض ..

قال البعض في ذعر وصلت البابات والمدفعية الثقيلة . وأضيف إلى جرحانا من اختراقهم شظايا الزجاج الذي صمد من قبل للغارات في العيادة ولكنه تهشم مع هذه الانفجارات ، وأضيف أكثر منهم بكثير من استطاعوا الوصول إلى العيادة من البيوت والمخابيء المجاورة . كان البعض يدخلون وهم يحملون أطفالهم أو أمهاتهم أو زوجاتهم طالبين إسعافهم دون أن يلاحظوا أن الدماء تنزف من رؤوسهم هم أنفسهم أو من صدورهم . وكان البعض يندفعون صارخين والثيران تشتعل في ثيابهم وأجسادهم ويسقط الكثيرون ميتين بمجرد أن يدخلوا العيادة . وعجزنا عن إسعاف هؤلاء الوافدين بأكثر من المسكنات والمرادم . وأخذنا نساعد الأطباء في عمليات عاجلة لم تتدرب عليها نحن ولا تدربوا هم . بتر أنズع وسican وجراحات في العيون وفي الجمجمة وكل ما يخطر على البال ، ولم ينقطع وصول المصابين ، ولم يعد في المستشفى مكان لاي حركة . وكان مرضانا الأصليون ، أطفالنا المعوقون ، أقصد من كان يستطيع الحركة منهم ، يجررون في كل مكان يضعون أيديهم على آذانهم وهم يصرخون ويريدون الخروج . وبالبعض يريد أن يلقى بنفسه من التأذنة ليهرب من هذه الارتجاجات والأصوات ..

وكان من الصعب جداً أن نفرغ واحدة من المرضيات الالتي يعرفن حالاتهم لكي تعنى بهم ونحن في هذه الظروف .

وفي لحظة توقف فيها ضرب المدافع غامر الطبيب البلجيكي فرانسيس كابيه وقال سأحاول شيئاً مع الإسرائيليّين . ركب سيارة إسعاف حشر فيها من استطاع من حالات الحروق والجراح الخطيرة وخرج في اتجاه مدخل المخيم ولكنه عاد بعد أقل من نصف ساعة ليقول إن الإسرائيليّين رفضوا تسلّم الجرحي وقالوا: إنهم لن يقدموا له أى مساعدة إلا إذا سلمهم الإرهابيين ، يقصد الأطباء والممرضين الفلسطينيين الذين يعملون معنا في العيادة . وهمس دكتور كابيه في أذني إنه بالكاد استطاع أن يسلم ١٠ من المصابين الذين أخذهم إلى المستشفى الحكومي اللبناني في صيدا . قال إن هذا المستشفى مكس أيضاً وإن الحالة هناك تشبه الحالة هنا . ولم يكن لديه الوقت ليقول أكثر من ذلك ولا كان عندي الوقت لأسمع . نفدت كل الأنوية التي كانت في عيادتنا ولم يبق عندنا ما نقدمه من إسعاف غير الكلمات وأن نضع أغطية على وجوه الموتى .

وفي الصباح كان كل شيء قد انتهى . أقصد أن كل شيء في المخيم كان قد انتهى . البيوت والبشر وكل شيء . عندما خرجت لحظات في الفجر لم أتعرف على المكان . كانت هناك حرائق في البيوت القليلة التي ظلت قائمة ، ولهب ودخان يخرج من أنقاض البيوت التي تهدمت . وكان هناك أشخاص قلائل يجوسون وسط الانقاض . يبحثون عن أقاربهم أو عن جثث أقاربهم ويستغلون مثلاً طول الوقت . لم يكن هناك صوت آخر غير السعال وأنين خافت مكتوم لا تعرف إن كان يصدر من البيوت القائمة أو من تحت الانقاض . وعلى الأرض كانت الجثث والأشلاء في كل مكان ، وبالذات حول المخابيء . سأشرح لك شيئاً عن هذه المخابيء . كانت حفراً في الأرض مغطاة وبمبطنة بالأسمنت ، وكانت تصلع إلى حد ما ضد الغارات الجوية ، لأنها ما لم تخترق القنبلة السقف مباشرة فإن المخبأ يحمي من الشظايا ، ولكن مع المدفعية الثقيلة التي كانت تدك البيوت والأرض .

تحولت معظم هذه المخابيء إلى مقابر لمن لجأوا إليها، وكانوا يتكدسون بالعشرات أطفالاً ورجالاً ونساء في هذه المخابيء، رأيت واحداً منها وكان قد تحول إلى بحيرة صغيرة تطفو فوقها رuous وسيقان وأندرع وأستطعت أن أحصى من الجثث الطافية ..

لاحظت أن صوتها قد اختنق وأنها كانت تشير إلى بيديها أن أوقف التسجيل فضغطت على الزر . غلبتها دموع لم تستطع أن توقفها فراحت تنسج ياصبعها ركني عينيها وهي تقولى لي : معذرة . أنا ممرضة محترفة . رأيت في حياتي كثيراً من الألم وكثيراً من الأشياء الصعبة ، وتعودت أن أتحمل . ولكن عندما رأيت ...

قلت بصوت ضعيف : إن كان يؤلمك أن تتحدثي فيكفي هذا ..  
كان الصفير المتقطع قد بدأ في أنذن الصداع خلف الرأس وكانت أتمني بالفعل أن تكف ولكنها قالت : لا . مهما يكن فيجب أن أقول كل ما رأيته و يجب أن تنشره .

التفت مستجداً نحو بريان الذي كان يعتمد ذقنه بيده ويراقبنا بفم مفتوح قليلاً  
فقال : نعم يا ماريان . قلت لك إنني كتبت ملخصاً .. ثم قال وكأنه يحدث نفسه :  
- كنت أحسب أننا تقدمنا قليلاً عن عصر التار .  
فردت ماريان : لا أدرى ما أقول لك . أنا لم أنجب أطفالاً وكانت في نفسي غصة لذلك ولكن عندما شاهدت عذاب كل الأمهات هناك وكل هؤلاء الأطفال ... ثم تغلبت على خواطرها وقالت بنوع من الإصرار : فلنكم . هل ت يريد أن نعيد هذا الجزء الأخير ؟

قلت بما يشبه الصرخة : لا .. ! ..

ثم استدركت : أقصد أن الصوت واضح . أستطيع أن أفهمه .  
- إذن سأكمل من حيث توقفت . لم يبق الكثير على أى حال .  
وبقلب مثقل ضغطت على زر التسجيل فواصلت ماريان .

- رجعت إلى العيادة وأنا أعدو وأبكي وقررت أن أكرر المحاولة التي قام بها دكتور كابييه بالأمس . كنت أعرف أنه لو قاد سيارة الإسعاف سائق فلسطيني فسيقضى عليه الإسرائيليون على الفور . فقدت أنا السيارة وأخذت معى زميلة هولندية وحضرنا في السيارة الحالات الخطيرة التي يلزمها إنقاذ عاجل . واحدة من هذه الحالات كانت سيدة اسمها خضرة الدندشى . أعرفها لأنها جاءت أصلا إلى عين الحلوة من مخيم الرشيدية بعد أن دخله الإسرائيليون وقبضوا على زوجها . وأصيبت في مخيمنا بجرح غائر في كتفها وكانت ذراعها تتدى منتفخة بالشظايا وبالدم المتختز . كان لابد من بتره ولكن لم يكن لدينا أجهزة ولا أدوية . ذهبت بها مع الآخرين إلى المستشفى الحكومى غير أنه لم يكن هناك مكان . أخذتها إلى مستشفى خاص كنا نتعامل معه من قبل ، وقابلت صاحب المستشفى واسمه غسان محمود .

أخذنى إلى مكتبه وكان غسان مهذبا ولكنه كان حازما وهو يقول لي إنه لا يستطيع قبول مرضى . قال لي هذا مستشفى خاص له سمعته ومرضاك قذرون للغاية .. لابد لي أن أحافظ على سمعة المكان . ولم تتفع معه أى محاولة فعدت بمرضى وتركتهم أمام باب المستشفى الحكومى . كانت خضرة الدندشى فاقدة الوعي ولا أعرف إن كانت قد ظلت حية أم لا ..

وعندما رجعت كان الإسرائيليون قد دخلوا المخيم ... قبضوا على كل الأطباء والممرضين الفلسطينيين . وأخذوا كل الجرحى من الشباب وكانوا يسوقونهم ضربا . قال لهم الدكتور فرانسيس : اعتقدوا الأطباء والممرضين هنا في المستشفى . عندي جرحى ومرضى من الأطفال والنساء واحتاج إلى هؤلاء الأطباء فقال له أحد الجنود :

- اسكت أنت يا إرهابي ! .. اسكت يا بادر ماينهوف . ربما نعود لتأخذك أنت أيضا ..



كانت مارييان تتكلم ، وكان الشريط يسجل ولكن لم أعد أسمع غير ذلك الصفير المتقطع في أذني وكلمات متناثرة .. الرشيدية .. الناقورة .. المخابيء .. الأنفاس .. السفير النرويجي .. وفي النهاية لاحظت أن صمتا طويلا قد حل ثم سمعت مارييان تقول بصوت مرتفع :

ـ هل تريد أن تسأّل عن شيءٍ محدد؟

فقلت دون تدبر : نعم ، كيف استطعت الخروج من لبنان؟

تأملت مارييان وجهي في دهشة وهي ترد : ولكنني قلت لك هذا منذ البداية وكررته توا . قلت إن سفير النرويج في تل أبيب تدخل للإفراج عنا وترحيلنا بعد أن احتجزونا في العيادة دون عمل .

كان الصفير يتحول إلى طنين ، فقلت دون وعي :

ـ نعم . أنا أسف . ولكن لماذا ذهبت أصلاً إلى لبنان؟

ولما لاحظت أن الدهشة تمتزج في وجهها بالغضب حاولت أن أعتذر ولكن برئار خرج عن صمته ليقول لماريان : صديقى يريد أن يعرف ما الذي جعلك تغامرين بالعمل في لبنان . بصرامة أكثر يريد أن يسأل عن ميولك السياسية ، أليس كذلك؟ ..

هزّت رأسي مؤمناً على كلامه وأنا أقول : هذا بالفعل ما أردت أن أسأّل عنه .  
ـ هل أنت مثلاً ...

فقطّعتني مارييان وارتّفت نبرة صوتها قليلاً وهي تقول : لا . لست مثلاً .  
ـ لست مثلاً أى شيء . لست شيوعية ولا يسارية ولا عضواً في بادر ماينهوف ولا في الجيش الأحمر كما كان يقول لنا الإسرائيليون على سبيل الإهانة . لست عضواً في أى حزب أو منظمة من أى نوع .

ـ وإنْ فلماذا؟ ..

ـ ذهبت أول مرة مع زوجي الطبيب بناءً على إعلان . كانوا بحاجة إلى طبيب

وإلى معرضة لعلاج الأطفال المعوقين ، وهذا هو تخصصي . كان الإعلان  
يناسبنا تماما فقدمنا الطلب ..

ثم ترددت لحظة قبل أن تقول : ولكنني سأعترف بأنني بعد أن سافرت كمعرضة  
عادية أول مرة ، ذهبت بعد ذلك لأنني لم أصدق ما رأيت . لم أصدق أن شعوبا  
باكماله يمكن أن يكون مباحا للقتل وأن يكون دمه رخيصا إلى هذا الحد . مازلت  
حتى الآن لا أصدق أن كل هؤلاء الآلاف يموتون لأن هناك شخصا واحدا ضربه  
مجهول بالنار في لندن .

سكت لحظة ثم وجدت نفسي أكفر ما قاله برنار في البداية : سامحينا .

فقالت : ولكن ماذا فعلت أنت أيضا لكي أسامحك ؟ ..

وعدت إلى الصمت وعاد الصفير في أنني ولما قامت لتصير صافحتها وأنا  
أغمض باعتذار آخر فقلت نافدة الصبر : أنا لا أفهم لماذا تعتذر لي أنت وبرنار ،  
ولكن أرجوكم أن تفعلا شيئا . اكتبا الحقيقة . فقال برنار وهو يصافحها  
بابتسامة متعبة على شفتيه : نكتب الحقيقة ؟ .. ذلك أصعب من إنقاذ جراحك في  
لبنان ، صديقيني . ولكن من يدرى ؟

★ ★ ★

كنا نسير صامتين في الطريق برنار وأنا ، وخطر بيالي لحظة أتنى لو كنت قد  
ساعدت يوسف على إصدار الصحيفة التي يريد نشرها مع صديقه المليونير  
لاستطعت أن أكتب ما أريد عن شهادة ماريان . وتنكشت أيضا أن أحد أصدقائي  
يعمل في مجلة عربية في باريس وأنه عرض على أن أكتب في هذه المجلة .  
وقلت بصوت مسموع : ولكن ما أهمية النشر بالعربية في أوروبا على أية حال ؟  
لمن سنتكلم ؟

وكان برنار مشغولا بافكاره الخاصة فالتفت نحوه وهو يقول : نحن أحيانا  
نسى .. ولكن أليست مهمتنا هي أن نقول الحقيقة مهما كان الثمن ؟  
فضحكت بصوت مرتفع .

قال برnar : ما الذى أصابك ؟ .. لماذا تضحك هكذا ؟  
فوقت فى الطريق وقلت لبرnar فى ذهول : أنت تسألنى ما الذى أصابنى ؟  
أنت تسألنى بالفعل ؟!  
، وظللت واقفاً فتره أطلع إلى وجهه المدهوش ثم لوحـت له بيـدى مودعاً  
وأنصرفـ.

★ ★ ★

حين وصلت إلى الشقة أخذت حبتين من الأسبرين وجلست على الفور إلى المكتب ، وضعت أمامى جهاز التسجيل والأشرتة . وكان المكتب مزدحـاً فقضـيت وقتـاً فى تنظـيم الصـحف المـكـوـمة . رميـت الصـحف التـى قـطـعـتـ منها القـصـاصـاتـ المـهـمـة ، ورتبـت الصـحفـ الأخرىـ التـى لمـ أـفـرـغـ منـ قـرـاعـتهاـ والـتـى لمـ أـفـتـحـهاـ ثمـ وـضـعـتـ القـصـاصـاتـ فوقـ الصـحفـ فـيـ رـكـنـ المـكـبـ.

جـرـبـتـ القـلـمـ الرـصـاصـ الذـىـ أـكـتـبـ بـهـ ثـمـ بـرـيـتـ أـقـلـامـ أـخـرىـ وـضـعـتـهاـ إـلـىـ جـانـبـ دـفـرـ الـكـاتـبـةـ .

نظرـتـ إـلـىـ صـورـةـ خـالـدـ وهـنـادـىـ عـلـىـ المـكـبـ ، ثـمـ رـفـعـتـ نـظـرـىـ إـلـىـ عـبـدـ النـاصـرـ

المـبـسـمـ وـسـأـلـتـهـ : مـاـذـاـ أـكـتـبـ ؟ ..

قلـتـ لـهـ مـاـذـاـ أـفـعـلـ ؟ .. جـرـبـتـ كـلـ شـيـءـ . كـتـبـتـ مـوـضـوـعـاـ لـنـصـفـ صـفـحةـ عـلـىـ

الـأـقـلـ عـنـانـهـ «ـاـرـتـيـاعـ فـيـ أـوـرـوـبـاـ لـمـجـازـ بـيـرـوـتـ»ـ فـنـزـلـ فـيـ نـصـفـ عـمـودـ تـحـتـ عـنـانـ

«ـدـوـلـ أـوـرـوـبـاـ تـنـتـقـدـ مـوـاـقـفـ إـسـرـائـيلـ»ـ . أـنـقـلـ فـيـ مـقـالـ فـقـرـاتـ طـوـيـلـةـ مـنـ تـقـارـيرـ

الـصـلـيـبـ الـأـحـمـرـ وـجـمـعـيـاتـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ التـىـ تـتـكـلـمـ عـنـ قـصـفـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ وـعـنـ

اسـتـعـمـالـ الـقـنـاـبـ الـفـوـسـفـوـرـيـةـ وـالـعـنـقـوـدـيـةـ الـمـحـرـمـةـ بـولـيـاـ ، فـيـخـتـفـيـ ذـالـكـ كـلـهـ مـنـ

صـلـبـ الـمـقـالـ . فـيـ كـلـ مـرـةـ «ـأـخـفـ»ـ الـلـهـجـةـ لـكـيـ يـنـزـلـ الـمـقـالـ . أـنـقـلـ مـاـ تـقـولـهـ

مـصـادـرـ مـحـايـدـةـ وـلـاـ ذـكـرـ رـأـيـ . أـحـكـىـ عـنـ عـضـوـ مـجـلـسـ نـوـابـ أـمـرـيـكـ ، أـمـرـيـكـيـ

هـذـهـ الـمـرـةـ ، تـوـقـفـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ فـيـ طـرـيـقـ عـودـتـهـ مـنـ بـيـرـوـتـ . أـكـتـبـ أـنـهـ قـالـ إـنـ مـاـ

- ١٢٢ -

يحدث في بيروت هو جريمة العصر . أتقل قوله إن أمريكا تدفع لإسرائيل ٧ ملايين دولار من المعونات يوميا وإن هذه الأموال هي التي تستخدم لقتل الأطفال والنساء في بيروت ، فيكون الخبر «سيناتور أمريكي يقترح خفض المعونة لإسرائيل !»

ماذا أفعل ؟ .. ماذا أكتب ؟ .. لا يمكن على أى حال أن أضع شهادة ماريان في الرسالة الشهرية ! .. كيف ؟ .. مرض نرويجية تمشي على يديها ١٤ ساعة وتحكى مشاهداتها في بيروت ؟ .. تضرب الرقم القياسي في إحصاء الجثث ؟ .. ماذا أفعل ؟

ظللت أجلس لحظة والقلم في يدي ثم قمت إلى المطبخ وصنعت فنجانا من القهوة . ضاعت كمية البن ووقفت ممسكا (الكنكة) فوق الشعلة الخافتة أراقب بحرص الفقaceous وهي تتخلل البن حتى لا يغور وينسكب . عدت بفنجان القهوة وأنا أقول ، نعم يا برنار ، أصعب من إنقاذ المصايبين في بيروت ! ..

شربت فنجان القهوة بسرعة فبدأ قلبي يدق بشدة . ولكنني جلست إلى المكتب وأمسكت القلم . كتبت عنوانا : سفير النرويج يحتاج لاحتجاز ممرضات ، ثم شطبت العنوان ورحت أرسم في الورقة مريعات وأهرامات .

أمسكت أول واحدة من القصاصات التي أمامي . كانت صحيفة عربية تصدر في باريس وكان الكاتب يسأل : حتى متى الصمت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألم تكن دماؤنا تسيل بالأمس غضبا على الفرنسيين في دمشق وفي تونس وطلبا للجلاء بالدماء ، فما الذي جرى لهذه الدماء ؟ .. أين ضاعت النخوة التي تجعل الإنسان ينتفض لنجدته أخيه ؟ دعك من الإنسان ! النخوة التي تجعل ذئاب الغابة تجتمع لتدافع عن نفسها ضد نمر أو أسد . هل نحن أسوأ من الذئاب والوحش ؟ ..

بقية القصاصات كانت تردد الأسئلة نفسها : كيف ؟ .. لماذا ؟ .. والعبارات نفسها : العار ! .. الصمت .. المؤامرة ، إلخ ، إلخ .

سألت نفسي : إذن ماذا بقى لكى يقال ؟

سألت نفسي ومن يناشد هؤلاء الكتاب بالضبط ؟ .. ما معنى أن يسأل كل واحد الآخر ماذا جرى ؟ .. كأنما هناك عرب آخرون غيرنا نحن الذين نسأل ! .. عرب يختفون في مكان مسحور ننتظر منهم أن يظهروا ويتحركوا باليابة عنا جميرا !

ما العمل ؟ .. قمت وأخذت أتمشى في الغرفة .

أعمل قهوة أخرى ؟ .. بماذا تفید ؟ ..

كانت المساحة التي أتحرك فيها صغيرة جدا فكنت أمشي ثلاثة خطوات وأعود إلى المكتب . أمسكت وأنا واقف بأول صحيفة تحت القصاصات . في الصفحة الأولى كانت هناك صورة أعرفها . قرأت الخبر فرجع الطنين الحاد إلى أذني . جلست على الكرسي دفعة واحدة . ظللت أمسك الصحيفة ويدى ترتعد . قلت لعلى لم أفهم ، وقرأت الخبر مرة أخرى . لا . ليس هناك أمل في ألا تقرأ ما قرأت ! .. قرأت بالفعل ولن ترجع مرة أخرى تلك اللحظة التي كنت تجهل فيها والتي كان لا يزال فيها حيا . نعم ، خليل حاوى أطلق الرصاص على رأسه في بيروت . هذا حدث وانتهى فلا أمل في ألا تعرفه .

تركت الصالة وتمددت بشبابي على السرير . رحت أضغط بيدي على قلبي وكأنى يمكن بهذه الطريقة أن أهدئه ..

حريص أنت على حياتك ؟ .. تخاف من هذه الدقات السريعة ومن الطنين في الأذن ؟ .. لا تخف ، لن تموت ، ستحتمل قلبك الحجرى قصة عين الحلوة والقهوة الثقيلة وموت الشاعر . لا تخف . لو أن دماء بالفعل هي التي يضخها قلبك لكنك الآن هناك ، إلى جواره ، مصروعا إلى يمينه . لا تخف ، لن يحدث لك شيء .

قفزت من الفراش وخرجت مرة أخرى إلى الصالة ووقفت أمام عبدالناصر . سأله لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوى ؟ .. لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟ .. كان قد رأنا - كما قلت أنت - نفسل الصبح في النيل وفي الأردن وفي الفرات . فلماذا كذبت عليه ؟ .. لماذا ربيت في حجرك من خانوك

وخانونا ؟ .. من باعوك وباعونا ؟ .. لماذا لم يبق غير غسان محمود ؟ .. لا تدافع عن نفسك ولا تجادلني ، فها هو خليل حاوى قد اتحر ! ثم ماذا ت يريد أن تقول ؟ .. إننا كان يمكن أن نفعل شيئاً ؟ .. كيف وخليل حاوى لم يكن يملك شيئاً غير ضلوعه ، تلك التي مدها جسراً وطiedاً من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟ أى شرق جديد ولم يعد هناك شيء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ .. كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ .. سلاحه لم يكن يصلح لشيء غيرها فما رأيك ؟ ..

لا تبك ! .. على الأخون لاتبك ! .. ولا داعي لهذه الحشرجة في الصوت ، ولا داعي لقرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس مساهمة مصرية – ولا داعي لقامت دولة عظمى تحمى وتهدد وتصبون وتبدد ولا داعي لكل هذا الطين في الأذن فأننا لا أحتمل ! أسمعت ؟

ثم أى زجاج هذا الذى يتناثر في الأرض ؟ ..

ومن أين يأتي هذا الرنين ؟ ..

من الذى يصرخ ؟

وما الذى يسقط ؟

## الفصل السابع

### ليل حنون .. حديقة حانية

وكان ما كان ،

ثم جاءت السكينة وجاء الجمال ... ثم أصبح القط الأسود يطارد الفار ، والفار يخطف الجن ، ثم كان القط يضع القبلة في الجن لكي تنفجر في الفار ، فيلقي الفار الجن على القط ، وحين ينفجر يسقط القط على ظهره ، ولكن لا يحرق منه غير شعره وذيله ، ثم يرجع قطا كما كان ويعود ليطارد الفار ...  
بعدها يأتي الرجل المضحك السمين لكي يضرب الرجل المضحك الرفيع ، أو ربما العكس ، ثم يأتي شارلى ليقول غدا تشرق الشمس وتفرد الطيور وتتفتح الأزهار ولكن يأكل حداه حين يجوع . وكتابته لشارلى ، وحين تتعب عيني أفتح الراديو المثبت إلى جوارى فتتبعث منه موسيقى حلوة تقول نم ، نم ، نم ، فاتنام .

وفي النهار كنت أتمشى قليلا . أقضى وقتا في الصالة الخارجية . أشاهد التليفزيون وأراقب زملائي ويراقبونى ، ونتبادل الابتسamas والأحاديث . وفي الصالة كان التليفزيون يقدم البرامج نفسها مثل ذلك الجهاز الصغير المعلق فوق سريري . لم تكن هناك أى أخبار أو أى برامج . لم يكن هناك أى عالم حقيقي ، بل أفلام الرسوم المتحركة المتعاقبة وبعض الإعلانات عن أدوية الحموضة وعن معاجين الأسنان تملأ الشاشة بفتيات جميلات يكشفن أسنانهن البيضاء وابتسمتهن العريضة . وكنا في صالة هذا الطابق المخصص لحالات القلب والأوعية الدموية ، نجلس بالساعات ونحكي الأزواب فوق جلايب المستشفى البيضاء التي تشعرنا بالعرى ، ونتابع بعيون نعسانة ميكى ماوس ونقار الخشب والكلب الكسلان ولوريل وهاردى ، ونضحك بوقار طوال الوقت ، قبل أن تأتى لكل

منا ممرضة في حوالي السادسة أو السابعة وفي يدها الحبوب المهدئة والماء ، وعلى شفتيها الابتسامة المهدئة ، وبعدها نذهب إلى غرفنا ثم يأتي النوم السعيد ، لنصحو في الصباح ونرى القط يطارد الفأر ...

كان الطبيب قد قال لي إنني محظوظ ، وأنه لو لم ينقلني بيرنار في سيارته على الفور لقضت على الأزمة بعد دقائق ، لأنه كانت هناك أيضا جلطة تكون في أحد الشريانين وتتحرك نحو القلب . وشرح لي أنني يجب بعد هذه الأزمة أن أعود نفسي على عدم الانفعال وعلى الاعتدال في الأكل والشرب ، ويجب ألا أقرب التدخين . ولما قلت له إنني امتنعت عن التدخين منذ مدة . رد وهو يبتسم بنوع من التأنيب : ولكنها أنت تتفق ثمن السنوات السابقة ! .. كان طبيبا شابا ، وقيل إنه عبقري ، ولكنه لم يكن يقدم أى تشجيع أو أمل . غير أن الحبوب المهدئة كانت أثمن هداياه . أصبح النوم يأتي بسهولة وكثرة ، وابتعدت الأفكار السيئة ومعها كل الأفكار الأخرى .

واعتاد بيرنار أن يأتي لزيارتى في طريقه من الخدمة التي يودع فيها طفله الفييتنامى جان - باتيست . كان في حوالي الرابعة أو الخامسة منور الفم تقريبا ، تشع عيناه السوداوان بالذكاء ولكنه يلتصق بيرنار ويرفض أن يكلم أحدا ، و كنت أعرف بالتجربة أنه يستحيل أن تكسر بالإلحاد قشرة طفل خجول ، فتركته أملا أن يألفنى ذات يوم . اكتفيت بأن أقدم له كلما جاء قطعا من الشيكولاتة في العلبة التي أحضرها لى يوسف المصرى في أول زيارة له ، ثم انهك بعد ذلك في الحوار مع بيرنار . أشكره لأنه أتقن حياتي فيفرق في الضحك . يقول إنه في الحقيقة أتقن نفسه لأنه كان سيشعر بالذنب لو حدث لي شيء بعد تلك المقابلة مع ماريان ، قال إنه رأى في عيني شيئاً أقلقه عندما تركته في الطريق بعد المقابلة ، وحين طلبني في التليفون لم يفهم شيئاً مما قلته ولكنه سمع صرخة وارتظام السمعاء في الأرض فأدرك ماحدث . وكنت أحكى لزملائي في الغرفة أو في الصالة تلك القصة وأقول إنني مدین له بحياتي ، فيلفت بيرنار نظرى برفق إلى أنني سبق أن حكى لهم هذا كله ثم يكمل أنه لابد أن يجرب هو أيضا هذه الأدوية التي تجعلنى أفقد

الذاكرة وتجعلنى مهذبا إلى هذا الحد . ولكن برنار رفض تماماً أن يحضر لى أى صحيحة أو أن يحدثنى عما يدور فى لبنان . قال إن الطبيب منع أى شئ يمكن أن يثير انفعالاً وإن أعطى تنبئها صارماً لكل النوار ، ولم أكن أشعر فى نفسى بآية قدرة على الإلتحاق فى الطلب ، فكنت أبتسلى بمتابعته وهو يبذل كل جهده لكي لا يدخل فى الحديث أى موضوع مثير للقلق ! ... وفي النهاية اكتفى بأن يحكى لى قصصه مع جان - باتيست . كان يشكوكاً من أنه يعذبه فى الذهاب إلى فراشه فى موعده فى الليل .

وقال لى ذات مرة إنه هدد بالامس بأن يعاقبه ما لم ينم ، فرد جان - باتيست بأن ذلك لا يهمه لأنه يستطيع أن يحول نفسه إلى عصافير ويطير قبل أى عقاب . واستشهاد برنار بي على أن كل الناس يجب أن تنام فى موعدها لكي تصحو نشطة فى الصباح ، فأنهت على كلامه وقلت وأنا أطلع نحو جان - باتيست : - وكذلك كل العصافير وكل القطط وكل الكلاب لابد أن تنام فى موعدها فى الليل .

ففاجئنى بأن صوب نحوى عينيه السوداوىين فى نظرة متحدية وسائلى :

- وهل تذهب السمسك لتنام فى موعدها بالليل ؟ .

- نعم .

- كيف ؟

- عندها بيت صغير تحت الماء تذهب لتنام فيه .

مط جان - باتيست شفتيه مستهزئاً وسكت لحظة قبل أن يقول لى : والسمكة الصفراء التي عندنا فى الحوض ؟

نظرت نحو برنار لكي يقتننى ، فقال وهو يضحك نافذ الصبر :

- هي لا تنام . وما لم تتم أنت فى موعدك فستصبح بالتأكيد سمسك صغيرة صفراء ! هل فهمت ؟ .

والم يكن مسموها لى بأن أخرج عن هذا المستوى من الحوار .

حتى يوسف الذى كان يزورنى كل يوم تقريباً لم أنجح فى استدراجه ليقول لى شيئاً عما يحدث فى العالم .

زارنى أول مرة مع زوجته التى قبضت على يدى بمجرد دخولها بيديها الاثنين معا ، وخطبتنى كما لو كانت تحدث طفلا : يا سيدى الطيب المسكين ! .. مع أنى كنت تراعى صحتك جيدا ! .. لم تكن تشرب غير القهوة الطيبة ! .. فقال يوسف بشئ من الخجل : كفى يا إيلين . هو بخير .

نظرت نحو يوسف كأنها تفهمه بأنه هو الذى قال العكس وقالت : مازا تظن ؟ .. السيد بخير . بالطبع ! هي وعكة بسيطة وسيخرج بعد أن يرتاح قليلا .. ثم همست تخطبى وكأنها تطلعنى على سر : المرضات قلن لي إن تحسنك مذهل ... م ... ذ ... ه ... ل ... ! عما قريب ستكون على قدمنا فى الطريق . ما رأيك ؟ ..

فكدر زوجها بهجة أشد حزما : كفى يا إيلين !  
وأصبح يوسف بعد ذلك يأتى بمفرده . واعتاد أن يحدثنى أيضا مثل برنار ومثل ميكى ماوس ومثل شارلى شابلن عن أشياء مسلية وأشياء مضحكة . وكانت حكاياته المفضلة هي ما جرى له عند وصوله إلى البلد و GAMERاته أيامها ليجد مكانا ينام فيه . قال إنه عندما وصل فى الصيف لم يكن هناك مشكلة إذ اعتاد أن يجد مكانا منزريا فى الحدائق العامة بعيدا عن أعين الشرطة . ولكن متاعبه بدأت عندما حل شتاء البلد الصعب . وكان فى البداية محظوظا : اكتشف قبوا يستخدمه السكان مخزننا فى عمارة هادئة ، فيه سرير قديم . فكان يتسلل إليه فى وقت متأخر وينام حتى الصباح ، غير أن واحدا من السكان اكتشفه ذات ليلة واعتقد أنه لص وأراد أن يستدعي الشرطة لولا أنه نجح فى الفرار . قال إنه قضى تلك الليلة مقرضا فى كابينة تليفون بحثا عن شيء من الدفء ، ولكن الهواء كان يخترق الكابينة من كل مكان وفي الصباح كان قد تجمد بحيث لم يعد يستطيع السير على قدميه . قال إن مصر يا له خبرة سابقة تعرف عليه فى إحدى الحدائق العامة أنقذه من الهلاك . لم يكن يوسف يعمل ولم تكن لديه أوراق إقامة فى البلد ونفذت كل النقود التى كانت معه وبدأ يفكر فى الرجوع إلى مصر . فكر أن العودة إلى السجن أرحم مما هو فيه . ولكنه تعرف على (مأمون) الذى كان

عاملًا في مصر وعاطلا هنا ، فدله كيف يأكل وكيف ينام .. عرفه أولاً على جمعية خيرية تقدم وجبة مجانية بسيطة للقراء وتوزع عليهم مبالغ زهيدة كانت تكفيه لأن يأكل شيئاً في المساء . واصطحبه في الليلة نفسها إلى منامته الخاصة ، تسللاً في الليل إلى مخازن السكة الحديدية وكانت هناك عربات قطارات متفردة مغلقة . ومع مأمون مفتاح خاص ، فتح به عربة نوم الدرجة الأولى حيث كان الفراش مريحاً والأغطية ثقيلة ، ونبهه إلى أهم درس لمواصلة الاستمتاع بهذه النعمة ، وهو ضرورة الاستيقاظ قبل نور الفجر ومغادرة العربية قبل وصول عمال المخازن . قال يوسف إنهمما قضيا في تلك العربية أيامًا سعيدة ، ولكن ذات صباح بعد أن سهرا طويلاً مع الشراب والدردشة ، استغرقا في نوم عميق وفي الصباح اكتشفا أن العربية تتحرك بسرعة وأنهما على سفر لا يدريان مقصدته . قضيا الوقت في تبادل مراقبة مفترش القطار والتقلل من عربة إلى أخرى ثم نزلوا في أول محطة . وهناك اكتشفا أن الناس يتكلمون لغة غريبة لا يعرفانها ، وقفوا في المحطة حائرين إلى أن وجدا شخصاً له ملابح عربية فسألاه أين هما ؟ ... غضب الرجل واعتقد أنهمما يسخران منه ، ولكنه بعد شيء من الشرح والإلحاح قال إنهما إن كانوا لا يعرفان حقاً فليعلما أنهمما في ميلانو . وبعد أن انصرف الرجل سأله مأمون متثيراً : وفي أي داهية ميلانو هذه ؟

ولما سأله يوسف وكيف استطاعت أن ترجع إلى هنا مرة أخرى ؟ قال ضاحكاً .  
رجعنا بعد أيام ، في عربة النوم نفسها وبالطريقة نفسها .

حكي لي يوسف كل الأشياء الصعبة التي مر بها كما لو كانت نكتة ، غير أنه كان يتوقف دالما قبل تعرفه على إيلين وزواجه منها . وكان يطرأ على باالي أحياناً يوسف يحكى لي بيديرو إيبانيز ، أسأل نفسى هل ينام الآن فى قبو أو فى قطار؟ .  
وهل أصبح حقاً أسعد حالاً مما كان فى معسكر الاستقبال ؟

وكان يوسف ينقل لي بين حين وآخر تحيات الأمير وسؤاله عنى ، غير أنى كنت أتلقي في كل يوم أيضاً باقة زهور ضخمة ومنسقة بعناية ، مع بطاقة «تحيات الأمير حامد بن ... وتمنياته بالشفاء» . وفي آخر اليوم كنت أوزع هذه البقات

بالتناوب على المرضات فيسعدن بهذه الزهور الثمينة النادرة .

★ ★ ★

واعتقدت برجيخت أن تأتى كل يوم فى الظهيرة فى فسحة غدائها المعتادة ، تدخل بزيمها الأزدق وفى يدها باقة صغيرة من الزهور ، فتشيع ابتسامتها البهجة فى الغرفة بمجرد أن تخطو إليها . وكتت أشعر بنوع من الزهو حين أرى نظرات المرضى الآخرين المبهورة . وافت讓他們 أى مناسبة للاقتراب منا والحديث إلينا . ولكن هذا الزهو انقلب إلى شعور بالعار وبالخجل من نفسي حين قال أحدهم يوماً بعد أن انصرفت وهو يغمز بعينه هل هذه هي السبب في أنك هنا ؟ .. في مثل سنتنا يا صديقى يحسن أن تتجنب الصغيرات والجميلات . لم تعد قلوبنا تحتمل ذلك . غممت محتاجاً وغاضباً بالقدر الذى تسمح به أدويةتى ، وأنا أقول إننى لا أسمح له أن يقول ذلك ، وإنها مجرد صديقة وإنها فى سن ابنتى وكلام كثير من هذا النوع ، ثم أصبحت أحقر بعد ذلك حين تأتى أن أختفى بها عن الانظار فى قاعة أخرى أو فى طابق آخر فى المستشفى . وفي تلك الأيام كانت هى التى تنشر ، تبحث أيضاً عن حكايات مضحكة تسلينى . ومع استمرار «التحسين» والأدوية المهدئة لم أكن أستطيع مقاومة القهقة حتى على الأشياء التى لا تستحق ذلك ، فكانت هى تضحك لبهجتى المستمرة .

وفي اليوم السابق لمغادرة المستشفى استدعانى الطبيب إلى مكتبه . قال بمنتهى الجدية إنه درس حالى فوجد أننى أعمل صحفياً وإن هذا العمل لا يناسب حالى الآن ويجب أن أغيره . أوشكت أن أضحك أيضاً لهذه النصيحة ولكننى وعدته أن أبذل جهدى فى أسرع وقت . ونبهنى الطبيب إلى أننى يجب ألا أتجاوز فنجانين من القهوة فى اليوم ، ويمكن بعد أسبوعين أن أمتتنع عن الحبوب المهدئة . أما أعراض الضغط وسیولة الدم فيجب أن أفهم أنها منذ الآن جزء من روتين الحياة اليومى ، قلت إننى فهمت فلم ييد مقتنعاً بذلك تماماً ، وكرر التعليمات بطريقة أخرى .

ويمجرد أن خرجت من المستشفى اشتريت صحف اليوم وتوجهت إلى مقهى

على شاطئ النهر ، بدا المشى فى الشوارع ولفحة الهواء كالمفاجأة بعد أيام احتجازى فى المستشفى ، ولم أكن أستطيع المشى بسرعة فأخذت أتمتع بحربيى الجديدة على مهل . ولاحظت حين وصلت إلى المقهى أن الزهور فى أحواض المدخل قد تغيرت ، أصبحت هي زهور نهاية الصيف وبداية الخريف بألوانها الهاوية البنية والنفسجية والصفراء الداكنة .

بدأت أقرأ الصحف وأنا أشرب كوبا من العصير ، ولكنى تركتها بعد فترة قصيرة ورحت أنظر إلى النهر . كانت العناوين هي نفسها والاحصاءات هي نفسها - آلاف القنابل من الطائرات وألاف القذائف من المدفع على بيروت المحاصرة . وأجرت واحدة من الصحف مقارنات فقالت إنه سقط بالأمس فوق بيروت ١٨٥ ألف قذيفة توازى ٢٦ ألف طن من المتفجرات . وحددت أنه سقط بالأمس أيضا ٢٨٠ قتيلا و ٥٠٠ جريح . وكان هناك مقال فى صحفة عربية تقدمية يؤمن خليل حاوي ويقول إنه كان شاعرا كبيرا ولكنه أخطأ حين انتحر لأن الإنسان يجب ألا ينهار أمام الظروف الصعبة إلخ . إلخ .

طوبى الصحف واستفرقت فى مشاهدة تشكيلات البحع ، وكان إلى جوارى رجل عجوز يعطى حفيده قطعا صغيرا من الخبز ليقىها فى النهر ، فتجمع تحت النافذة سرب كبير يمد رقابه البيضاء إلى الماء ويرفعها فى وقت واحد ثم يميل نحو البط الصغير الذى يزاحمه لكي يهاجمه بمناقيره الخمراء الغاضبة ، فقلت لنفسى هاهى رقصة البحع الحقيقية .

وانتبهت بعد لحظة إلى أن بريجيت تقف إلى جوارى . قطبت جبينها حين رأت الصحف المطوية على الطاولة وقالت بنوع من التأنيب : والآن أيها العند العزيز ألم يمنع الطبيب ذلك كله ؟

لكنها قبلتى فى خدى قبلة حارة وقالت لكم أنا سعيدة لأنك رجعت . أنت لا تعرفكم افتقدت جلستنا فى هذا المكان ! ثم أخذت الصحف المطوية ورمتها فوق مقعد بعيد .

قلت : لداعى لهذا يا بريجيت . ليس من أجل نصائح الطبيب ولكن أنا نفسي

قررت أن أفعل مثلك ، قررت ألا أقرأ الصحف أو أشاهد الأخبار بعد الآن . ما الداعي ؟ أنت قلت لم نكن نحن الذين أرقنا هذه الدماء ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفها . على الأخص لا نستطيع أن نوقفها .

ـ هـ هو شخص يرجع عاقلاً من جديد ...

ثم ضحكت وهي تحكم : ولو أتنى لا أحب الناس العاقلين ! ولكنني كنت أحنى رأسى وأقاوم دموعاً ت يريد أن تتكون في عينى .

وعدنا نتكلّم ونلتقي كل يوم . غير أن الأمور لم تعد قط كما كانت من قبل . أفهم أتنى تغييرت قليلاً بعد المرض والعلاج ولكنني كنت أسأل نفسي ما الذي غيرها هي ؟ ... لماذا اعتبرها هذا الصمت والشروع الطويل ولماذا لم تعد تحكى لى قصصها اليومية مع السياح ؟ .

وأخذ يحدث لى أنا أيضاً تغيير آخر في هذه الأيام . فحتى بعد أن كففت عن الحبوب المهدئات أصبحت تتناولني افعالات غريبة ، بدأت ألاحظ ذلك في المساء عندما كنت أجلس في البيت أراقب الأفلام المصرية القديمة على الفيديو . كانت الدموع تصعد إلى عيني بمنتهى السهولة حين أشاهد فاتن حمامة معذبة من مكانه ذكي رستم العجوز أو حين يهجر كمال الشناوى شادية دون مبرد وفي بطنهما الجنين ، أمسح الدموع من عيني وأوقف الفيديو وأنا أحاول أن أضحك . أنتكر كيف كنت في شبابي أسرخ من هذه الأفلام وأتكلّم عن تأخر فن السينما في بلدنا وعن الميلودرامية وهذه الأشياء . فما الذي حدث ؟ ....

تطفر الدموع أيضاً حين أستمع إلى صوت خالد أو هنادي في التليفون . بكيت بالفعل يوم قالت لى هنادي إنها نجحت بمجموع ٧٠٪ وطلبت منها أن تسأل فوراً عن اشتراك نادى الفروسيه ، فقالت «ميرسى يا أجدع بابا . بس أنت بتعيط ولا شكلك كده ؟» ... وحين هنأت خالد أيضاً على نجاحه المتفوق ، قلت له بصوت متهدج إننى فخور به وإننى أسامحه ، فرد خالد بدهشة «تسامحنى على إيه يا بابا» لكننى كررت أنى أسامحه وأنهيت المكالمة قبل أن أجهش بالبكاء .

وبصعوبة أيضاً أصبحت أحبس دموعي أمام بريجيت ... أعتابها عتاباً شديداً

إذا ما تأخرت قليلاً عن موعد الظهيرة وتضطر هي إلى الشرح وإلى الاعتذار بينما تطل دهشة من عينيها لأنها تراني أحوال وجهي للناحية الأخرى وأضعه بين كفى لأقاوم البكاء . وفي النهاية كان لابد أن أصارحها بما يحدث لى فقالت :

- بالنسبة لي أنا أجده هكذا أفضل بكثير مما كنت من قبل . قلت لك إبني لم أحب في حياتي الناس العاقلين جداً . ولكن لماذا لا تذهب إلى الطبيب مادام هذا يزعجك ؟ ...

غير أن طبيبي لم يفهم أى شئ ، فحصنى بدقة كعادته وأرسلنى أجرى فحوصاً وتحليلات للدم ، ثم قال بعد أن راجع نتائج التحليل إن هناك تقدماً كبيراً يحدث ، بل إننى أكاد أكون عادياً . ولما شرحت له مرة أخرى ما أشعر به وأننى لم أعد أستطيع أن أسيطر على دموعي ، استمع إلى باهتمام ثم كتب لى خطاباً يحولنى به إلى طبيب للعيون وهو يقول : بعد أن نطمئن على حالة العين نفسها يمكن أن أحوالك إلى طبيب نفسى .

أوشكت أن أشتمن الطبيب لكنى أخذت الخطاب وغادرت العيادة بسرعة و كنت أدمدم وأنا أنزل السلم وشعرت أن الانفعالات القديمة ترجع مرة أخرى فوقفت فى مدخل العمارة أتنفس بعمق أحاول أن أهدأ وأحاول أن أتذكر أين ركنت سيارتي . و كنت بالفعل قد أصبحت أهداً حالاً بعد أن خرجمت إلى الطريق وواجهتني لذعة برد خفينة منعشة .

مشيت الشارع الطويل كله أبحث عن السيارة دون جدوى ، فوقفت عند الناصية أظلل عينى بيدي وأنا أحاول أن أميزها بين عشرات السيارات التي تتصطف على اليمين واليسار . لكنى بعد لحظة نسيت السيارة وكل شئ آخر . وسائلت نفسي كيف لم أر هذا من قبل ؟ ... كيف فاتنى أن لاحظه ؟ ... كيف غاب عن عيني هذا الخريف الجميل الذى بدأ هذا العام مبكراً عن موعده ؟

كانت الأشجار على جانبي الشارع فى ذلك الحى الهدئ قد شحبت خضرتها ووشتها الأوراق الصفراء اللامعة والطيرية ، متوجهة فى الشمس . وكل شجرة زهرة عملاقة مزخرفة بالألوان الخضراء الباهتة والخضراء المصفرة والصفراء

البنية والمشربة بالحمرة ، والمفضضة ، وألوان أخرى لا أعرف وصفها وسط ذلك العيد الخريفي . وكان الهواء يدفع بعض الأوراق فتتطاير ببطء مثل فراشات مذهبة قبل أن تستقر على الأرض .. قبل أن تنضم إلى سرب هاجع آخر يصنع دائرة حول جذع الشجرة ، ويرسم تحتها صدى شجرة أخرى صفراء ، ترتعش بالهواء فيصدر احتكاكها صوتاً صغيراً خشناً لكنه يدغدغ الحواس .

وقفت طويلاً لا أفكّر في شيء وأنا انقل بصرى بين السماء الزرقاء الصافية والشجر الذي ينفخ زينته في الأرض ، تنزل دموعي فلا أقاومها ولا أريد الآن أن أقاومها ، وكأن شيئاً في داخلي يقول إنه من قلب هذه النار الذهبية الوانية ستتودّد روحى وتبعث من جديد ... ويدأت أمنق في بطء رسالة الطبيب فحمل الهواء قصاصاتها البيضاء وراحت تتطاير أيضاً وسط أوراق الأشجار الثانية .

أتراء هو أيضاً ، نفسه ، ذلك اليوم الذي قالت فيه بريجيت إنها تحبني ؟ ذلك اليوم الذي جاء فيه الحب موجة عالية لسابع غشيم ، فغمّرته الموجة وصار يشهق في جوفها ويختبئ بيديه لا يدرى إلى أين ؟ .. ولكن لم الكتب ؟ .. كنت يومها أطفو فوق تلك الموجة ، سعيداً ومغروراً ، أتى أنا - هذا العجوز - ، قد أحبته هي ، تلك الصغيرة الجميلة ، وأنها من أجلى تدمع عينها وترتعش يدها حين المسها وهي تقول في همس لا يبيّن : ما الذي يحدث لي ؟ .. ومن أنا لاستحق كل هذا الفرح ؟ ..

وكلت أسئل نفسي : ومن أنا لاستحق كل هذا الحب ؟ ... أليس عاراً أن أفرح كل هذا الفرح ، في هذا العمر ، وفي تلك الأيام ، ووسط تلك الحرب ؟ .. ولكن ذلك فيما بعد ، فيما بعد - وقتها حين تركتني أمام باب ذلك المقهى ، مقهاناً ، وقالت إنها ستتركني .. إنها تخشى أن تكون قد أحببتني .. وقتها وقفت في الطريق مزروعاً كواحدة من تلك الأشجار ، لا أسمع شيئاً ، ولا أبصر شيئاً غير تلك الكلمات : أخشى أن أكون قد أحببتك ! ... لا أفكّر حتى في معناها ، اتركها تتخللني كيما تشرب روحى الجافة المتشقة ذلك الندى الذى أبطأ عنها طويلاً ..

أخشى أن أكون قد أحببتك ! ...

شراع أبيض يمرق بسرعة فوق موج أندق ..

★ ★ ★

وفي المساء نفسه تتكلمين ، يأتي صوتك في التليفون صفيراً ومنذما : هل يمكن أن أراك ؟ .. ونلتقي فتسقط كل حساباتي . تضيع كل الكلمات التي أعددتها لكى أررك وأرد نفسي إلى العقل . أخذك في نراعى بمجرد أن أراك . أقبلك في فمك . أمسك نراعك . أضمك . أبعدك عن قليلاً كيما أرى وجهك ، لكى أثق أن هذه أنت وأنتى أنا ثم أضمك من جديد ..

نمشى في الشوارع الخافتة الضوء . أضم يدك وتضمين يدي . تقولين كائنة تتكلمين غيري . لم يكن هذا عدلا . لم يكن عدلا أن ألاك وأن أحبك .. ولا أفهم ما تقصدين بالضيبيط ولكنى أكمل لم يكن هذا عدلا أن ألاك في هذا العمر وأن يأتينى كل هذا الحب . لكننا مع ذلك كنا نضحك . كنا مدهوشين وكنا سعيدين ، وكنت تمشين بسرعة ، كائنة تجذببى من يدي ، تطئين الأرض بخفة كعادتك ، كائناً تلمسينها بأصابع قديمك وحدها ، وكنا قد دخلنا دون أن ندرى تلك الحديقة وأخذنا نمشى في ممراتها التي ينيرها القمر وحده وأنا أحبك والليل الجميل غاللة تضمننا وأنا حولك وأنت حولي ورأسك على صدري وتحسسين يدي وتسألين هل تشعر بالبرد فاقول لا وترفعين رأسك قليلاً وتفغمفين بشئ من الحيرة هل كل هذا صحيح ؟ لا نحلم ؟ .. وأقول وحتى لو كان حلماً فما أجمله . ويصحو في الليل طائر يرفرف بجناحيه على شجرة وتسقط من الشجرة ورقة فوق رأسى فتفرحين بها وتضعينها على شفتيك وتستدرين نحوى وأرى في ضوء القمر وجهك المستدير وسط حالة شعرك الذهبي وتبتسمين فتظهر تلك الخطوط التي أعشقها في ذننك وحول عينيك وتسألينى لم تحب أن تقبلنى في النور ؟ ! فاقول لأنى أحب أن أرى وجهك ، فتردين ولكنى أراك وأنا مغمضة العينين .. من شهور طولية أراك وأنا مغمضة العينين وتسبلين جفنيك فاقبل هاتين العينين وتضعين أصابعك الطويلة الناعمة حول رأسى فاقبلك مرة أخرى ، ولكنى أسمعك وكائنة تعتذررين أنت تؤلنى

فأتراجع وأعتذر أنا ، وتسندين رأسك على كتفي وأنت تقولين ولكن أريد هذا  
الالم ثم تقليلتني قبلات سريعة في وجهي كله وفي جبتي وتقولين باتفاق مقطعة  
ما الذي يحدث لنا ؟ .. فاقول لك ها أنا أحبك مثل صبي صغير . انتهى عمري  
ولكن أحبك وكأنني أبدأ هذا العمر .. فتقولين بضحك صافية وأنت تضعين رأسك  
في صدري ولكن لا تعرف أن كل المحبين صغار لا عمر لهم وأن الحب طفل ؟ ..  
وكلت أعرف أيضا أنها كذبة ولكن ما أجمل هذا الكذب ! .. ما أجمل هذا الوهم !  
.. وأنا أحبك ، وأنت معي ، في الليل الحنون ، في الحديقة الحانية ، ولا تعودين  
صغيرة ولا أعود كهلا ولكننا مخلوقان معا في ذلك القمر الفضي ، في عمر واحد ،  
دون عمر ، في قلب الحب الطفل ، في الزمن الوحيد الأبدي ، وأنا أحبك ، وأنت  
معي ..

وكان هذا في البدء ، ليلة أصبحنا واحدا .

واذ أرجع من عندك في ليلة الحب تلك وقد اكتملنا واحدا ، أسيير وسط كتل  
البيت الحجرية المظلمة التي تقبها كوى النور القليلة السهرانة ، أسيير وأناأشعر  
بالبرد فأضع يدي في جببي معطفى وأحث الخطى ، ولا أريد مع ذلك أن أرجع  
إلى البيت ، لا أريد أن يقيدني مكان ، أتمنى لو أحلق فوق هذا العالم الجدارى  
الأصم الكثيف وأنت معي إلى دنيا أخرى ناعمة وشفافة لا يحدها الطوب ولا  
المواعيده ولا الصحف والحروب ولا الجوع ولا الموت ولا هموم الأمس ولا مفاجئات  
الغد - دنيا نصنعها معا ، لا عمر لها حتى ولو كانت قصيرة العمر ، هنا والآن ،  
دنيا تصحح كل الماضي وتحموه ، دنيا تصلح كل الحاضر ولا تبقى شيئا غير  
الفرح ...

لا شيء غير الفرح !

وكانما كانت تلك الرغبة عدوى أصابتنا معا !

أذهلتني ليلتها وفي الليالي الأخرى قدرتك على الحب : رغبتك في أن تقضى  
الليل كله ساهرين وفي أن تفعل كل شيء بعمق وكأنه لن يأتي أبداً أى غد . كأن  
عليها أن تقتصر الفرحة لأننا لم نفعل لأن فستضيئ إلى الأبد : كنا نتحاب

وتصرين على أن أقرأ لك شعراً وتقرئين أنت لي ونخرج في عمق الليل لنتمشي في الشوارع الخالية الباردة متعانقين ثم نرجع لنستأنف كل شيء من جديد . ولم أكن أصدق أنتي معي ، يمكن أن أكون فعلاً دون عمر ولكنني كنت أكثر حرصاً منك على ألا تضيع لحظة واحدة من عرسنا الليلي المستمر .

وكانت لك طقوسك . تحبين أن ترقدى متکورة على جنبك وركبتاك عند صدرك وأنت مغمضة العينين . إيهامك في فمك تمتصي به بصوت خافت ورثيب ، وأميل عليك فتتظاهررين أنت أجملت من نومك وتصدررين غمومات وكلمات ناقصة لا معنى لها كمناغاة طفل رضيع وأنت تمدين ذراعك لمعانقتي . وتقولين بصوت صغير قبلني .. قبلني كثيراً .. قبلني في كل مكان ، ولم أكن بحاجة إلى مجهد كبير لكي أفهم أنت تحبين كل ما يردد للطفولة . قبل أن تستيقظ فيك الأنوثى كاملة وناضجة . أفهم .. ولكن كيف أفهم ما حدث لي أنا ؟ .. كيف استطعت في ذلك الخريف المتأخر من العمر أن أكون نداً لفتوك العارمة ؟ .. أن أغوص معك في تلك الدوامات الليلية فلا أغرق فيها ولا أنتهي ؟ .. وأين ذهب الضغط والصداع خلف الرأس وتلك الزغالة التي لا تنتهي في العين ؟

أوشكت أن أضحك حين قال لي الطبيب في يوم الكشف الدوري : هل رأيت ؟ .. ما أنت الآن توشك أن تكون عادياً تماماً . أرى أنت تتبع النصيحة . لا انفعالات ولا مبالغة في أي شيء : أليس كذلك ؟

قلت نعم .

قال - والصحافة . هل غيرت مهنتك ؟

- امتنعت عن الصحافة .

- هذا أفضل بكثير . في مثل حالتك يحسن أن تتجنب كل ما يرفع الضغط . ولم أكن أكذب على الطبيب . كنت قد توقفت منذ مدة طويلة عن كتابة الرسائل إلى الصحيفة وعن مجرد الاتصال بها . كانوا سعداء بذلك وكانت أنا سعيداً . لكم كنت سعيداً ! .. فجأة في تلك الأيام أشرق في ذهني أنني حاولت كل شيء أن أكون ابناً طيباً وزوجاً جيداً وأباً باراً وإنساناً له مبادئ وصحفياً له ضمير

وعجزوا وقورا يدبر لستقبل أبناته بعد أن يموت .. أشرق في ذهني أتنى حاولت كل شيء غير الفرح .. غير أن أكون سعيدا داخل جلدي .. فائية نعمة أن أعرف في حياتي ، ولو تكون هي مرة قبل النهاية ذلك الفرح المقدس الذي لا ييفي غير ذاته .. أشرق في ذهني أتنى كنت عبر تلك الشهود مع بريجيت أتمس الطريق إلى حقيقة كانت هناك طوال الوقت ، ولكنني كنت أعمى عنها : أتنى ظلت باستمرار أمثل أدوارا حتى غاب عني أنا نفسي ، وسط كل تلك الأقنعة ، وجهي الحقيقي .. أتنى حتى لم أحلق في التمثيل عاليا .. كان جنحاي أنا أيضا من شمع ذايا في شمس الحقيقة .. ذايا في بطء معدن أوشك أن يقتلني ... فما أسعدي لاني أخيرا سقطت على الأرض ! ..

من أكون ؟ .. ها أنتا أعرف أخيرا من أكون .. لست مهما على الإطلاق ! لم .. أكن مهما في أى وقت ! .. ابن الفراش .. نائب رئيس التحرير .. دخلت بورسعيد .. صعدت جبال اليمن .. ظظ .. ظظ .. ماذا فعلت في حياتك بعدها ؟ ... عشت تتلذذ بتعذيب نفسك كما قال إبراهيم .. لم تفعل حتى مثل ماريان ولا مثل إبراهيم ولا حتى مثل مولار .. واجهت الحرب الحقيقة فأسرعت تعقد صلحك المنفرد ثم رحت تعتبر نفسك ضحية وشهيدا .. شهيدا لأى شيء .. ضحية لمن غير غرورك وضعفك وطمعك بأن ترد الدنيا صفة لمن تردها أبدا إلا بأن تسرق منها السعادة ؟ .. أية فرحة إذن لاني أخيرا قد سقطت ! .. أية فرحة .. أن أفقد الآن كل ذلك الماضي لكي أجده يا بريجيت ! ..

واما بقى الآن فهو السعادة ! .. لاشيء غير السعادة ..

معذرة أيها الأمير هاملت ! أترك لك أنت ألا يبقى سوى الصمت .. أنت يليق بك الصمت الجليل وأنا ما كتب لي أن أكون أنت .. إن أنا إلا عجوز مخدوع شقشق لحظة بالكلمات فلم تتو الكلمات إلا في أذنيه ..

معذرة أيها الأمير ، لأن ما بقى لي هو السعادة ! ..

وسامحني يا إبراهيم ، لأنها لا ترجع لي في آخر العمر كعقاب ، بل ترجع نعمة ..

## الفصل الثامن

### دع هذا اليوم يبطئ

نسبيت أشياء كثيرة في تلك الأيام من بينها حكاية الأمير حامد . بعثت له مع ذلك رسالة شكر مع يوسف بعد أن خرجت من المستشفى ثم غاب عن ذهني تماماً هو ومشروعه الصحفى . لكن يوسف اتصل بي بعد فترة ليقول إن الأمير «يسعده» أن يراني ، شعرت في لهجة يوسف بنوع من الإلحاح فحدّثنا موعداً .

اصطحبني يوسف إلى الجناح الذي يشغله الأمير في فندق يطل على النهر ويرجع طرازه إلى قرني م xsi ، تميّزه نوافذ عريضة عالية ، تحيط بها في الصيف زهور منسقة خلف أسيجة من الحديد المشغول على شكل قلوب صغيرة متباورة . وقتلت ليوسف ونحن في المصعد الخشبي العتيق الذي كان يئن ببطء في طريقه إلى الطابق الثالث : هذا أمير من نوع خاص جداً . لماذا لم ينزل في واحد من الفنادق الحديثة التي يفضلها الأثرياء العرب هنا ؟

فرد بلهجة ملغزة . ستراه الآن بتفسّك وتعرف كيف هو .

فتح لنا الباب شخص أسمّر ضخم . هندي الملامح، قادنا بوقار عبر ممر يجتاز غرفاً مغلقة إلى صالون واسع تكشف نافذته النهر . وانتظرنا هناك لحظة قدم لنا أثناها تابع آخر أسمّر يرتدي سترة بيضاء وقفازاً أبيض مشروبات مثّجة .

نظرت إلى ساعتي ، وكانت هي السادسة بالضبط حين فتح الحراس الآسيوي الذي استقبلنا الباب على آخره، وظل يمسك به بينما دلف من الباب شخص وراءه فتاة شقراء تمسك مفكرة وقلمًا . فهمت أنه هو الأمير حيث هب يوسف واقفاً وقال له الآخر بطريقة عابرة .

ـ أهلاً يا يوسف .

وقفت أنا أيضاً وهو يتقدم مني بيد معدودة على آخرها ويقول بلهجة وبرودة:  
- أهلاً بالأستاذ ..

ضغط على يدي وهو يقول : حمداً لله على السلامة . كنت مشغولاً عليك ..  
وغمقت بعبارات الشكر والأمير يجلس قبالتنا على أريكة وهو يبسط يده  
نحونا قائلاً تفضلوا .. تفضلوا ..

وبمجرد أن جلسنا سالكتنا الفتاة الشقراء باللغة الإنجليزية عم نشرب وهي  
ترفع المفكرة التي تحملها ، فقال لها الأمير بإنجليزية لا شائبة فيها وهو ينظر نحو  
يوسف :

- صديقنا يفضل نبيذك المعتق على ما أظن ..  
أو ما يوسف برأسه موافقاً والتقت الأمير نحوى بنظرة مستفهمة فقلت القهوة  
دون كافيين .

قالت الفتاة الشقراء : وسموك ؟  
رفع يده دون أن ينظر نحوها فادركت أنه لا يريد شيئاً وانسحبت على الفور  
ومن درائهما الحارس الذي أغلق باب الصالون .

كان الأمير حامد في حوالي الخامسة والثلاثين ، مدور الوجه ، حليق الذقن ،  
تميل بشرته إلى البياض ولكن بملامع شرقية واضحة ، يؤكدها شعره الفاحم  
السوداء وعيناه العسليتان اللامعتان ، وكان يلبس بذلك كحلية وربطة عنق تتداخل  
فيها زخرفة منمنمة من الألوان سماوية وصفراء هادئة . وبدا أميل إلى القصر لكنى  
شعرت على الفور بحضوره القوى .

كرر الأمير وهو ينظر نحوى : حمداً لله على السلامة . كنت قلقاً عليك بالفعل  
لولا أن يوسف كان يطمئنني باستمرار ..

نطق يوسف لأول مرة قائلاً بحماس : كنت انقل له تحيات سموك دائماً .  
وقلت أنا : شكرنا يا سمو الأمير . غمرتني بفضلك أثناء المرض بتلك الزهور .  
كانت تحمل لي كل يوم رسالة من الأمل .

فقال وهو يستند بظهره الى الاریكة المذهبة المساند ويخرج من جيشه الداخلي  
مسبحة كهرمانية :

- هذا أقل ما يجب ، لا أدرى إن كان يوسف قد قال لك ألم لا ، ولكنى كنت  
من قرائط فى فترة دراستى فى مصر فى كلية فيكتوريا . لم أنقطع بعد ذلك عن  
متابعتك عندما كنت أدرس فى انجلترا ، ولكن ..  
أكملت : ولكن لم يكن هناك الكثير لتابعه !

فقال وهو يحرك حبات مسبحته : يؤسفنى ألا يأخذ قلمك الآن المكان الذى  
يستحقه ولكن كلنا نعرف الظروف .

ثم أضاف باستهانة وكأنه تذكر شيئاً : أعرف جيداً رئيس التحرير عندكم .  
أعرفه منذ كان مراسلاً لصحيفتكم فى بلدنا ، هو يعني صحفى وانسان .. ربنا  
يسهل له كما تقولون فى مصر !

قلت بهدوء : هو زميل قديم . ربما اختلف معه فى الرأى .. ولكنه انسان طيب  
بالفعل . كان موقفه كريماً مع أبناء مرضى وبعده .

وفى تلك اللحظة فتح الحارس الباب ودخل الخادم بالقفازات البيضاء ، وبعد  
أن وضع المشروبات أمامنا انصرف وهو يتحرك نحو الباب بظهره وقال  
الأمير حامد :

- فى الواقع ان فكرتى كما شرحتها ليوسف هي أن نصدر صحفة صغيرة  
ولكنها تضم صفة الأقلام العربية . أقصد الأقلام القومية والقدمية . أنا أعرف  
اتجاهك الناصرى بالطبع ، ويخطئ من يحسب أنتا كثيراً ضد المرحوم ناصر.  
بالعكس نحن ، أو على الأقل أنا ، أعرف أنه الوحيد الذى حاول أن يصنع شيئاً  
لهذه المنطقة . لم يكن أحد يسمع بنا قبله ولكنه أعطى لبلادنا قيمة فى العالم .  
وكان يتعلم من أخطائه ، عرف تماماً قبل أن يموت أن السوفيت كانوا يخدعونه  
وأنه لا مصلحة لنا فى أن ننattack أمريكا . وكان على وشك أن يتغير وأن يغير  
ولكن ..

وتذكر شيئاً فضحك ضحكة صغيرة وهو يقول : فهم رحمة الله أخيراً روح

الشعب . أنت تعرف رأينا في مسألة زيارة الأضرحة . ولكنني تفاجلت مع ذلك عندما زار ضريح السيدة زينب بعد النكسة . وإن كان الوقت لم يمهله . ثم تنهى الأمير وهو يتأمل مسبحته كائنة يخاطبها : انظر الى ما وصلنا إليه . انظر الى حالتنا الآن في لبنان .

قلت بالرغم مني : في الواقع إنني لا أرى الآن ما يحدث في لبنان ولا في غيره . الطبيب ..

قاطعني الأمير : أعرف .. أعرف . الطبيب منعك من أي انفعال . وأنا بالطبع أكثر منه حرصا . لا أريدك أن تعرض نفسك لشيء يمكن لا قدر الله أن يحدث انكasaة . بالعكس . أعتقد أنك في حاجة الى قترة من النقاوة . ما أفكر فيه الآن وما طلبت من يوسف أن يحذثك عنه هو أن تشارك معنا بالتفكير النظري في هذه المرحلة . أريد أن تفكك ، بهدوء كامل بالطبع ويراحتك تماما في تصورك الخاص لصحيفة قومية في هذه المرحلة . كيف تكون هذه الصحيفة شيئا لا يكرر الصحف الأخرى التي تصدر هنا في أوروبا . ما هي الأبواب التي تتضمنها ؟ .. ومن هي الأقلام التي يمكن أن تساعده فيها للخروج بتصور جديد للفكر القومي ؟ وما هو الشكل الذي يجب أن تأخذه .. وهل تكون أسبوعية أو نصف شهرية أو حتى يومية إلى آخر هذه الأشياء ..

قلت في حذر : ولكن سموك تعرف أولا وقبل كل شيء أن الصحيفة مشروع يستهلك اموالا طائلة ومستمرة في كل عدد . قبل التفكير في هذه الأشياء يجب أن تفكك في حجم الجمهور الذي سيقرأ هذه الصحيفة ، وأهم من ذلك في الإعلانات لأنها مصدر التمويل الأول ..

قال الأمير بلهجة باترة : لا تحمل هما من هذه الناحية . أنا كلفت من يدرس الناحية المالية للموضوع وأعرف بالضبط تكاليف الطباعة والتوزيع سواء كانت الصحيفة أسبوعية كما أميل أنا الآن ، أو حتى لو أصدرناها يوميا يمكن أن أتحمل ذلك لأنني لا أفك في الربح ، بل أتوقع الخسارة . ألم تقل له ذلك يا

كان يوسف يجلس في مقعده منحنياً ويتبع حديثنا بانتباه دون أن ينبع بل دون أن يلمس حتى كأس النبيذ الموضوعة أمامه ، وحين سأله الأمير قال :

ـ في الحقيقة أني فضلت أن تعرض سموك عليه المشروع بنفسك لأنك أدرى ب意大ده .

قال الأمير حامد مستنكراً : تعنى أنك لم تعرض عليه أهم شئ وهو أن يسافر فترة النقاهة لكي يفكر بعدها في كل هذا ؟ .. ألم أكفلك بذلك ؟

غمغمت بالشكير ولكن الأمير قال :

ـ أنا لا أجاملك يا أستاذ . إيمانى أن الكتاب ، أقصد الكتاب الحقيقيين ، هم أثمن ما نملك ، لأنهم هم الذين يشكلون العقل والضمير . هل تظن أننا كنا سنصل إلى هذه الحالة لو لم تكن الأمة معتلة الضمير ؟ .. لهذا أعتقد أن المحافظة على كتابنا من أوجب الواجبات ، ولهذا سمحت لنفسي أن ألح على يوسف منذ خروجه من المستشفى أن تذهب لترى نفسك تماماً في أي مكان تحبه ، وسمحت لنفسي أن أرسل معه مساهمة متواضعة لهذا الفرض ، أعتبرها في الحقيقة واجباً لا أكثر .

ثم التفت إلى يوسف بنظرة تأنيب قائلاً : ما معنى هذا ؟ .. أنا في الواقع في دهشة لأن الأستاذ مازال هنا حتى الآن ولهذا طلبت أن أراكما . ماذا فعلت يا يوسف في التكليف الذي طلبته منك ؟

صعد الدم إلى رأسى ونظرت إلى يوسف الذي وضع يده في جيب سترته الداخلى وأخرج ظرفاً طويلاً وضعه على المنضدة التي تقىصل بيننا وبين الأمير وهو يقول : ما هو الشيك الذى أرسلته سموك لم أعطه للأستاذ ولم أصرفه .. ولكنى قاطعته قائلاً بشئ من الحدة : أنا شاكر جداً ولكنى لا أقبل .. أقصد أنى لا أحتج الآن إلى أى سفر أو نقاهة ..

وقال يوسف وهو يشير نحوى : لهذا السبب لم انفذ طلب سموك . لم أعتقد أن الاستاذ سيقبل هذا منى أنا ، قلت أيضاً إن الأفضل أن تعرض سموك عليه ذلك .

كان الأمير يحدجني بنظرية فاحصة يكاد يكون فيها نوع من البرود وقد يكتد سبحته في يده ثم التفت يخاطب يوسف وهو يشير الى الطرف الايبيريا باصبعه:-  
- خصم هذا الشئ: في، حبيك أولا ..

واسترد الأمير حامد بسرعة تعبير وجهه السمع والتفت يخاطب يوسف بلهجة ودية : ولكن كيف إذن تريد أن تصمّب صحيفا ؟ .. الصحفي يا سيد يوسف يترجم أفكار الناس على حقيقها ، كان يجب أن تقول للأستاذ إن هذه ليست حتى هدية ولكنها مقابل بسيط لتبّعه بالاشتراك معنا في التخطيط للصحيفة . حين تسمع حالي الصحية بذلك بالطبع .

قال يوسف بابتسامة صغيرة : أنا مازلت مشروع صحفي يا سمو الأمير :  
أردت أن أغير الموضوع فقلت : ولكن هناك فكرة واتتني اثناء الحديث ..  
فهمت أن المطلوب صحيفية متميزة عما يصدر هنا في أوروبا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير حامد : بالضبط . لا نريد أن نكرر تجارب صحف لندن وباريس ..  
- ولكن يوجد الآن بالفعل حشد من الصحف التي تخاطب العرب في أوروبا .  
فبما رأى سموك في صحيفة عربية مطبوعة بالإنجليزية أو الفرنسية تنقل وجهة  
نظرنا هنا ؟ .. ذلك هو ما نحتاج إليه بالفعل . كان هنا منذ وقت قريب زميل قادم  
من لبنان وجد صعوبة في أن ينشر مجرد خبر أو بيان ..  
قال الأمير : فكرة حيدة جدا ..

ولكن الفتور فى صوته أوجى بأنه يعنى العكس تماماً . سكت لحظة قبل أن يحنى رأسه مخاطباً حبات مسبحته من جديد : بالطبع هنالك صعوبات .. أولاً من أين ناتى بالصحفين العرب الذين يتقنون الكتابة بلغات أجنبية ؟ .. يمكن بالطبع نلجم إلى الترجمة ولكن فى هذه الحالة هل ستخرج المقالات بقوتها الأصلية ؟ ومن سيكون جمهور هذه الصحيفة ؟ .. ستهם قليلاً جداً من العرب هنا وإن لهم حداً تقريراً من الأوروبيين .. ثم معنى ذلك أنه سيكون لدينا طاقم من المحررين: عرب وأجانب ، وهذا كثير إلى حد ما .. أقصد من الناحية الاقتصادية ..

قلت صادقاً : سموك تلخص الأمور بمنتهى الدقة وتضع يدك على أهم

المشاكل..

لم يجد عليه أى رد فعل ولكنه قال وكأنه مستغرق في التفكير : ومع ذلك فهي فكرة جيدة جدا كما قلت . سنحتاج في وقت من الأوقات إلى مخاطبة الجمهور الغربي ، ولكن فلنبدأ أولا بالصحيفة العربية . وعندما تتجه يمكن أن نصدر ملحقا شهريا أو نصف شهريا باللغة الأجنبية .

قال ذلك وهو ينظر في ساعته فقام يوسف وتبعته ونهض الأمير وهو يقول : سأنتظر منك أن تفك في الموضوع ، ولكن ليس على حساب صحتك كما اتفقنا . بعد أن ترتاح تماما ..

- أعدك بذلك ..

فقال وهو يشد على يدي بقوه : أعرف أنك تحترم وعدك . وفي المرة المقبلة سيعين اللقاء في بيتي هنا ، فائنا لا أرتاح كثيرا في الفنادق وسيكون بيتي هو بيتك بالطبع .

ثم التفت إلى يوسف وقال : وأنت مهمتك أن تتبع الاطمئنان على الاستاذ . ستتصل بك ليندا إن احتجت منك إلى شيء في الأيام المقبلة . مع السلامة .

★ ★ ★

وبينما كنا ننزل من عند الأمير حامد كانت السعادة تطفر من وجه يوسف ، ولم يملك نفسه فقال ونحن في المصعد : أنت أعطيته درسا يا استاذ ..

- ماذا تقصد؟

ولتكن بدلا من أن يرد قال وتعبير الرضا عن النفس يغمر وجهه : تعرف ؟ .. لو لم أخرج الظرف عندما سأله عن النقود ، ولو لم يكن متاكدا أن الشيك في داخله ! .. ولكنى عملت حسابي ! .. ألم أفهمه بعد كل هذا العمر ؟

- أنا شخصيا بكل صراحة لا أفهمه ولا أفهمك!

رحنا نتمشى على شاطئ النهر مقابل الفندق ، وكانت الأشجار المصفوفة هناك تنفس أوراقها بسرعة أكثر من الأشجار في المدينة فكنا نخطو فوق ذلك

المهاد من الأوراق الصفراء التي تصدر خشخشة خافتة مع وقع أقدامنا وكانت  
لسبب لا أدريه أرتاح لهذا الصوت كما لو كان يحمل رسالة مبهجة خفية . لماذا ؟  
.. لا أدرى ! ولكن كل الأشياء في تلك الأيام كانت تحمل رسالة وكانت تحمل  
بهجة .

قلت ليوسف : كنت أخشى أن تضايقني هذه المقابلة لأنني لا أحب هذه  
المجامالت الرسمية ، ولكن هذا الأمير شخص مختلف . يدعو إلى التفكير .  
قاطعني يوسف بحماس .. ألم أقل لك ؟ .. هو غير الآخرين . صاح ويفهمها  
وهي طائرة ! .. ولكن مشكلته أنه يعتقد أنه يمكن أن يشتري جميع الناس . يقول  
إن لكل انسان سعرا . هل تعرف قيمة الشيك الذي تركه لأعطيه لك ؟  
- لا أريد أن أعرف .

- مع ذلك فهو عشرون ألف دولار .  
أطلقت صفيرًا خافتًا وقلت : هذا للنقاومة فقط .. اذن كم اساوى فعلاً عند  
الأمير ؟ .. ولماذا ؟ .. ما أهميتي بالنسبة له ؟ ..

قال يوسف متحيرًا وكأنه قد فكر أيضًا في المسألة من قبل : بصرامة لا  
أعرف . بالطبع هذا المبلغ بالنسبة له مثل قرش تعريفة بالنسبة لي . هو يصرف  
مثله كل يوم وربما أكثر . هل تصدق أن جناح الفندق مجوز له على مدار السنة  
حتى اثناء سفره ؟ بالإضافة إلى غرف الحراس والموظفين والسكرتيرين والخدم ..

- ولكن ماذا يفعل هنا بالضبط ؟

- عنده كثير من الشركات ، وهو يتاجر في الخيول العربية وفي البورصة وفي  
كل شيء . وعنه أيضًا شركات في أمريكا وفي بلده وفي كل مكان في الدنيا ..  
- ولكن شخصاً مثل هذا يا يوسف ما حاجته إليك أو إلى ؟ يستطيع أن يشير  
بأصبعه فيجد بدل الصحفي مائة ، فلماذا نحن ؟ ..

- سأقول لك ..

ولكنه تراجع وقال بلهجة ضارعة تقريرًا : ومع ذلك فئاً أرجوك أن تفكير في

المسألة ! .. أقصد أنت يمكن بالفعل أن تقدم له هذا المشروع ، أليس كذلك ؟

ـ لا توجد مشكلة في هذا . عملت طول عمرى بالصحافة ويمكن أن أقدم له هذه المشروع في خلال أيام ، ولكن لماذا ؟ .. هل هو بالفعل حريص على العروبة والقومية كما يقول ؟

أطلق ضحكة متقطعة ساخرة: ها .. ها .. ها .. مؤكداً أنك لم تبلغ هذا الطعم يا استاذ ؟

قطعته بشيء من نفاد الصبر :

ـ إن كنت تعرف شيئاً يا يوسف فلماذا لا تقوله فوراً ؟

بدأ كلامه بشيء من التردد : صدقني أن ما أعرفه قليل . أعرف لماذا يريدنى أن أعمل معه ، أو أظن أنني أعرف . السبب أن عندي اقامة شرعية في البلد وربما أحصل على الجنسية قريباً واستطيع أن استخرج تصريحها بالصحيفة باسمى . وثانياً فهو يثق بي لأنني عملت عنده سائقاً لفترة وهو يعرفني تماماً . وأعرف أيضاً بالتقريب لماذا يريد أن يصدر الصحيفة ..

ـ هذا هو المهم . لماذا ؟ أدخل في الموضوع مباشرة يا يوسف .

ـ الأمير حامد يا سيدى شقيق أصغر لحاكم البلد ، ولكنه يعتقد أنه أحق بـه يكون ولـي العهد بـدـلـ الشـقـيقـ الأـكـبـرـ ، لأن ولـي العـهـدـ غـيـرـ مـعـلـمـ ويـقـولـ الـبعـضـ إنـهـ هـنـاـ أـيـضـ ..

قال يوسف العبارة الأخيرة وهو يمسح جبهته بيده ، لم أكن سمعت هذا التعبير من قبل ولكنني فهمت معناه وواصل يوسف كلامه : ومع ذلك فالحاكم يخاف من ولـي العـهـدـ لأنـهـ اـنـصـارـاـ . ويـخـافـ أـيـضـ إنـعـينـ الـأـمـيرـ حـامـدـ بـدـلـ ..

قطعته ضاحكا ..

ـ أن يأخذ الأمير حامد مكان الحاكم نفسه !

ـ عليك نور يا استاذ . والصحيفة على ما اتصور ستكون سلاحاً يحارب به ولـي العـهـدـ ويـضـغـطـ بـهـ عـلـىـ الـحـاـكـمـ . لهذا اـوـشـكـتـ أـنـ اـضـحـكـ عـنـدـمـاـ تـكـلـمـ

حضرتك عن الصحيفة الافرنجية وعن نشر مشاكلنا في أوروبا وهذا الكلام .  
اعتقد يا سيدى أنه يريد صحيفة قوية بالفعل يتكلم عنها الناس وكتب فيها أقلام  
كثيرة ، ولكن ما يهمه من كل هذا هو بلده في الخليج . عشرة أعداد منها تدخل  
إلي هناك ولو بالتهريب ، وينتهي الغرض من الصحيفة .

سبقت يوسف خطوة وجلست على أحد المقاعد الخشبية التي تواجه النهر فجاء  
وجلس الى جواري وقال لي قلقا حين لاحظ صمتى :

ـ هل أتعبك المشى ؟

ـ بالعكس . المشى مفيد في حالتي كما قال الطبيب . ولكنني افكر فيما قلت ،  
أنت ذكي يا يوسف وترى بكل شيء مما سبب اهتمامك بالموضوع ؟ .. هل هي  
مسألة عمل وكسب لا غير ؟

اندفع يقول بشئ من الحرارة : بالطبع أنت تقول لنفسك سائق ومتشرد وطبخ  
ما علاقته بالصحافة ؟ .. أنا ..

قاطعه : أنا لم أقل ذلك أبداً . كل هذه التجارب ستفيدك حين تكتب ، ثم إنك  
شرحت لي أنك درست الصحافة في الجامعة .

قال والحزن يغمر صوته : أشكرك لأنك تجاملني ولكنني في الواقع لم أكن  
اتصور أن اقترب من سن الثلاثين وأنا في هذه الحال . كنت منذ الصغر متفوقاً  
في الدراسة وكان أبي فخوراً بي وتوقع لي مستقبلاً كبيراً . من صغرى عشقت  
الصحافة . في المدرسة الثانوية كنت مذيع الإذاعة المدرسية . وكنت أرسل مقالات  
لكل الصحف والمجلات ظهر بعضها في بريد القراء . وفي الجامعة كنت طالب  
امتياز في السنة الأولى وفي السنة الثانية . كانت مجلة العائط التي أكتبها من  
الألف إلى اليماء تجذب الطلبة عندما أعلقها يوم السبت كل أسبوع . حتى طلبة  
الكليات الأخرى كانوا يأتون لقراءتها ، أسميتها «النديم» وحاولت أن استفيد فيها  
من أسلوب التنكيد والتبيك فشعر الطلبة أنها تختلف عن الصحف الأخرى التي  
كانت تملأ الجامعة أيامها في سنة ٧٥ ٧٦ . وكان أبي يكتب لي عنوانين  
الموضوعات بالخط الثلث بقلم أحمر ويشاركتني برأيه في تحرير كل عدد ..

لزم الصمت فجأة وقد شرد بفكرة بعيداً وقال بعد فترة وكأنه لا يكلمني ألوحشني أبي ..

أردت أن أخرجه من الاكتئاب الذى حل به فسألته : وعن أى شى كنت تكتب  
في صحفتك أيامها ؟

قال والحياة تعود إلى صوته بالتدريج : عن كل شيء يحدث في البلد . ورثت عن أبي حب عبد الناصر . كان مديرًا في شركة من شركات القطاع العام ولكنه لم يهد يده يوماً إلى الحرام . وعشنا مستورين حتى بعد خروجه إلى المعاش . كان المعاش يكفياناً ويزيد ، أقصد في البداية وازدادت حباً لعبد الناصر وأنا أرى ما حدث لنا بعد موته . أرى أبي العجوز يتذمّر لكي يدبر أمورنا بجعل المعاش الذي لم تعد له قيمة بينما الأوصوص الجدد يزدهرون في كل مكان . وكتت اكتب عن ذلك في صحيفة الحائط كنت أقارن بين حال الإنسان البسيط مثل أبي أيام عبد الناصر وما أصبح عليه في عهد الانفتاح ، رشحت نفسي أيضاً لاتحاد الطلبة وفزت ، وشاركت في كل الأضراب والاعتصامات التي حدثت أيامها .. ولكن جاءت بعد ذلك جماعات اصحاب الجلابيب التي اطلقتها علينا الحكومة فكانوا يمزقون صحفنا كلما علقناها ، وإن قاومنا كانوا يضربيوننا بقبضات حديدية شيكوكنها في أصابعهم أمام أعين حرس ، الجامعة الذي ، كان يحرسه وحدهم .

قلت متنهداً : اذن ما قاله ابراهيم الملائكي صحيح .. أنت حالك من حالنا .

قال يوسف بنبرته الحزينة : لا . غير صحيح . نحن قرأتنا لكم وتعلمنا منكم ونحن صغار . ولكن لما وقعت الفؤس في الراس وبحثنا عنكم لم نجدكم .

أوجعتني كلمته فقلت بلهجة الدفاع عن النفس : ماذا كانا نستطيع أن نفعل ؟  
في تلك الأيام بالذات التي تتكلم عنها كتبت أنا كتابا عن عبد الناصر ..

ثم وقفت وأنا أكمل : وعلى أى حال فائنا بدأت اشعر بالبرد . وثانيا فقد  
عاهدت نفسي منذ فترة لا أدخل في أى مناقشات وبالذات في السياسة .

هب يوسف ورائي قائلًا: أنا أسف . لم يكن في نيتى أبداً أن أضايقك . كل ما أردته هو أن أشرح لك لماذا يهمني موضوع هذه الصحيفة التي يريد الأمير أن

تصدرها أنا لم اتعذب وأتغرب لكي انتهى طباخا ..  
وكنا نرجع في اتجاه الفندق حيث ركنت سيارتي عندما قال فجأة بصوت خفيض :

- أريد يا أستاذ أن أخلص من هذه المرأة !

لم أعلق بشئ .. وتغيرت نبرة يوسف وكأنه يريد أن يصحح نفسه فقال :

- أرجوكم أن تفهموني ، أنا لست قليل الاصل، لست مثل الأجانب الذين يتزوجون بنات البلد للحصول على الإقامة ثم يطلقونهن بعد ذلك .. إيلين بنت حلال فعلا .. أقصد .. هل تفهموني ؟ أريد ..

ولكنه انفجر مرة أخرى : أريد أن أخلص من هذه المرأة !

- سأرئي يا يوسف ما يمكن أن أفعله ..

غيرأني لم أكن افكر وقتها في حديثه عن إيلين . كانت وخزة لومه لى تجب كل شيء آخر ..

★ ★ ★

لم يكن عندي موعد مع بريجيت في هذا المساء ، وقررت أن أكلمها لملتقي . ولكن عندما وضع المفتاح في باب الشقة سمعت صوت أم كلثوم يأتي من المسجل فعرفت أنها جاءت من تقاء نفسها وخفق قلبي بالفرح . كانت عندي شرائط كثيرة للموسيقى العربية والموسيقى الكلاسيكية غير أنها من كل الشرائط التي عندي لم تعيش سوى صوت السلس .

ويمجرد أن دخلت اندفعت بريجيت نحو فاحتضنتها بقوة . الأصح أنني تشيشت بها وكأنني أريد أن أحتمي .

وشعرت هي بشئ غير عادي فتراجعت إلى الخلف وراحت تتأملني ثم قالت بلهجة تهديد وهي تلوح باصبعها امام وجهي :

- حدث شئ هذا المساء . هل ارتكبت خيانة ؟ .. هل تستحق العقاب ؟ ..

كانت تلبس زى العمل، خلعت السترة وبيقىت بالبلوزة الخفيفة البيضاء «الجوبلة» القصيرة، وقد حلت ضفائرتها وتركتها تتسلل على كتفها اليمنى، ووقفت تواجهنى مبتسمة وهى تسدد إصبعها نحوى. فامسكت يدها الممدوة وقبلت تلك اليدين وأقودها نحو الكتبة الصغيرة فى غرفة المعيشة . كان مزاجها رائقاً هذه الليلة . وأدركت السبب حين رأيت زجاجة النبيذ المفتوحة على المائدة والكمية الناقصة منها .

وحكىت لبريجيت ما حدث فى مقابلة الأمير فقالت متظاهرة بالأسف الشديد وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى :

– ولماذا لم تأخذ هذه النقود أىها الساذج؟.. هؤلاء ناس يقذفون بالنقود من النافذة فعلاً . لو كنت أقف أنا تحت النافذة وألقى شخص فوقى عشرين ألف دولار وقال خذها . هى لك . فهل تتوقع أن أقول لا؟ .. بالطبع سأخذها فوراً وأصحابك معى فى رحلة حول العالم ...

– مهما كان الثمن؟

ولكن الرجل لم يطلب ثمناً كما قلت . يريدىك أن ترتاح . يحبك لأنك أنت . ولكن ليس كما أحبك أنا ..

ضغطت على يدها وأنا أقول : لو أصدق أن هذا صحيح! سحبت يدها من يدى فى عنف وقالت فى غضب : ولماذا أكذب عليك يا صاحب السمو لو سمحت؟ .. سأعيد لك اليخت الذى أهديته لى فى الأسبوع الماضى .. ولكنها انزلقت فجأة من جانبي وركعت على ركبتيها تحت الكتبة وهى تواجهنى

ووضعت يدها على صدرى وهى تقول : متى ننتهى من هذه الشكوك ومن هذه القصص؟.. متى تصدق فعلاً أنى أحبك لأنك أنت؟.. سئمت القلوب الغبية والقلوب الجشعة والقلوب الأنانية . متى تصدق أنى قضيت عمرى أبحث عن هذا القلب؟..

لرأت ذلك ثم قبلتني برقق فى صدرى فانحنىت أرفعها نحوى وأنا أقول : ولكنك تعرفين أيضاً أن هذا القلب كان فى طريقه إلى أن يموت قبل أن يلقاءك .

\* فهزت رأسها وقالت : لم أكن سأسامحك لو تركتني!.. هل تصدقنى؟.. أنا الأن أتعرف على بريجيت الأولى . أكتشفها وكأنى ألتقي بصديق قديم .

ثم قامت فجأة وصفقت بيديها وقالت : هيا، انتهينا الأن من هذه الحكاية . انتهينا منها إلى الأبد ، لن ترجع هذه الشكوك ولن يبقى غير أنت وأنا معاً إلى الأبد . والآن فروا إلى الشعر مع صوت هذه السيدة الجميل ..

وتوجهت بريجيت إلى رفوف الكتب الموضعية فى الصالة وسحبت ديوان المتنبى الذى تميز بخلافه السميك الأصفر وتعرف أنى أحب أن أقرأ فيه كثيراً - ثم فتحت الديوان وراحت تحرك رأسها بسرعة لليمين واليسار وهى تجил عينيها فى الصفحة المفتوحة وتقول بالعربية كل الكلمات التى تعلمتها منى وكأنها تقرأ شعراً :

السلام عليكم.. إزيك.. فين نضاره.. إنت جميلة جدا.. الشاي.. أهلا.. أهلا..  
ودفعت الديوان نحوى بعد أن انتهت وهى تقول : هيا .. إقرأ تلك القصيدة  
التي يوجد فيها البحر تحت شمس ساطعة .. التى تلمس فيها الأمواج الهدئة  
الشط وتنحسر برقق بينما تجلس النساء فوق الرمال يغزلن شباك الصيد ،  
والأطفال يساعدون أمهاتهم ، وفوق الصخرة يقف صبى يضع يده فوق رأسه  
ويتأمل البحر الأزرق ، وحين يرى أول القوارب فى الأفق يصبح بأعلى صوته فترى  
الأمهات الشياك والفنل .. ويجررين حتى تلمس أقدامهن الحافية الماء وتبتل ثيابهن  
وهن يلوحن ويتهلان ، ويحيى الأطفال عيداً على الشاطئ .. هيا ، تلك القصيدة التى  
قرأتها لى بالأمس .

ضحكـت وأـنا أـقول لـها: لا يوجد فـي هـذه القـصيدة شـيء مـا تـقولـين . لا يوجد  
فيـها بـحر عـلى الإـطلاق وـلم يـكتب هـذا الشـاعر شـيـئـا منـ الـبـحـر . لـو عـرـفـتـ مـعـناـها

لـكـنـها تـرـكـتـ الـكـأسـ الـتـىـ كـانـتـ تـشـرـبـ مـنـهـاـ عـلـىـ الـمـنـضـدـةـ وـوـضـعـتـ يـديـهاـ فـوـقـ  
أـذـنـيـهاـ وـهـيـ تـقـولـ: هـاـ أـنـتـ قـدـ أـفـسـدـتـ كـلـ شـيـءـ!.. أـبـعـدـتـ عـنـ سـمـعـيـ صـوـتـ  
أـلـمـوـاجـ .. شـمـ دـفـعـتـ الـدـيـوـانـ فـيـ يـدـيـ وـهـيـ تـقـولـ: هـيـا .. إـقـرأـ .  
فـتـحـتـ الـدـيـوـانـ كـيـفـاـ اـتـفـقـ وـيـدـأـتـ أـقـرأـ مـنـ الصـفـحـةـ الـتـىـ صـادـفـتـىـ :  
إـلـىـ كـمـ ذـاـ التـخـلـفـ وـالـتـوـانـىـ  
وـكـمـ هـذـاـ التـمـادـىـ فـىـ التـمـادـىـ  
وـشـفـلـ الـنـفـسـ عـنـ طـلـبـ الـمـعـالـىـ  
بـبـيـعـ الـشـعـرـ فـىـ سـوـقـ الـكـسـادـ  
وـمـاـ مـاـضـىـ الـشـبـابـ بـمـسـتـرـدـ  
وـلـاـ يـوـمـ يـمـرـ بـمـسـتـعـادـ ...  
أـغـلـقـتـ الـدـيـوـانـ وـأـنـاـ أـقـولـ :  
- لا أـشـعـرـ الـلـيـلـةـ بـالـرـغـبـةـ فـيـ الـشـعـرـ .

أـنـزـلـتـ يـديـهاـ إـلـىـ جـانـبـهاـ فـىـ يـاـسـ فـسـخـبـتـهاـ وـأـجـلـسـتـهاـ إـلـىـ جـانـبـيـ . كـانـتـ أـمـ  
كـلـثـومـ قـدـ اـنـتـهـتـ وـقـتـهـاـ مـنـ لـيـالـىـ الـقـمـرـ وـسـادـ الـشـقـةـ صـمـتـ . وـظـلـتـ بـرـيـجـيـتـ تـمـيلـ  
بـرـأـسـهاـ عـلـىـ كـنـقـىـ فـتـرـةـ وـلـكـنـهاـ رـفـعـتـ نـحـوـيـ عـيـنـيـنـ زـرـقـاوـيـنـ قـلـقـتـيـنـ وـقـالـتـ :  
- صـارـحـنـىـ بـالـحـقـيـقـةـ . حـدـثـ الـلـيـلـةـ شـيءـ غـيرـ مـقـابـلـةـ الـأـمـيرـ . مـاـ هـوـ؟.. مـاـذـاـ لـاـ  
أـشـعـرـ الـآنـ أـنـكـ مـعـىـ كـمـاـ كـنـتـ بـالـأـمـسـ؟

حـكـيـتـ لـهـاـ مـاـدـارـ بـيـنـيـ وـبـيـنـ يـوـسـفـ . قـلـتـ لـهـاـ إـنـتـيـ تـحـدـثـ مـعـهـ عـنـ أـحـوـالـ الـبـلـدـ  
وـلـأـنـهـ قـالـ إـنـتـيـ خـذـلـتـهـ . قـالـ إـنـهـ حـيـنـ بـحـثـ عـنـ لـمـ يـجـدـنـىـ . ظـلـتـ بـرـيـجـيـتـ تـنـطـلـعـ  
نـحـوـيـ لـحـظـةـ بـوـنـ فـهـمـ ثـمـ قـالـتـ :  
- وـلـكـنـ مـاـ أـهـمـيـةـ ذـلـكـ .. مـاـ أـهـمـيـةـ أـىـ شـيءـ؟.. أـلـمـ نـتـفـقـ عـلـىـ أـلـاـ يـهـزـمـاـ الـعـالـمـ

مرة أخرى؟ .. ألم نتفق حالاً على ألا يكون في الدنيا سوى أنت وأنا؟ ..  
مدت يدها وهي تقول ذلك ثم رفعت ذراعي ووضعتها حول كتفيها فمدت يدي  
الآخرى وضممتها إلى بقعة وأنا أقول لنفسي نعم، يجب ألا يكون سوى هي وأنا ..  
يجب ألا تهزمنا الدنيا .. مرة أخرى وكانت هي تكمل بصوت خافت ووجهها فى  
صدرى : نعم، هكذا .. هذا يدفعنى .. هذا يحمىنى . لم أعرف أبداً هذا السلام  
وهذه السكينة .. إلمسنى ، هل تشعر كيف تغيرت بريجيت؟ هل تشعر بها الآن  
امرأة تولد من جديد في سلام الحب؟ ..

وكنت تدفعين يدي في صدرك ، وتقولين بصوت خافت ، صوت طفولي ، ولكنه  
صوت متقطع مبهور الأنفاس - بريجيت ياسىدى .. لم تعرف أبداً مثل هذا السلام  
في الحب .. فدعها ياسىدى تستمتع بهذا السلام .. دعها تستمتع به إلى الأبد ..  
وكنت أدور حول وجهك كله بشفتي ، أدور حول جسمك كله بشفتي ، ولم أقل  
لك إن هذا العجوز أيضاً لم يولد في الحب إلا معك ..

وكانت تلك بالفعل ليلة سلام ..

ولكنى عرفت الليالي الأخرى ..

في أيامنا الأولى الدافئة المشمسة تعودت أن أعبر تلك الليالي ، أن أتجاوزها  
لأن ليالي حبنا الخالص كانت تغمرها بالنسىان وتمحوها ..

غير أنى منذ البدء عرفت وجهك الآخر . حين تجلسين تحت الكنبة ، تضمين  
ركبتيك إلى صدرك بيديك وأنت تحدقين شاردة في الفراغ ، على وجهك ذلك القناع  
الذى تختفى وراءه بريجيت .. حين لا يجدى أى حديث إليك ولا أى توسل ولا أى  
اقتراب فى أن يرددك إلى دنيانا .. حين تدفعيني في صدرك لكي أبعد عنك ولكن  
أتركك لشأنك الذى لا أعرفه وأنت مقرفصة هناك في الأرض ، تتشبثن بنفسك في  
تشنج كائنة تريدين أن تدفعي جسمك كله داخل جلدك مرة أخرى ..

تعلمت بالفعل أن أتركك في تلك الأوقات وأن أنتظر ، تعلمت ألا أحاول أن أكلمك  
أو أمسك ، إلى أن تعودى أنت نفسك بالتدريج ، تتلاشى تلك النظرة الزجاجية في

العينين وتسترد زرقة الحدقتين التماعها الأسر ، قبل أن تسأليني بلهجتك العادية،  
في نوع من الدهشة لم لا تأتى إلى هنا جانبى؟  
وعرفت أيضاً ليالى الجنون..

حين تغزير من الفراش فجأة عارية بعد أن تتمتى بعبارات بالألمانية وتتفقى  
في صالة بيتك ، تزعنين من رفوف مكتبك ديوانا من الشعر الألماني وتقلبين  
صفحاته بسرعة بحثا عن تلك القصيدة التي استدعتك في قلب الليل، وتبدين  
القراءة بصوت عال، يتدرج في الارتفاع شيئاً فشيئاً، كما لو كنت في صحراء  
خالية ، فالاحقك واضعا يدي على فمه . وأنت تتصلصين وتلکزیني بكوعك لتخلصي  
نفسك . وتزومين تریدین ان تکملی ذلك الإنشاد الجنون ، لا يریدك أن تسمعی  
طرقات الجيران الساخطة على الجدران ، ولا تذکیری لك بأنهم يمكن أن يستدعوا  
الشرطة لهذا الضجيج في الليل - تسبینتی وتسبین الشرطة والجيران بصوت  
مختنق ، ولا تهدين إلا حين أعرض عليك أن نخرج ، وأن تتشدی هذا الشعر على  
شاطئ النهر ، ترتدين وقتها ثيابك في لففة محمومة ، وتستعجلینتی أن نخرج .  
ولكن ما إن خطو خارج البيت حتى تسألینی وأنت ترتجفی : ما السبب في أنا  
خرجنا في هذا البرد؟

ولكنني تعلمت أن هذه اللحظات هي جزء منك، وتعلمت بعد قليل أن أحبها لأنها، هي أيضاً، أنت.

★ ★ ★

على أنى لم أنس الأمير حامد فى تلك الأيام ..  
وكلت أسئل نفسى فى دهشة هل ما زلت بالفعل صحفيا له حاسة الصحفى؟ ..  
بعد كل السنين التى مارست فيها البطالة فى هذه المدينة الأوروبية أتقل الأخبار  
المدينة لصحيفة رديئة؟ .. ما الذى أزال عن نفسى فجأة ذلك الصداً رغم  
تحذير الطبيب وتحذير بريجيت بـلا أرفع السلاح مرة أخرى فى وجه العالم  
الذى هزمنا؟ ..

شيء أقوى مني كان يدفعني أيامها لأن أكون الصحفى الذى مات من قبل ودفنته . شيء يدفعنى إلى أن أبحث وإلى أن أعرف . ولم يكن أمامى سوى أن أطير .

وبعد أسبوع تقريباً من مقابلة الأمير . توجهت فى الصباح إلى مقهى إيلين .

قابلتني بابتسامتها المهنية المرحبة . وقادتنى إلى ركن بعيد فى المقهى وهى تشرش : ألم أقل لك؟.. ألم أبشرك يا سيدى بأننا ستفق على قدمينا بأسرع مما نتصور؟ وها نحن أفضل مما كنا من قبل؛ ولكن هل تعرف شيئاً؟.. ربما كان من الأفضل أن نكف عن هذه القهوة الطيبة أيضاً . قرأت أنها ليست .. ليست مفيدة جداً . العصير أفضل .

واراحت تتكلم دون انقطاع وكانت أغمغم بالموافقة على ما تقول وأنا أقاطعها عند كل فرصة تسكُّت فيها بالسؤال عن يوسف . لكنها فاجأتنى بعد أن جلست بأن ساحتى هي أيضاً مقعداً واستقرت في مواجهتى .

طلت تتطلع نحوى لحظة وهى تشبّك يديها أمامها على المنضدة ، وكانت ابتسامتها التقليدية تشبّب تدريجياً ، ثم قالت :

ـ كنت أنتظرك يا سيدى . فى الواقع كنت سأتصل بك لو لم تأت اليوم .  
تغيرت طبقة صوتها وهى تقول ذلك . اختفت نبرة الترثرة مع زبون المقهى وأطلت من عينيها نظرة جادة ، توشك أن تكون حزينة وهى تتطلع إلى

ـ قلت فى قلق : ولكن لماذا؟.. هل حدث شيء؟.. يوسف بخير على ما أرجو ..  
ـ نعم .. نعم ، بالتأكيد . أما أنا فلست بخير .

سكت قليلاً وأحنت رأسها كأنها تفكّر كيف تبدأ الكلام ولكنها فجأة رفعت نحوى عينين ضارعتين وقالت :

ـ أرجوك أن تترك لي يوسف !  
ـ أتركه كيف؟.. أنا لم أره من مدة يا سيدتى ولم أحاول أبداً ..

قطعتى : أعرف ! .. أعرف أئك لم تحاول أبداً أن تأخذك ولكنك هو الذى يحاول  
أن يذهب معك ..  
- ولا حتى هذا .. صدقينى .

كان جفناها يرتجفان بسرعة وقالت بصوت متحشرج إلى حد ما :  
- إذن فهو يحاول أن يرجع إلى الأمير . يريد أن يعمل صحفياً ويريدك أن  
تساعده ، أليس كذلك ؟

لم أرد . فقالت وهى تنظر فى وجهى مباشرة : أعرف كل شيء ياسىدى .  
وأعرف جيداً ما الذى يريد يوسف ، ولو كان معى مال كاف لأصدرت له صحيفة  
يعمل فيها كما يشاء ...

حاولت أن تبتسم وهى تقول ذلك وتعبث بالمنضدة بأسابيع مرتعشة ، ولم يفلح  
هذا فى منع غشاوة الدموع التى تكونت فى عينيها . أردت أن أتكلم ولكنها مدت  
يدها كأنها ترجونى أن أنظر لها وفى تقول مغالية بارادتها البكاء : لن أستطيع أن  
أبقى معك طويلاً . وقد يخرج يوسف من المطبخ فى أى لحظة .. لهذا أرجوك أن  
تسمعني . أنا أحب يوسف .

- هذا طبيعى .

فى هذه المرة أطلقت ضحكة خافتة وهى تقول لا .. لا  
ثم أكملت بعد فترة وهى تحول وجهها قليلاً عنى :

- لا . ليس طبيعياً وأنا أعرف . هو كان يمكن أن يكون ابنى وأنا أعرف ، هو  
أوشك أن ينهى الجامعة وأنا جاهلة وأنا أعرف . لكنى أحبه وهو قد رضى بي ..  
لاتسائلنى لماذا رضى . هل قبلتى لأنه كان يبحث عن العمل وعن الاستقرار ؟ . ربما .  
كان يمر بفترة صعبة بعد أن سافر الأمير فى السنة الماضية ولم يكن عنده تصريح  
للعمل . ولكن جاء قبله كثيرون عملوا عندي . شبان أصغر منه . أكثر وسامة منه .  
غير أنى لم أفك فى أى رجل منذ مات زوجى الأول ..  
توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت فى تردد : مع يوسف .. كان هناك شيء ..

ثم احتبس صوتها مرة أخرى فقلت :

– سيدتي ، الإنسان لا يقرر أن يحب ، الإنسان يحب هذا هو كل ما في الأمر .  
لاداعي لأن تشرحي لي شيئاً ولا أن تبرري شيئاً . أنا أصدقك وأفهمك ، لا يوجد  
من يمكن أن يفهمك أكثر مني ..

– إذن فللت تفهم أيضاً خوفي ؟

– بالتأكيد أفهمه .

أبعدت وجهها عن مرة أخرى وهي تقول بصوت خافت : معدنة ، ولكنني لا  
أعتقد أنك تفهمه تماماً . أنا أعرف أن يوسف سيتركتني . بعد حين لابد أن  
يتركني ، أنا الآن في الخمسين من عمرى . أعمل كل ما استطاع لكي أظل في  
نظره امرأة وزوجة . ولكنكم يمكن أن يستمر ذلك في رأيك ؟ كم يمكن أن يستمر  
وهو بمثيل هذا الشباب وأنا أشيخ كل يوم ؟ سنة ؟ سنتين ؟ .. أكثر من ذلك قليلاً أو  
أقل منه ؟ ل يكن ياسيدى . أنا أقبل . أعرف أنها سعادتى الأخيرة ، فأرجوك ، أن  
تركتها تستمر ، سيدهب يوسف ذات يوم ، ولكن دع هذا اليوم يبطئه . لا تتعجله .  
أعرف أنه إن عمل بالصحافة .. إن ترك هذا المقهى مرة ، فسيتركه إلى الأبد ..  
عندما ينبع جناحاه سيطير بلا عودة ، فهل هي أثانية مني أن أريده أن يبقى في  
الارض .. أن يبقى معى ؟ .. ربما ..

حل بي حزن عقد لسانى وأنا أنظر إلى وجهها المعدن . هل تتكلم عن نفسها  
الآن أم عنى ؟ .. هل أبوج لها أيضاً بخوفي من أن يأتي سريعاً ذلك اليوم ؟ ..  
كانت تكرر في ضراعة بما يشبه الهمس وهي تقول : أرجوك ياسيدى .. افعل  
ما تستطيع .

وابتعدت ولا أدرى ما الذى قلته لها ولكنني كنت مستغرقاً في التفكير حين جاء  
يوسف أخيراً وصافحني بحرارة بيده الرطبة وهو يقول :

– مرحباً بالأستاذ . لم أتوقع أن تأتى بهذه السرعة . جلس قبالي في المكان  
الذى كانت تحتله إيلين . وكان قد نسى في هذه المرة أن يخلع «مريلة» المطبع

البيضاء ، وسائلى بمجرد جلوسه متوفزاً ومتهمساً :

- خيراً إن شاء الله؟ انتهيت من المشروع؟ ..

لم أرد عليه فوراً . تداخلت في ذهني ما جئت من أجله وما كانت إيلين تحدثنى عنه منذ قليل ، وانتبه يوسف إلى شرودى فسائلنى : الاستاذ متعب؟

- قليلاً ، ولكن هذا لا يهم . أردت أن أسألك يايوسف وأرجوك أن تكون صريحاً معى ، هل قلت لي كل ما تعرفه عن الأمير حامد؟

وضع يوسف يده على صدره وقال وفي عينيه نظرة عاتبة : أقسم لك بحياة أبي إنى لم أخف عنك أى شيء مهم أعرفه . ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال؟

- سأخبرك حالاً . في الواقع إننى دهشت قليلاً من إصرار الأمير على أن نتعاون معه أنت وأنا . بصراحة نحن لسنا نجمن في عالم الصحافة ، وكما قلت لك فهو يستطيع بحاله أن يستأجر من يشاء من الكبار ..

- العفو ياأستاذ ، اسمك ...

قطعت يوسف بإشارة باترة : اسمى لم يعد يعرفه أحد . لا أعيش في الوهم ولا الكذب . ربما كان البعض يعرفوننى منذ عشرين عاماً أو أكثر ، ولكنى الآن لست ورقة رابحة في لعبة الصحافة .

قال يوسف في تردد : ولكن هذه بالفعل فرصة لكى يعود قلمك إلى الظهور ، وأنت تستحق هذا وأكثر منه ..

ابتسمت قائلة : بالضبط يايوسف . لابد أن يكون الأمير قد فكر بهذه الطريقة . ها هي فرصة لشخص ضائع لن يتردد في قبولها .. ولكن دعنا من هذا الآن . أريد أن أسألك أيضاً هل تعرف اسحاق دافيديان؟

قال بلهجة ساخرة : بالطبع ، من لا يعرفه؟ .. هو «بلدياتنا» ومن أكبر المليونيرات هنا . هاجر من مصر سنة ٦٥ وأخذ جنسية البلد ، وهو يملك الآن نصف العمارت فى المدينة ..

ثم قال بعد سكتة وهو يضحك : مشيت في مظاهره ضدّه .

- مظاهره ضد دافيديان؟ .. لماذا؟

- خرج أهالى الحى هنا فى مظاهره لأنه يشتري البيوت القديمة الرخيصة الإيجار ثم يهدمها لكي يبني محلها عمارات ضخمة فاخرة، إيجاراتها ضعف دخل السكان الذين شوهدوا .. فلأين يسكن هؤلاء ، فى الشارع؟

- لم أكن أعرف هذه الحكاية .. وإلى أى شئ انتهت المظاهره؟

هذا كتفيه قائلاً : كما تنتهى كل مظاهره .. رفعت لافتات ضد دافيديان وذهبنا إلى عددة الحى وسلمناه عريضة ، أما هو فاستمر فى شراء العمارت القديمة وهدمها .. المتظاهرون يأسنذ معهم حناجرهم وهو معه المال ومعه القانون ، فما الذى يمكن أن تفعله مظاهره؟

- معك حق .. ولكن هل سمعت أو قرأت أنه تبرع بمائة ألف دولار بعد حرب لبنان لجيش إسرائيل؟ .. هل كنت تعرف ذلك؟

- لم أسمع بهذا ولكن لا يدهشنى .. هو من رجالهم المعروفين هنا .. يكتب لكل الصحف دفاعاً عنهم ، وينظم ندوات ، ويستضيف الوفود التى تأتى من هناك و... ثم توقف لحظة قبل أن يقول فى دهشة: ولكن ما الداعى إلى كل هذه الأسئلة؟ .. ما علاقة دافيديان بما نحن فيه؟

- هل تعرف فيه يتأجر دافيديان إلى جانب العقارات؟

- فى كل شئ تقريباً .. فى الفنادق والبنوك والبورصة وكل شئ ..  
نظرت إلى عينيه وأنا أقول :

- لا تعرف أيضاً أنه أكبر تاجر للخيول العربية فى أوروبا؟ .. كنت أنت الذى نبهتني حين تحدثت عن تجارة الأمير حامد فى الخيول .. فى الواقع يا يوسف إن أميرك هو أكبر شريك لدافيديان ..

تطلع نحوى مبهوتاً وخرج منه السؤال كصرخة : الأمير حامد؟ لا!

فقلت مؤكداً : نعم ..

قال ومازالت نبرة عدم التصديق في صوته : ربما كنت مخطئا .. الأمير رجل قومي أنت سمعته بنفسك يتحدث . كيف؟ له أصدقاء من كل الأحزاب العربية ، بل ومن منظمة التحرير نفسها ! ..

- اسمع يا يوسف . من أسبوع وأنا لا أفعل شيئا غير البحث في موضوع الأمير . اتصلت بكل من أعرف هنا ، حتى بالعاملين في السفارات العربية الذين أحاروا طوال الوقت أن أتجنبهم ، وذهبت إلى البورصة ، وتحدثت مع محرري الاقتصاد في المصحف ، ومع تجار الخيول وحتى مع محرري أبواب سباق الخيول! .. لو كانت عندي ذرة من الشك لما تحدث إليك .

ظل صامتا فترة ثم قال : ولكن لماذا يفعل هذا؟ .. عنده مال قارون ..

- هذا سؤال آخر لا أعرف جوابه . ولا أعرف أيضا لماذا يريد هذه الصحيفة الملعونة ولا لماذا يريدنا معه . كل ما أعرفه أنت لم أطمئن إليه من أول لقاء .

عبارة قالها عن عبد الناصر وعن الأميركيان أيقظت في نفسى شيئا ، وما عرفته عنه بعد ذلك أكيد حدسى . ربما كان يريد الصحيفة بالفعل بسبب طموحه للحكم ورغبته في أن يحارب على العهد .. وربما تكون المسألة أكبر من ذلك لا تعرفها أنت ولا تعرفها أنا . هو على أى حال ذكي جدا وغنى جدا وطموح جدا . ومقنع إلى أبعد حد . أمثاله لا يغيرون عن أعين الكبار الذين يخططون ..

ولكنني أمسكت لسانى ولم أكمل ما كنت أفكر فيه وقلت بدلأ من ذلك :

- هو باختصار يريدنا خاتمين في إصبعه لكي يفعل شيئا لا نعرفه .

ولم يكن يوسف يتبعنى وقتها كان ينتمى :

- الأمير شريك دافيديان .. إذن لو عملنا مع الأمير فكأننا نعمل مع دافيديان .. ودافيديان دفع التبرع لإسرائيل .

ثم ضحك بمرارة وهو يقول : أنت سددتها فى وشى يا أستاذ !

- كيف لا سمح الله ؟

فقال دون أن يحول وجهه نحوى وكأنه يكلم نفسه : ماذا أفعل الآن؟ .. أبقى

هنا وأعيش طباخاً وأموت طباخاً أو قهوجياً؟ أرجع إلى البلد لأعيش عاطلاً؟ هنا على الأقل أرسل مبلغاً لأبي في كل شهر . أهـج في دنيا الله؟ .. أين؟ .. وهـل سـيختلف الحال في أي مكان؟ .. ماذا أفعل؟

قلت وكأني أدفع عن نفسي : اسمع يا يوسف أنا لم أطلب منك أى شيء . كل مافي الأمر أنك ألححت أن أضع مشروع هذه الصحيفة والآن أريدك أن تعرف لماذا لا أستطيع ذلك .

ثم أكملت وقد تذكرت شيئاً : على أي حال لى عندك طلب وحيد . أنا لا أعرف كما قلت لك إن كان الأمير يعمل بمفرده أم أن وراءه أجهزة . وكل ما أطلب به منك أن يبقى هذا الكلام بيننا ..

وضحت ضحكة صغيرة وأنا أقول : لا أريد أن تصدمني سيارة في الطريق  
أو أن يطعنني مجهول بسكين وأنا عائد إلى بيتي في الليل ..

قائل بطريقه آله : لا سمع الله !

فأكملت : أنا أمزح بالطبع ، ولكنني أقصد أنتي أفضل أن يبقى هذا الكلام بيننا ، وبعد ذلك فانت حر . يمكن أن تواصل العمل مع الأمير لو شئت .

أطلق ضحكة من مقطع واحد كأنها زفة: تظاهرت ضد السادات وحكم على  
بالسجن وهريت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يقرط فى مستقبل البلد  
وبضاع مستقبلى أنا الفقير فى المبادىء ، بينما الكبار والأغنياء .. أهلا يا  
مبادىء!

قال ذلك وأراد أن يقوم وفي وجهه هم وانكسار فأمسكت معصميه ليظل جالساً  
وقلت : لماذا تيأس بسرعة؟.. لم تنته الدنيا لأنك لن تعمل في صحيحة الأمير .. اكتب  
إن كنت ت يريد وحاول أن تنشر ما تكتبه في الصحف التي تصدر هنا أو أرسلها  
أيضاً إلى صحف البلاد العربية .. لا يعجبك أن تكون طباخاً أبحث عن عمل آخر  
وحاول أنت أيضاً أن تكون غنياً وأن تكون قوياً ..

شعرت وأنا أتكلم بأنني غير مقنع على الإطلاق ولكنني أكملت مع ذلك : أرجوك

يلوسف . لا تجعل الدنيا تهزمك كما هزمتني .

لم يعلق بشيء على كلماتي التي كانت تخرج متدافعه ولكنه تتم بعبارات شكر تقليدية وهو ينصرف بخطى سريعة ناحية المطبخ، وتطلعت إيلين ناحيتها من أقصى المقهى بنظرة مستفهمة فحولت بصرى ..

خرجت من المقهى مسرعا وأنا ألوح بالتحية لإيلين عن بعد .

كان هناك متسع من الوقت قبل أن ألتقي ببريجيت في مقهانا في الظهيرة . قررت أن أذهب إلى البيت وأن أرتاح هناك قليلا قبل الموعد ولكنني بدلا من ذلك قدت السيارة حتى شاطئ النهر وركنتها إلى جوار المقهى ثم رحت أتجول في الشوارع الهدئة القريبة من النهر . كان الجو باردا والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالمطر ولكنني لم أهتم .

اعتقدت أنى سأنتهى من الموضوع كله!.. أحكى ليوسف ما عرفته ثم أنفخ يدي من حكاية الصحيفة ومن الأمير .. أفرغ مرة أخرى للفرج الذى عاهدت نفسي لا أعرف غيره، فلماذا لم يكن هذا هو محدث؟

ليكن . أنا بالفعل أخطأت . لم يكن من شائني أن أتدخل في حياة يوسف ولا في حياة إيلين ولا أن أشغل نفسي بهذا الأمر . كان يجب منذ البدء أن أعتذر ليوسف بأن صحتى تمنعنى من العمل ثم ينتهى الأمر . ما أهمية ذلك التنبيب الذى انغمست فيه؟ .. أى كسب حققته حين عرفت من هو؟ .. لن تتفقد أنت لبيان من دافيديان ولن تحارب إسرائيل باكتشافاتك . اتفقنا منذ زمن طويل أنك لست مهما فما الداعى الآن لهذه الألاعيب؟.. لن تتفقد حتى يوسف . ارتفاع المسكين مثثما ارتعت انت حين عرفت الحقيقة . لم تكن تتصور حين بدأت أنك ستصل إلى هذه النهاية . كنت تزيد فقط أن تعرف من هو هذا الأمير حامد ، فإذا كل الخيوط تقودك إلى دافيديان . صحيفة قومية وتقديمية حقا!.. حسبها سموه بدقة شديدة: أطعمه أولا بوهم المبادىء . أعطه الأمل فى أن يرجع صحفيا بالفعل بعد أن أصبح نكرة . دوخر أيضا بأموال لا يحلم بها . برحلات وبيودولات وبمشروعات لا آخر لها .

ثم في النهاية ضعفه خاتما في أصبعك وحركه كما ت يريد . مهما كان الثمن فسيتكلف أقل من غيره وسيكون أكثر طاعة . ولكن لماذا ؟ .. ما الذي يريد مني بالفعل ؟ .. لماذا أنا ؟ ..

فأذنني قدمي دون أن أدرى إلى حديقتي السرية الصغيرة ، ولم يكن فيها أحد .. جلست مجدها على أقرب مقعد . كانت الأشجار قد اكتست كلها باللون الأصفر الذي فقد بريقه ونفضت على الأرض أوراقا تغطيها طبقة بنيّة بلون الصدأ . شعرت بالبرد بعد قليل فقمت وأخذت أمشي بسرعة في ممرات الحديقة القصيرة المقاطعة التي تعود دائما إلى نقطة البدء ، إهادا .. إنّ هذا الأمير في النهاية . ألم تعاهد بريجيت بنفسك أن تتجنب هذه الدنيا ؟ .. ولكن هذا هو ما نفذته بالفعل . انسحبت داخل جلدي وحاولت أن أنسى كل شيء . حتى مكالماتي مع خالد وهنادي أصبحت شيئا عابرا في حياتي ، أحقرص على ألا تطول . كنت أهرب من كل ما يذكرني بالصراعات القديمة وبنفسى القديمة . قبّلت أيضاً أنّي أب مهزم يجب ألا يحارب لكي يسترد ما فقده بالفعل . فلم هذه الحيرة الأن ؟ لماذا كان يجب أن يظهر هذا الأمير ؟ .. هل أصارع - أنا أيضا - خيلا من فوارسها الدهر ؟ .. من فوارسها الأمير حامد ودافيديان ؟ .. - خيلا عربية حقا !

ولكن كفى ! .. قلنا إن الحكاية انتهت فلنرجع كأنها لم تكن . فليذهب الأمير ودافيديان إلى أي داهية . فليذهبا إلى النسيان وهذا هو الأهم . فكر فقط في الفرح الوحيد الذي يمكن أن تفوز به من هذه الدنيا .

قالت إيلين : لا تتعجل نهايته ! .. فلا تتعجل النهاية . لا تفكّر حتى في أن نهاية ستاتي . بريجيت هناك . من لحم ودم . ليست وهما ولا هي خدعة . نعم .. نعم ..

كنت أفر من الحديقة ، أشك أن أعنو وأنا في طريقى إلى المقهى . ووقفت لحظة ألهث حين رأيت ذلك المبنى البيضاوى الداخل فى النهر . أشعر أن دموعا تزيد أن تطفر من عيني .

أية نعمة أن مقهانا مازال قائما هناك!

أية نعمة أنه سيحتوينا معا !

أية نعمة أن أرهاها هناك ، أتية من آخر الطريق ، تخطو بسرعة كعادتها ، تطأ الأرض بخفة كعادتها ، لا تمشي ، بل تطفو فوق أثير لا يرى . وأنا معك ، أهجر أيضا هذه الأرض الطافحة بشرورها ، لالحق بك ، يرتفع بي حبك إلى هذا الأثير ، إلى تلك البراءة لنهرب معا إلى السكينة ، ولنصنع معا هذا الفرح .

## الفصل التاسع

## هذا الكهف

كانت تلبس معطفاً واقياً من المطر. وجهها يخفى فلقاً لا يغيب عنى.  
إلى جوار نافذتنا المعتادة ساعدتها على خلع معطفها ولم يكن تحته الزى  
الأزرق. كانت تلبس بلوزة بيضاء فوقها «جييرسى» أزرق بلون عينيها وقد رفعت  
شعرها خلف رأسها وعقصته كيما اتفق فتاثرت منه خصل ذهبية صغيرة حول  
وجهها الذي بدا أقل استداره.

سألتها ونحن نجلس متقابلين: ألم تذهبى إلى العمل؟  
أشارت بيدها إلى الغيوم في السماء: رحلة سياحية في هذا الجو؟ اتصل بي  
المكتب في الصباح ليقول إنه لا يوجد أفواج اليمم  
- وما العمل؟

أدع أن تطلع الشمس!.. ولو أن هذا لن يفيد كثيرا - أوشك الموسم السياحي أن ينتهي على أية حال ولابد أن نفكر في المستقبل.

كنت أعرف أنها تبرر نفسها بصعوبة بالمرتب الزهيد الذي تحصل عليه من شركة السياحة. لم يكن لديها تصريح رسمي بالعمل ولا عقد مع صاحب الشركة ولكنه كان يجدد لها العمل باستمرار لإجادتها لعدة لغات وقناعتها بالمرتب البسيط. أراحته كثيرا أنها أجنبية ليس لها حقوق في التأمين أو المعاش فتتمسك بها بينما كان يتخلص باستمرار من مواطناته قبل مرور ستة أشهر على عملهن لكي لا تصبح لهن حقوق قانونية. وظلت بريجيت منذ عرفتها تعيش في حدود مرتبها دون أن تسمع لنفسها بأى ترف، ولم تقبل أيضا شيئا مني. إن دعوتها للغداء مرة فلابد أن ترد دعوتي في اليوم التالي. وذات مساء اقتربت مني مبلغا زهيدا فوجدت في الصباح ظرفا في صندوق البريد ويدخله النقود. لم تستطع الانتظار إلى الظهيرة لترد القرض حين تلقى. وفي النهاية كففت عن دعوتها إلى المطاعم أو إعطائنا أى هدايا صغيرة لكي أريدها تماما. وأعرف الآن عن يقين أنها لن تقبل أن أساعدها حتى لو فقدت عملها، فما الذي سيحدث لها ولانا؟..

فاجأتني بريجيت حين مدت يدها لتمسك بيدي وهى تقول ضاحكة: لا تقلق .. لن تتخلص مني ببساطة!.. لابد أن هناك حلا آخر أو عملا آخر.

حدثنى مدير الشركة اليوم عن شخص يريد أن أعطيه دروسا في اللغة الفرنسية. أستطيع على ما أظن أن أعطى دروسا للمبتدئين وللأجانب..

ولم أعرف إن كانت قد قالت ذلك لطمئننى أم أنه حقيقى. ظلت تمسك بيدي بين يديها وتركت عليها كأنها تهددها وهى تتطلع من زجاج النافذة وكان المطر لحظتها يتتساقط فى قطرات كبيرة فوق النهر فتثبت الأمواج وهى تستقبل تلك قطرات.

وقالت بريجيت وهى تنظر نحوى بابتسامة ماكرة: أرأيت؟.. ما هى السماء تمارس الحب مع النهر ويسيلان أمواجا جديدة.

ثم بدأت تهز يدي وهى تقول بصوت مرتفع إلى حد ما: هي!.. أنت!.. فيم تفك؟

- أفكر فيما قلت أنت الآن وفي أشياء حدثت اليوم. أفكر فيما سيحدث غدا..

مطئ شفتيها وهى تسحب يدها من يدي قائلة: إذن أنت لم تتغير أبدا. قلت لك مرات كثيرة لا يهم ما حدث ولا ما سيحدث. نحن لانملك غير لحظتنا، هنا والآن..

قلت مازحا: عمرى ضبع عمرك وتعطينى دروسا؟

- وما ذنبي إن كنت لم تتعلم درسك طول هذا العمر؟..

الحق معها!.. ولكن ماذا أفعل وصورة إيلين تخالينى طول الوقت؟.. لا يفارقنى صوتها الحزين وهى تحاول ألا تفقد كل كبرياته بينما تتوصل إلى بالفعل؟.. أى نذير هذا؟..

ظللت بريجيت تتطلع عبر النافذة فى صمت وقد ارتسם على وجهها الشارد شبح ابتسامة بينما تزداد الأمطار غزارة وتدافع الغيوم السوداء فى السماء.

ثم التفت نحوى وقالت: أظن أننا أسرة من المجانين!

- أنت قلت! ولكن ما الذى ذكرك بهذا الآن؟

- تلك الأمطار.. ذكرتني بيوم كهذا اليوم فى طفولتى «قطبت جبينها لحظة كانها تسترجع الذكرى بالضبط» غير أن صباحاً [www.alsakher.com](http://www.alsakher.com) ..

جلس مع أبي في مكتبه أرافقه صامتة كالعادة عندما التفت نحوه فجأة وقال:  
بريجيت! هل تعرفين أسماء الأشجار؟.. ولم أكن أعرفها، فقال عار أنت حتى الآن  
لاتعرفين أسماء الأشجار، هيا - فلتفعل اليوم شيئاً مفيدة.. سأعلمك الأسماء!..  
وكانت في طرف البلدة حديقة نباتات واسعة كأنها غابة، ولكن حين وصلنا إلى  
هناك بدأت الغيوم تغطي الشمس وأصبحت الحديقة مغطاة تقريباً، ثم هطل المطر.  
غير أن شيئاً من ذلك لم يوقف أبي، كان يصحبني من شجرة إلى أخرى، يقطف  
ورقة من إحدى الأشجار ليقارن بينها وبين ورقة جارة لها بانهاك تام.. يحكى كل  
التفاصيل التي يعرفها وأنا أتابعه، لأريد أن تفوتني كلمة.. ولم تكن معنا حتى  
مظلة نغطي بها رءوسنا.. كنا نجري لنجتمى في ظل أغصان شجرة دردار أو  
أغصان أخرى وارفة دون أن يكف عن شرحة ودون أن أغفل أنا عنه لحظة.. ولكن  
حين وصلنا إلى البيت صرخت أمى في فزع، بكت وراحت تصبّح في وجه أبي أن  
يغير ملابسه بسرعة وهي تخلع عن ثوبه المبتل وتجفف شعرى والدموع في  
عينيها مدمدة: ستموت البنت، سيسببها التهاب رئوى وستموت، بالتأكيد،  
وبالتاكيد! ولم يذهب أبي ليغير ملابسه بل وقف ممزوجاً في مكانه يقطر منه الماء  
ونظر نحوى في ذعر وكأنه قد انتبه فجأة إلى ما حدث، فغمضت له بعينى لأطمئنه..  
هل تعرف؟.. لم يمت هذا الدرس أبداً.. عندي في كل بلد أصدقاء من الأشجار،  
أذهب إليها لشاركتنى فرحي ولكن أشكوا لها حزنى.. أعتقد أن الأشجار تفهمنى،  
أنا واثقة أنها تفهمنى.. ما رأيك أن تنجّب طفلاً؟

لم أنتبه إلى السؤال في أول الأمر.. ولكن الخيوط المتوازية كانت تجتمع الآن  
بجوار عينيها وحول ذقنها والتمتع عيناهما وهي تنتظر نحوى في لفحة:

- أنت تمزحين؟

- لا، لم أفكّر أبداً في طفل منذ.. منذ غاب ذلك الآخر..

- طفل؟.. في مثل سنى يا بريجيت؟

- وما يهم؟.. لا يكون الوقت متاخرأ أبداً لكي تقدم هديتك للحياة.. طفل هو أنت  
وهو أنا.. نعيش فيه معاً ونعيش معه، بعيداً.. في جزيرة أو فوق جبل.. نعلمه أن يحب  
الأشجار والزهور والشعر، ونعلمه هو أيضاً كيف يتخد من الأشجار أصدقاء له -

يصفى لما تقوله أغصانها ويفهم الرسائل التي تبعثها أوراقها المتساقطة. نعلمه أيضاً لا ينساها في الخريف. يقول للشجرة إنها معها في عذاب الموت والميلاد، وإنه هو أيضاً سيولد معها من جديد حين تنتت أوراقها الخضراء مرة أخرى، لكنه لن ينساها وهي تقف عارية في الشتاء، بل يمنحها بحبه الدافء. دعنا نتذمم ذلك الطفل!

كانت وجنتها متضرجتين. كانت ترتجف بالفعل وهي تهز يدي في لهفة وحماس.

سكت لحظة قبل أن أقول لها: وماذا سيحدث عندما ينزل يوماً من فوق ذلك الجبل أو يرحل من تلك الجزيرة؟.. هل سيحنون عليه الناس مثثماً تحنو الأشجار؟ – ولكن ألم نقل لك إننا سنعلمه الحب قبل كل شيء؟ لابد أنه سينجو بالحب مثثماً نجونا نحن. أليس كذلك؟ سينجو دائماً.. دائماً..

ولكن شيئاً من الشك تسرب إلى صوتها وهي تتمتم « دائماً .. دائماً » بلا انقطاع، بصوت خافت كأنما ت يريد أن تقنع نفسها وأن تقنعني بأن ذلك صحيح. ويداً إلى الآن وهي تزم شفتها المرتجفتين أنها تغالب البكاء وتغالب الاعتراف بأنها تسخى وراء حلم بعيد.

كيف أحميها؟.. لو أعرف كيف أحمى هذه التي منحتني كل ذلك الحب، والتي تجلس الآن أمامي مهزومة تبحث عن طفل مستحيل في عالم مستحيل!.. رحت أربت على يدها وأضغط عليها برفق، أريد أن أنقل لها دون كلام أنني أفهم، وأنني معها في لحظة الحنين تلك، أن أقول لها أنت يا بريجيت التي قلت إننا نجونا بالحب، والتي قلت فلنعش لحظتنا التي نملكتها، فلم لا تفعلي الآن ذلك؟.. ضمت أنا ملها ثم رفعتها إلى فمي وهمست لتلك الأنامل البيضاء الطويلة التي أعشقها فقط دعى هذا اليوم بيطىء، أنا لا أطمع في الأحلام المستحيلة. فقط دعى بيطىء، هذا هو كل ما أطمع فيه.

ولكن خاطراً شريراً تسرب إلى ذهني فجأة فأنزلت يدها وهتفت  
– بريجيت أهل أنت..

- أنا لم أسألك عن شيء بعد.

هزت رأسها في بطء وهي تقول: ولكنني أعرف سؤالك يا صديقي . لا . لست حاملا . لن أفعل شيئاً من وراء ظهرك إن كان هذا ما تخشاه .

لزمت الصمت والتفت نحو النافذة من جديد . كان بخار الماء الذي تكافأ على الزجاج يحجب رؤية النهر والجبل ، وحلت بالمقهى عتمة كعنة الغروب . وحين عدت أنظر إلى بريجيت كانت تحني رأسها ويدا وجهها الذي تحيط به الخصلات المهوشة مطموساً وكأنما يبيّن هو أيضاً من وراء غيمة .

كان صمت ووجوم توجه شيء لحظة واحدة ثم انطفأ . وطوال جلستنا لم أخاول أن أشرح شيئاً أو أن أبهر شيئاً . ولم تتفع محاولاتي ولا محاولاتها في طرد الكاتبة التي حلت بعد جوابها عن سؤالى الذي لم أنطق به . رحنا نثرثرونحاول أن ننسى ذلك الطفل الذي ولد لحظة واحدة عشق فيها الأشجار ثم مات على طرف سؤال . ولكننا نعرف أنه هناك يخالها ويخيالني . يعذبها بالندم لأنها أحبته ويعذبني لأنني وأدته من قبل أن يكون .

وانتهت جلستنا بسرعة بعد ذلك . عرضت عليها أن تأتى معي فاعتذرنا بأنها مصدعة وتود أن ترتاح قليلاً . قالت أوصلنى حتى البيت . وقبل أن تنزل من السيارة قالت بلهجة عابرة سأتصلك لكى نلتقي في المساء .

كنت أنا أيضاً مجهاً . وحين وصلت إلى البيت سحبت رسائلى من صندوق البريد وصعدت إلى الشقة ثم ألقيت الصحف على المكتب وأنا أغمغم فليكن بريجيت . فليكن يا إيلين . فليحدث ما يحدثا ... وكان الإجهاد يخلى السبيل للاستهانة .

أرجأت موعد الحديث مع خالد وهنادي . لم أكن مستعداً بعد . لم أكن قد تخلصت بعد من الطفل الذي لم يولد لأفرغ للأطفال الكبار ، فرحت أجول في الغرفة أعيد ترتيب الأشياء دون هدف . أنقل المقاعد وأغير ترتيب الكتب في المكتبة ، مرة حسب الحجم ومرة حسب الموضوع ، ووجدت فوق أحد الأرفف صورة

عبدالناصر التي تهشم زجاجها يوم أسقطتها معي على الأرض. كان الزجاج المكسور قد كشط جزءاً من فمه وشوه ابتسامته فبدأ وجهه حزيناً. قررت مرة أخرى أن أعيد وضعها في إطار جديد، ثم وقفت وسط الصالة الصغيرة أتأمل يميناً ويساراً. لم يبق ما يمكن عمله! لم يكن هناك من الأصل ما يمكن عمله فعدت مستسلماً، جلست إلى المكتب وأخذت أستعرض حصيلة البريد.

ووجدت بعض أعداد من صحيفتي القاهرية. أقيمت نظرية على العنوانين ثم وضعتها جانباً. استبقيت عدد الخميس وفتحت الصفحة الثامنة التي تنشر فيها منار مقالها الأسبوعي، ولكن المقال لم يكن هناك. كان هناك بدلاً منه موضوع ديني «بين الشريعة والتاريخ» فوضعت العدد فوق الصحف الأخرى، وبدأت أليبر رقم القاهرة في قرص التليفون وأنا أنظر شارداً للصورة المنشورة مع المقال الدينى. كانت صورة جانبية لوجه امرأة محجبة، تقطي الطرحة البيضاء شعرها وتحيط بوجهها. قلت لنفسي وأنا أواصل بطريقة آلية محاولة التقاط الرقم أنا أعرف هذا الوجه. ليس غريباً عنـ.

ثم فجأة وضعت السماعة واحتطفت الصحيفة.

نعم! .. بالطبع هي منار! .. نعم هي صفحة المرأة كالعادة يتوسطها اسم منار! وهناك عنوان فرعى بخط صغير تحت العنوان الرئيسي «بين الشريعة والتاريخ: ماذَا جرى لحقوق المرأة؟» جريت بعىنى على السطور وكنت قد خمنت الفكرة منذ العنوان: الشريعة صانت للمرأة حقوقها المادية والأبدية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينتقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئاً بالشواهد والاقتباسات من المراجع الدينية. ولم أجد أسلوب منار التقليدي. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم في مقالاتها كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخي للرجل، وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرن عنانق النصوص.. إلخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة في مقالها أن الرجال لوفهموا الشريعة كما ينبغي لتحقق المساواة منذ زمن بعيد لأن النساء لهن في الشريعة حقوق متساوية لواجباتهن، وإذا كانت للرجال حقوق إضافية فلأن عليهم واجبات إضافية.

وَضَتِ الْمَدْحُوَةُ أَمَامِي وَرَحْتُ أَحْدَقُ فِيهَا.

حتى الأسبوع الماضي فقط كانت تتوسط كلمتها تلك الصورة التي تظهر منذ عشر سنين في صفحة المرأة، الصورة التي تطل بوجهها المبتسم وسط حالة شعرها الأسود المفروق وهو يسترسل على جانبى وجهها. في الصورة الجديدة كان وجهها وقرا و هي تحدق بنظرتها الجانبية إلى بعيد. وعاد إلى ذهنى اللقب القديم الذى كانوا يصفون به منار أول ما عملت في الصحيفة. كانوا يتذرون على حماستها ويسمونها «منار شقيق» على اسم درية شقيق التي كانت تؤلف حزب نسائى، حله عبد الناصر بعد الثورة. طرأت على بالي لحظات من حوارنا معا و هي تدافع عن حقها في أن تختر العمل الذى تشاء وفي أن تلبس ما تشاء وفي أن تفعل مثلاً أفعال بالضبط، وإياك أن تقول لي رجل وامرأة!

وَالآنِ مَا رأَيْكِ يَا صَدِيقِي؟

قل لي أنت ماذا تفعل لو ظلت تكتب مثلها ثلاثة سنة لتقول الكلام نفسه: يجب تحرير المرأة.. يجب تحرير المرأة، فإذا بالمرأة لا ت يريد أن تتحرر ولا يحزنون؟ ماذا تفعل في النهاية؟.. إن لم تهزمهم فاتبعهم!

ومع ذلك فهناك رد أبسط : منار تمضي في طريق الفضيلة وأنت تتردى في الرذيلة!

بسيلط جدا!

مدت يدى إلى سماعة التليفون ورحت مرة أخرى أدير رقم القاهرة، لكنى وضعت السماعة من جديد. وما رأيك في خالد؟.. بسيط جدا أيضا؟.. يخرج من صلب الطالع صالح؟..

هيا فلتواجه الحقيقة. نعم . أحياناً أشعر بالخجل من نفسي لأنه بمثيل هذا الشباب وهذه البراءة ولأننى ذلك الكهل أتشبّث بأخر قبطة مما يمكن للحياة أن تقدمه. أذكر جيداً ما قاله إبراهيم عن الظروف التي تصنّعنا. إذن فما هي تلك الظروف التي جعلت جيلنا لا يرى في الحياة عارا؟.. لماذا قبلنا أننا بشر خطئ ونصيب ونعصى وننوب، نطبع في رحمة الله ونثق أن أوان التوبة سيأتي قبل أن

تضيع فرميـتها، ولماـذا يـريد خـالد أـن يكون مـلاـكا لاـيشـوب نقـاءـه مجرد دـور مـن الشـطـرـنج؟ .. أـعـرف أـنـه لـو عـاـش تـلـك الحـيـاة مـثـلـما بـدـأ فـلـن يـعـرـف الحـيـرة التـي عـشـناـها نـحـنـاـ، لـن يـحـاـول أـن يـصـحـحـ مـاضـيـه مـثـلـما تـحـاـول مـنـارـاـنـ بـطـرـيقـتها وـمـثـلـما أـحـاـولـ بـطـرـيقـتـيـ، لـن يـكـونـ فـيـ الحـيـاة صـرـاعـ وـلـاـ فـيـ الروـحـ صـدـعـ، سـيـكـونـ كـلـ شـئـ سـهـلـاـ وـوـاـضـحـاـ، وـمـعـ ذـلـكـ فـهـنـاكـ شـئـ فـيـ دـاخـلـيـ يـقـولـ إـنـ هـذـاـ مـسـتـحـيلـ يـاـخـالـاـ! .. لـمـ يـحـدـثـ أـبـدـاـ أـنـ نـبـتـ لـبـشـرـ أـجـنـحةـ الـمـلـائـكـةـ، لـوـ أـنـكـ مـعـ الـآنـ لـتـكـلـمـنـاـ مـثـلـماـ كـنـاـ كـنـاـ تـكـلـمـ مـنـ قـبـلـ كـأـصـدـقـاءـ، لـحـاـولـتـ أـنـ أـشـرـحـ لـكـ وـأـنـ أـسـتـمـعـ إـلـيـكـ، وـلـكـ هـيـاـ! .. لـاـ تـتـلـذـذـ بـتـعـذـيبـ نـفـسـكـ! ..

طـوـيـتـ الصـحـيـفـةـ وـطـوـيـتـ صـورـةـ مـنـارـ ثـمـ عـدـتـ أـدـيرـ الرـقـمـ، وـبـعـدـ الـمـحـاـوـلـاتـ  
الـمـعـادـةـ جـاءـنـيـ صـوـتـ خـالـدـ:

ـ السـلـامـ عـلـيـكـ.

ـ وـعـلـيـكـ السـلـامـ يـاـخـالـدـ، إـمـالـ فـيـنـ هـنـادـيـ؟ .. مـارـيـتـشـ عـلـىـ الـأـوـلـ لـيـهـ زـىـ  
الـعـادـةـ؟

ـ هـىـ قـاـعـدـةـ جـبـىـ وـحـاـتـكـلـمـكـ حـالـاـ «ـثـمـ ضـحـكـ»ـ أـصـلـهـاـ زـعـلـانـةـ.

ـ زـعـلـانـةـ مـنـىـ؟

ـ لـاـ، مـنـىـ أـنـاـ.

ـ عـمـلـتـ لـهـاـ إـيـةـ تـانـىـ يـاـخـالـدـ؟ .. حـكـاـيـةـ التـلـيـفـزـيـوـنـ بـرـضـهـ؟

ـ لـاـ، بـتـتـفـرـجـ عـلـىـ التـلـيـفـزـيـوـنـ زـىـ مـاـ هـىـ عـاـيـزـةـ، أـصـلـهـاـ .. «ـاـبـتـعـدـ صـوـتـهـ قـلـيـاـ»ـ  
اسـتـنـىـ يـاـبـنـتـ .. مـاـ تـخـطـفـيـشـ السـمـاعـةـ..

ـ وـلـكـ صـوـتـ هـنـادـيـ تـدـقـ بـاـكـيـاـ :ـ إـسـمـعـ يـاـبـاـبـاـ .. قـوـلـ لـخـالـدـ دـهـ مـالـوـشـ دـعـوـةـ بـىـ  
أـبـدـاـ -ـ وـإـلـاـ أـنـاـ حـاـ أـطـقـشـ مـنـ الـبـيـتـ دـهـ خـالـصـ!

ـ يـاـسـاتـرـ يـاـرـبـ! .. تـطـفـشـيـ مـرـةـ وـاحـدـةـ؟ـ لـيـهـ كـفـىـ اللهـ الشـرـ؟

ـ كـلـ يـوـمـ يـاـ بـاـبـاـ يـنـكـدـ عـلـىـ وـيـخـتـرـعـ لـىـ حـكـاـيـةـ جـدـيـدـةـ! .. دـلـوقـتـ مـشـ عـاـيـزـنـىـ  
أـرـوـحـ النـادـىـ، حـتـىـ مـاـمـاـ قـالـتـ لـهـ يـسـيـبـنـىـ فـىـ حـالـىـ مـشـ بـيـسـمـعـ الـكـلـامـ .. مـشـ

بيرضى يخليني أخرج و...

اختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء.

- إهدى ياهنادى.. إهدى وادينى خالد. حتروحى النادى زى ما انتى عايزه.  
بس بطلى عياط ياحببىتي عشان خاطر بابا . أرجوك..

ولكن صوتها استمر وسط بكاء لاتسيطر عليه: قل له .. قل له يا بابا.

- حاضر، ادينى خالد.

جاء صوته هادئا: السلام عليكم.

- إحنا سلمنا على بعض قبل كده يا خالد.. إيه حكايتك مع اختك؟

- يا بابا أصل النادى فيه مساخر وفيه شباب فاسدين وأنا..

- أى حته فى الدنيا فيها ناس فاسدين وفيها ناس كويسين. سببها تتعلم  
بنفسها وتحمى روحها..

احتدى وهو يقول: إذا كنت أنا الرجال.. بطلت أروح النادى. هى تروح؟ حضرتك  
حتدلعها زى ماما وتسمع كلامها أول ما تنزل لها دمعتين؟ هنادى ما بقىتش  
صغيرة، وأنا هنا ولى أمرها!..

- أنت بتترفع صوتك على ياخالد؟.. وأنت ولى أمرها؟.. أنا لسه ما متتش  
ياابنى.

- بعيد الشر، أنا ما أقصدش كده. أنا قصدى..

ارتفع صوتي أنا أيضا - مش عايز أعرف قصدك!.. أنا قلت لك مالكش دعوة  
بيها وسببها فى حالها. فاهم ولا لا؟.. ياخى أنا عمرى ما فرضت عليك رأى ولا  
قلت لك اعمل كذا ولا بطل كيت.. سببتك حر تفكر زى ما أنت عايز وتنصرف زى  
ما أنت عايز . مش كده؟

-أيوه.

- إمال اشمعنى أنت عايز تفرض رأيك على غيرك؟.. دى حاجة غريبة! سبب  
هنادى كمان حرة، خليها تخرج وتروح النادى وتعمل اللي هى عايزاه. فاهم؟

تردد لحظة ثم قال بصوت خافت: أمرك. مادام حضرتك مش مقتنع بوجهة نظرى «ثم سكت لحظة، بس أنا كنت عايز أكلم حضرتك فى موضوع تانى خالص.

– طيب الأول الدينى هنادى.

– أيوه يا بابا.

– خلاص يا هنادى. أنا فهمت خالد إنك تخرجى وتروحى النادى وقت ما أنت عايزه. لكن طبعاً لازم تاخدى إبن ماما، وتقولى لها حتخرجى إمتنى وحترجعى إمتنى..

كانت شهقات البكاء لاتزال تفمر صوتها وهى تقول : ما هو أنا... ما هو أنا بعمل كده والله يا بابا .. ميرسى يا بابا.

– ويرضه يا هنادى مش عايزك تزعلنى أخوك.

انفجرت مرة أخرى: وهو ده حد يعرف يزعله؟ .. ده ينكم على بلد بحالها وهو قاعد متسلطن ويقول لك «السلام عليكم».

كانت تقد طريقة بالضبط فابتسمت بالرغم منى ولكنى قلت – عيب يا هنادى. كده أنا اللي حا ازعل منك. ده أخوك الكبير ولازم تحترميه.

– بس كده؟ .. إنت تأمر.. باى باى.. أنا باحترمك ياسى خالد، مبسوط؟.. خد كلام بابا.

– استنى دقيقه يا هنادى!

– أيوه يا بابا.

– باقول لك يا هنادى «سكت لحظة ثم قلت» أرجوك يا هنادى.. خلينك نزى ما أنت وإوعى تتفيرى!

سألت فى دهشة : وليه اللي حيفيرنى يا بابا؟

– مش عارف. فيه حاجات كتير بتغير الناس ياحببىتى، حاجات من برأهم وحاجات من جواهم.

- ولو إنى طبعا مش فاهمة أى حاجة من اللي حضرتك بتقوله، لكن إن شاء الله كله حبيجي كويس! بس أنت ما تاخدش فى بالك كده وررق ..

وضحكت لأول مرة منذ بدأت المقالة ضحكتها الصافية الطفقة. وهى تقول: باى باى .. معاك خالد.

وصلنى صوته من بعيد وهو يخاطب أخته، لو سمحت تخرجى لأنى عايز أكلم بابا فى موضوع خاص .. أبيوه يا بابا.

حاولت أن أتخلص من انفعالى وأنا أسؤاله بهدوء:

- خير ياخالد؟

- خير ياذن الله . كل خير . بس ربنا يوفق. أنا كنت عايز أكلم حضرتك عن موضوع ماما.

- أى موضوع؟

- اللي حضرتك عارفه يعني ..

- أنا مش عارف أى حاجة ياخالد .. قول بسرعة فيه إيه؟

- قصدى يا بابا إن حضرتك عارف إن أبغضن الحلال عند الله العلاق.

صرخت : وده موضوع نتكلم فيه فى التليفون ياخالد؟

- معلهش سامحنى. أصل أنا شاعر كده إن ماما ربنا هداها فى الفترة الأخيرة. ماما اتفيرت خالص.

- وأنت اللي اقتنعتها ب ... بالتفير ده؟

- ياريت ، كنت كسبت ثواب. هي والله اللي ربنا هداها كده لوحدها. قعدت مدة تشويف البرامج الدينية فى التليفزيون، وبعدين بقت تاخذ منى كتب لغاية ربنا ما هداها خالص. فانا بيتهيا لى إنى لو كلامتها دلوقت عن الصلح ألاقي عندها استعداد . بآقول يعني ..

صرخت مرة أخرى : ما تقولش حاجة ياخالد. مش فى التليفون!

- ليه ؟ .. هو احنا بتقول حاجة عيب؟ إسمعني بس يا بابا. أنا رأى إنى

أحاویل دلوقت أحس نیضی ماما یمکن تكون ..

بذل مجهوداً لكن لا أصرخ مرة أخرى.

– ما تحاولش حاجة يا خالد. كتر خيرك إنك مهم بالمسألة دي، بس دي حكاية  
مش مجالها التليفون زي ما قلت لك. حا ابقى اكتب لك جواب.

قال يا صرار : حضرتك عودتني دايما على الصراحة وإننا نتكلم ك أصحاب.  
فماتزال عش دلوقت لما أقول لك رأيي. إنت بصراحة غلطان.. لأن زى ما قلت  
حضرتك إن ده أبغض الحلال وحضرتك غلطان.

سكت لحظة ثم قلت:

- وإيه لزوم «حضرتك» دي بقى ياخالاد؟ كتر خيرك يا ابني. إنت قلت رأيك بصراحة وأنا سمعته. بس برضه ما تفتخش الموضوع ده بعد كده. وأنا متأكد إن ده كمان حيكون رأي والدك لو كلامتها. مع السلامة دلوقت.

كنت أرجف وأنا أضف سماعة التليفون.

قمت مرة أخرى أذرع الغرفة الضيقة. إلى أين ستنتهي ياخالاد؟.. نعم كان صاحبين دائمًا كما قلت. ولكننا كنا دائمًا نتناقش قبل أن تقول رأيك. الآن أنت ت يريد أن تقدر وحدك وأن تتفنذ وحدك. ت يريد أن تتفنذ ما تريده لهنادي ولأمك ولـي. هل ستقول لي مثل يوسف ولكي عندما بحثت عنك لم أجده؟ لا .. لا ألوم نفسى هنا أبداً. أنت الذى اخترت. كنت ناضجاً واحتـرت. يأتي إلى ذهنى الآن ذلك النقاش الذى دار بيننا ذات مرة ونحن نلعب الشطرنج أيام كنت فى الثانوية. كنت أيامها قد قرأت مسرحية ماكبث فقلت لي ولكن يا بابا ماذنـبـه؟.. الساحرات أغويـنـه بالعرش وقلـنـ إنـهـ لـابـدـ أنـ يـرـتـقـىـ ذـلـكـ العـرـشـ. كانـ مـسـيرـاـ حـينـ قـتـلـ، فـماـ ذـنـبـهـ؟ قـلتـ لكـ يومـهاـ إنـ ماـكـبـثـ هوـ الذـىـ خـلـقـ السـاحـرـاتـ لـكـ يـحـقـقـ أـطـمـاعـهـ وـإـنـ السـاحـرـاتـ منـ بـنـاتـ أـفـكـارـهـ لـأـكـثـرـ نـعـمـ. لـكـنـ ماـ أـهـمـيـةـ هـذـهـ الـحـكـاـيـةـ؟ لـمـاـذـاـ تـطـرـأـ عـلـىـ بـالـيـ الآـنـ؟.. نـعـمـ، تـذـكـرـتـ. أـفـكـرـ، كـمـ كـنـتـ رـقـيـقاـ وـحـسـاسـاـ يـاخـالـادـ! حـتـىـ ماـكـبـثـ القـاتـلـ كـانـ صـعـبـاـ عـلـيـكـ أـنـ تـدـبـيـنـ!.. فـأـئـنـ ذـهـبـتـ تـلـكـ الرـقـةـ الـأـوـلـىـ؟ أـينـ ذـهـبـتـ تـلـكـ

الحساسية؟ لماذا تقول بذلك الجسم وي تلك الإدانة القاطعة «أنت غلطان»؟ ماذا تعرف عن التجربة التي عشتها أنا أو التي عاشتها أمك لتصدر الحكم بهذا الإصرار؟ «غلطان يا بابا»! إن كنت أنا حتى الآن أحاول أن أفهم بون أن أدينتها هي قطعاً ، فكيف تدينتي أنت بهذه البساطة؟.. كيف احتركت الحقيقة لنفسك؟

أعرف أنك منذ مدة كففت عن أن تقرأ ماكث أو غيرها. لم تعد تقرأ غير الكتب التي تثبت لك أنك على حق وأن كل الآخرين على خطأ. ولكن احذر يا خالد!.. إحذر لأن كل الشرور التي عرفتها في الدنيا خرجت من هذا الكهف المعم، تبدأ فكرة وتنتهي شرها: أنا على حق ورأيي هو الأفضل. أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال. أنا الأفضل لأنني شعب الله المختار والآخرون أغيار. الأفضل لأنني من أبناء الرب المغفورة خطاياهم والآخرون هراطقة. الأفضل لأنني شيعي والآخرون سنة أو لأنني سني والآخرون شيعة. الأفضل لأنني أبيض والآخرون ملونون أو لأنني تقدمي والآخرون رجعيون. وهكذا إلى ما لا نهاية. انظر يا خالد إلى ما يدور في الدنيا الآن. انظر إلى تلك الحرب التي لا تزيد أن تنتهي بين العراق وإيران وكل طرف فيها على حق ومفاتيح الجنة تُوزع دون حساب والمدم ينزف دون حساب. انظر إلى تلك المجزرة في لبنان وشعب الله المختار يستأصل شعباً غير مختار ويقول قائد جيشه «العربي الجيد هو العربي الميت»!.. كل ذلك القتل لأن القاتل دائمًا هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طوال الوقت لستأصل الآخرين، الأغيار، أعداء الله، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدم .. الأعداء دائمًا وإلى ما لا نهاية. مع أنه لا توجد في العالم حرب شريفة غير تلك التي تدافع فيها عن بيتك أو عن أهلك أو عن أرضك وكل حرب غيرها فهي قتل جبان.

ستقول لي يا خالد ولكن أنا لم أفعل شيئاً من هذا كله! أنا فقط تحدثت عن الطلاق وعن النادي وعن الشطرنج!.. نعم، ولكن احذر مع ذلك من هذا الطريق يا ولدي!.. احذر يا خالد لأنه يبدأ من هنا وينتهي هناك. يبدأ بانت مخطيء وينتهي بانت تستحق القتل!

رجعت إلى المكتب محموماً. نعم، سأكتب هذا كله!.. سأكتب هذه الرسالة إلى خالد.

سأتبهه قبل أن يفوت الوقت. وأخرجت القلم والورقة.  
ولكن انتظرا!

هناك شيء ناقص في ذلك كله! أنت ت يريد أن تقول له الحقيقة كما تعرفها..  
تريد أن تكون أميناً معه كما كنت دائمًا، ولكنك لم تذكر شيئاً عن بريجيت!  
لم تقل له إن لك عشيقاً!

هل تجسر أن تفعلها؟

قلت من قبل إنك تشعر بالذنب وبالذات حين تفكير في خالد وفي براءته.  
وتعرف أيضاً أنك لا تستطيع الحياة دون بريجيت.  
شعورك بالذنب صادق وحبلك صادق، ولكن لا الذنب يلغى الحب ولا الحب يلغى  
الذنب.

فهل تكتب ذلك أيضاً؟

نعم، يجب أن يعرف كل شيء.. أن يعرف وأن يفكراً.. يفكرون ثم يصفحون، يفكرون  
ثم يديرون، ولكن المهم أن يفكراً  
الله ألم تعرف أنت كيف تكتب له.

★★★

بعد أيام زارتني بريجيت في الشقة زيارة غير متوقعة في الظهيرة.  
أدهشتني رنين الجرس المستمر الذي تصبحه طرقات ملحة وعندما فتحت الباب  
اندفعت بريجيت إلى الداخل كالإعصار. ظلت تقف وسط الصالة الصغيرة محقة  
الوجه وهي ترکز عينيها في وجهي ثم قالت بلهجة غاضبة :

- ما معنى هذا؟ .. أنت الذي كنت وراء حكاية الدروس هذه؟  
- أى حكاية يا بريجيت؟.. أنا لا أفهم أى شيء..  
حاولت أن أمسك بيدها وأقودها لكي تجلس فسحببت يدها في عنف وهي  
تقول: هل سمعت أنني أبحث عن إحسان؟

- ولكن أنا لا أعرف عن أي شيء تتكلمين. قولي ما المسألة؟

- ومع ذلك فقد ذكر اسمك.

قلت في شيء من الغضب - من الذي ذكر اسمى؟ أهدي من فضلك وقولي  
كلاما مفهوما بدلا من كلمات الإحسان .. وذكر اسمك. ما هي الحكاية بالضبط؟

قالت في ببطء متعمد وهي ترکز على كل كلمة من كلماتها: الأمير العربي ..  
الذى يرد دروس اللغة الفرنسية .. ذكر اسمك.

سكت لحظة ثم قلت متشركا : أمير؟ اسمه الأمير حامد؟

- إن كنت تظن أنى سأحفظ هذه الأسماء!.. ربما. أظن هذا هو اسمه.  
سبقتها إلى الجلوس على مقعد وأنا أحاول أن استوعب بسرعة ما حدث  
فسالتها:

- ولكن كيف وصل إليك؟

ظلت تتفق وفي عينيها نظرة اتهام وهي تقول:

- هذا ما أود أن أعرفه منك. قلت لك من قبل إن مدير الشركة..

- نعم ، نعم أنكر.. عرض عليك أن تعطى دروسا في الفرنسية بعدما قلت  
أفواج السياح. ولكن هل ذكر لك وقتها اسم الشخص الذي يريد الدروس؟

- لا ، قال إنه شخص غني. هذا كل ما في الأمر.

بدأت بريجيت تشك في اتهامها لى بأنني وراء هذا الموضوع فتقدمت بخطوات  
متزددة وجلست إلى جواري وهي تسأله في حيرة:

- ولكن إن كان يتكلم الفرنسية بطلاقة فما حاجته إلى دروس؟

- هو يتكلم الفرنسية أيضا؟

- أنت لاتعلم ذلك؟

نفدت صبرى وقلت بصوت مرتفع: كفى!.. قلت لك إنني لا أعرف شيئا على  
الإطلاق عن هذه الحكاية. لم أر هذا الأمير سوى مرة واحدة في حياتي وحدثتني

عنه يومها.

- نعم، ولهذا اعتدت أنك ريمـاـ، لأنـي تكلـمت وقتـها عنـ الأموـالـ التيـ بيـنـرـهاـ وـقـلـتـ إـنـتـيـ لاـ أـمـانـعـ..

- لـسـتـ غـيـبـاـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ يـاـ بـرـيـجـيـتـ.ـ أـظـنـ أـنـيـ أـعـرـفـ أـفـضـلـ مـنـ ذـلـكـ.ـ وـلـكـ ماـذاـ قـالـ لـكـ عـنـ؟ـ أـرـجـوـ أـنـ تـنـذـكـرـ فـهـذـاـ مـهـمـ..

غـيـرـ أـنـ بـرـيـجـيـتـ تـنـذـكـرـ شـيـنـاـ آـخـرـ فـقـالـتـ:ـ اـنـتـظـرـ لـحظـةـ.ـ إـنـ كـنـتـ لـمـ تـحـدـثـ عـنـ فـكـيـفـ عـرـفـ بـعـلـاقـتـنـاـ؟ـ

-ـ هـوـ تـحـدـثـ عـنـ هـذـاـ أـيـضـاـ؟ـ

-ـ لـيـسـ بـشـكـلـ مـبـاـشـرـ.ـ كـانـ يـلـمـعـ هـوـ شـخـصـ مـعـقـدـ وـلـمـ أـسـتـطـعـ أـنـ فـهـمـهـ تـعـامـاـ..

أـسـنـدـتـ بـرـيـجـيـتـ رـأـسـهـاـ إـلـىـ ظـهـرـ الـمـقـعـدـ وـأـغـمـضـتـ عـيـنـيـهـاـ وـقـالـتـ بـلـهـجـةـ مـتـبـعـةـ:

-ـ لـمـ أـعـدـ أـطـيـقـ الـحـكـاـيـاتـ الـمـعـقـدـةـ.ـ لـمـ أـعـدـ أـطـيـقـ أـىـ حـكـاـيـاتـ..

غـيـرـ أـنـ تـوـسـلـتـ إـلـيـهـاـ أـنـ تـرـكـزـ قـلـيلـاـ وـأـنـ تـذـكـرـ لـىـ كـلـ مـاـ دـارـ،ـ وـبـالـكـادـ فـهـمـتـ مـنـهـاـ مـاـ حـدـثـ.

عـرـفـتـ مـنـهـاـ أـنـ الـأـمـيـرـ اـنـتـقـلـ مـنـ الـفـنـدـقـ لـأـنـهـ ذـهـبـ إـلـىـ عـنـانـ أـخـرـ أـعـطـاهـ لـهـاـ مدـيـرـ الـشـرـكـةـ.ـ قـالـتـ إـنـهـ قـصـرـ كـبـيرـ فـيـ الجـبـلـ عـلـىـ ضـفـةـ النـهـرـ الـأـخـرـىـ،ـ وـإـنـهـ لـمـ تـدـخـلـ فـيـ حـيـاتـهـاـ قـصـرـاـ بـهـذـهـ الـفـخـامـةـ وـالـاتـسـاعـ.ـ ظـلـ كـلـ فـرـدـ مـنـ الـحـاشـيـةـ يـسـلـمـهـاـ إـلـىـ أـخـرـ حـتـىـ وـصـلـتـ فـيـ النـهـاـيـةـ إـلـىـ مـكـتـبـ الـأـمـيـرـ.ـ لـمـ تـتـوـقـعـ أـنـ تـجـدـهـ بـمـثـلـ هـذـاـ الشـبـابـ وـالـأـنـاقـةـ.ـ بـصـرـاحـةـ تـوـقـعـتـ كـهـلـاـ يـلـبـسـ جـلـبـاـ أـبـيـضـ وـيـغـطـيـ رـأـسـهـ بـذـلـكـ «ـإـلـيـشـارـبـ»ـ الـذـيـ لـاـتـعـرـفـ اـسـمـهـ.ـ تـوـقـعـتـ أـنـ يـرـيدـ أـنـ يـتـلـعـمـ بـعـضـ جـمـلـ وـكـلـمـاتـ لـكـيـ يـتـصـرـفـ عـنـدـمـاـ يـشـتـرـىـ مـنـ الـمـحـلـاتـ أـوـ عـنـدـمـاـ يـجـلـسـ فـيـ الـمـطـاعـمـ مـثـلـ أـولـئـكـ الـأـلـافـ الـذـيـ يـزـحـمـونـ الـمـدـيـنـةـ فـيـ الصـيـفـ.ـ وـلـكـنـ الـأـمـيـرـ الـذـيـ اـسـتـقـبـلـهـاـ بـتـهـذـبـ شـدـيدـ تـحـدـثـ مـعـهـاـ قـلـيلـاـ بـالـأـنـجـلـيـزـيـةـ وـشـرـحـ لـهـاـ أـنـهـ قـرـرـ أـنـ يـقـضـيـ وـقـتـاـ فـيـ هـذـاـ الـبـلـدـ الـذـيـ يـنـتـكـلـ الـفـرـنـسـيـةـ وـلـهـذـاـ فـهـوـ يـرـيدـ أـنـ يـتـدـرـبـ عـلـىـ الـمـحـاـوـرـةـ وـالـكـتـابـةـ.ـ نـيـهـاـ مـعـ ذـلـكـ أـنـ لـاـيـدـأـ مـنـ الصـفـرـ لـأـنـهـ سـبـقـ أـنـ أـخـذـ بـورـاتـ فـيـ الـفـرـنـسـيـةـ،ـ وـلـكـنـهـ غـيـرـ مـقـتـعـ

بالمستوى الذي حصله..

لم يكن كل هذا يعنينى فسألتها فى لهفة - ولكن ماذا قال لك عنى ؟ ماذا قال عنا ؟ هذا هو المهم.

- قلت لك إنه تحدث بطريقة ملتوية. سألنى إن كنت مهتمة بالصحافة وما نفيت ذلك قال بشكل عابر ولكنى أعتقد أن لنا صديقا مشتركا يعمل بالصحافة. ردت عليه أن صديقنا الوحيد المشترك فيما أعلم هو مدير الشركة الذى أعطاهم اسمى وأعطاه عنوانى، فقال طبعا، وهو الذى فهمت منه أنك تعرفي بعض الصحفيين هنا و منهم صديقى فلان. تجاهلت ذلك، وقلت إنى أفضل أن نبدأ الدرس لأن مدته ساعة وقد فات منها بعض الوقت بالفعل. بدا عليه لحظتها شيء من الضيق ولكننا فيما بقى من الساعة لم يخرج حديثنا عن تعليم اللغة الفرنسية. عاملته مثل أى تلميذ. بدأت أوجه له أسئلة بالفرنسية وأتحدث معه عن قواعد اللغة فاكتشفت أنه لا يحتاج إلى أى شيء. وخطر لى أنك أنت الذى كنت وراء هذه المسألة وأن الأمير أراد أن أعرف ذلك حين ذكر اسمك فشعرت بالسخط عليك، غير أنى لم أسأل الأمير عن أى شيء. واصلت معه الدرس حتى انتهت الساعة فشكرنى وقال إنه سيحصل بي لنحدد موعد الدرس التالى. ودعنته دون أن أرد على ذلك، ولكن سكرتيرته التى أصطحبتني خارج مكتبه قدمت لي ظرفا أبيض مغلقا. فتحته أمامها فوجدت بداخله الشيك. هل تعرف ما هو المبلغ ؟

- أرجو ألا يكون عشرين ألف دولار !!

فضحكت صحفة صغيرة وقالت - بالنسبة لى هو أهم حتى من عشرين ألف دولار !! كان الشيك هو مرتبى بالضبط من الشركة فى شهر كامل. أعدته إلى الظرف وردته إلى السكرتيرة وقلت لها أن تشكر الأمير وتبليغه أنى لا أستحق أى أجر، لأنه إذا كان يحتاج إلى درس فلست أنا التى أصلح لذلك. هو ليس مبتدئا بالفرنسية ليست لغتى الأصلية. من يحسبنى ؟

- ولكن صديقى يوسف كان سيقول مع ذلك إنك قد أعطيته درسا بالفعل !

- ومن يكون هذا أيضا ؟

- لا يهم، ولكن حاولى أن تذكرى. هل كان سؤاله هذا هو كل ما ذكره عنى؟

- نعم، لم أعطه الفرصة لشيء آخر. أردته أن يفهم أنى لا أريد الدخول معه فى أى حديث خارج حكاية الدروس، وقد فهم. ولكن ما الذى كان يريده بالفعل فى رأيك؟

فكرت ثم قلت: أنت لم تسمح لي بأن يتكلم لكى نفهم. كل ما يمكن أن نخرج به من هذه الحكاية هو أنه يريد أن يبلغنا بأنه يعرف علاقتنا. قالت باستهانة: وما أهمية أن يعرف أو لا يعرف؟.. أنا لا أمانع أن يعرف العالم كله أنى أحبك.. وأنت؟

- أنت تعرفين الجواب جيداً يابريجيت. تعرفين أنى أنت لى هذا العالم كله.

- وإننى فما أهمية أن يبلغنا أو لا يبلغنا؟.. أتعرف ماذا أظن؟.. أحسب أنه يريد أن يستعرض علينا ثراءه لغير. أتعرف لك بأن هناك شيئاً جعلنى أنسف منه من أول لحظة، جعلنى أندم على أنى وافقت أصولاً على هذا الدرس. ربما هو قصره الكبير أو ثراوه الفاحش أو محاوحته أن يبيو دبلوماسياً جداً وجذاباً جداً.

- هو بصراحة لا يحاول ذلك. هو بالفعل شرٍّ جداً ودبلوماسياً وجذاب.

- ربما، ولهذا السبب لم أحبه. قلت لك من قبل إننى لا أحب العاقلين ولكنى أفضضلهم مع ذلك على الآثرياء. تخيل!.. كل هذا المكان وكل هذه الحاشية لخدمة إنسان واحد، لماذا؟.. وهؤلاء العرب القراء الذين ينشرون صورهم في المخيمات.. لماذا لا يسكن فى بيت أصغر ويعطىهم الفرق؟

زفرت وأنا أقول: انتهى منذ زمن طويل هذا الكلام يابريجيت. منذ زمن طويل جداً!

- منذ متى؟

- ربما منذ الحرب الإسبانية!.. أصبح الكلام بهذه الطريقة عاراً إن لم يكن جريمة في هذه الأيام. إسألني والدك.

ابتسمت بريجيت للمرة الأولى وقالت: نادراً ما نتكلّم في هذه الأشياء. أتحدث

معه فى أمور أهم هو الآن مشغول بدراسة أصوات الطيور!

ثم التقت نحوى وقالت: هل سامحتى على هذا الغضب الذى لم يكن له داع؟

قلت فى حزن حقيقى: بل سامحينى أنت يابريجيت لأنى أجرُ عليك المتابع.

لكنها عادت تسند رأسها إلى المهد قائلة بشىء من الدهشة:

ـ لماذا تطارينى هذه الحكايات؟.. لماذا أنا؟.. أنا لا أريد شيئاً غير أن يتركنى العالم فى حالى، هل هذا كثير؟

وبعد ذلك غابت تماماً. أمالت رأسها نحوى وهى تثبت فى وجهى حدقتها الزرقاوين ولكنى أثق أنها لاتراني ولا تسمعني وأنها يمكن أن تستمر على ذلك الوضع ساعة كاملة. تضع ساقاً على ساق، تسند يديها إلى المهد، تميل برقبتها نحوى، ويظل كل ذلك ثابتًا على حاله طويلاً قبل أن تهز رأسها وهى تتلفت فجأة وتسألنى : هه؟ ماذا كنت تقول؟

ولكن شيئاً كان قد حدث لي أنا أيضاً. جنون آخر كان قد استبد بي مثل جنونها. كانت لحظات الموات تلك هي اللحظات التى أبوج فيها بكل ما لا أقوله فى صحوها، أبوج قبل كل شىء بما أخاف منه. ففهمست: أعرف يابريجيت ولو لم تتنطقى أن شرخاً قد حدث بیننا منذ قلت أنا ذلك الطفل الذى صنعته أحلامك وأن صدعاً آخر قد دقه الآن ذلك الأمير. نعم، أنت لاتريدين شيئاً غير أن يتركك العالم وأنا لا أريد شيئاً غير أن تكوني أنت هذا العالم. أعرف يابريجيت أنى مجرد صفحة فى كتاب حياتك، ولكن أنت صحفتى الأخيرة، لو طويتها فسيتنهى كل شىء، فدعى تلك الصحفة تطوى نفسها على مهل.

أنت قلت إننا نجينا بالحب، فلا تدعى العالم يهزمنا لنضيع من جديد. هل أقرأ لك شعراً يابريجيت؟

لم يختلج لك جفن. ولكنى قمت وأحضرت ديوان نيرودا الذى أحبه وجلست أحتضنك وأقرأ لك:

أيتها الوردة

أيتها الوردة الصغيرة  
أحيانا هشة وضيئلة  
أحيانا أشعر أن كفأ واحدة  
تكتفى لك تحديك  
ولكن فجأة تلمس قدمي قدمك  
وفهي شفتيك  
فإذا بك تكبرين  
وإذا بك تفتكين كجبلين  
وإذا صدرك يفمر صدري  
فلا تكاد يدي تحيط بخصرك الصغير، كهلال وليد  
انطلقت بالحب نفسك جارفة، موج بحر  
يرتطم بالسماء التي تضيئها عيناك  
فأنا حني على فمك  
وأقبل الأرض.

هذه هي أنت يا بريجيت ! .. لم يصف نيرودا غيرك !  
وكلت أحمس لك، وكنت أصرخ ، ولكن قناع وجهك المائل لم يتحرك...

## الفصل العاشر

### كل أطفال العالم

حيرتني معرفة ما يريده الأمير من بريجيت أو مني. وتنكرت أننى في الفترة الأخيرة كنت لألاحظ هندياً معيناً يجلس في المقهى حين التقى ببريجيت، وأننى كنت ألقاه أحياناً في الطريق أمام البيت، ولكن لم أهتم بذلك. قلت ر بما هي مصادفة . من يهمه أن يراقبنا؟

وطللت أيامها بعدها أيضاً أحاول الاتصال بالأمير في الرقم الذي حصلت عليه من بريجيت، ولكن ليندا هي التي كانت ترد على باستمرار لتقول إن سموه غير موجود.

ولم أفلح أيضاً في الاتصال بيوسف لارى إن كان يعرف أخباراً عن الأمير. لم يكن موجوداً بيده في أى وقت. وأخيراً ذهبت إلى المقهى، رغم أنني كنت أحاول تجنب اللقاء مرة أخرى بليلين. رأيت برنار يجلس في ركنه المعتاد وأمامه كوب البيرة، لوح لى بيده ولكن إيلين التي كانت تحمل بعض الطلبات للزيائين أشارت لي أيضاً أنها تريديني. فرغمت من مهمتها بسرعة ثم تقدمت نحوه متوجهة الوجه.

قالت : معدنة، ولكن ماذا قلت ليوسف في ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه؟ ما الذي جرى له ؟

– لا أفهم يا إيلين، ما الذي جرى؟ سامحيني ولكن لم تنسن الفرصة لأكلمه عن شيء يخصك . تبادلنا الحديث فقط عن موضوع الصحيفة وقلت له إنني لا أستطيع أن أشتراك في العمل فيها ...

استندت إيلين بيدها إلى إحدى الموائد وهي تتطلل في وجهي بنظرة يوشك أن يكون فيها اتهام، ثم أخذت رأسها وقالت بلهجة متشككة :

- هذا كل ماحدث؟
- نعم.. «ثم قلت بعد تردد» وتبادلنا أيضاً حديثاً عن الأمير.
- قلت له أن يعود إليه؟
- بالعكس، ومع ذلك فانا لا أملك أن أطلب منه أن يعود أو لايعود. هو حر يفعل مايشاء.
- وتقابلتما بعدها، أليس كذلك؟
- إطلاقاً. أنا جئت اليوم لأراه. أحتاجه في موضوع هام بالفعل.
- أفلتت منها ضحكة ساخرة وهي تقول: هام بالفعل!.. اتصل به ياسيدى عند الأمير إن كنت تريده!
- همت بأن تتصرف ولكنني أمسكت بيدها أستبقيها وأنا أقول :
- من فضلك يا إيلين، ماذا حدث بالضبط؟.. أقسم لك إنني لم أر يوسفمنذ آخر مرة جئت فيها إلى هنا. ولم يتصل هو أيضاً بي. ولكنني أفهم منك أن شيئاً قد حدث فما هو؟
- تطلعت إيلين في اتجاه بمنار لحظة ثم عادت تنظر في وجهي طويلاً قبل أن تقول :
- أنا لا أعرف ياسيدى عن أي شيء تحدثتما أنت ويوسف في ذلك اليوم الذي جئت فيه، ولكن بعد أن انصرفت ترك المطبخ ولزم حجرته بقية اليوم، ثم في الصباح قال إنه ذاهب إلى الأمير. ومن يومها لم أعد أراه تقريباً. يصحو في الصباح ليذهب إلى الأمير ولا يرجع إلا في آخر الليل.
- ثم ضحكت ضحكتها الساخرة مرة أخرى وقالت : وهل يمكن أن تشرح لي لماذا لم يعد يطلق ذقنه؟..
- غير أن أحد الزبائن ناداها في تلك اللحظة ولوح لى بمنار مرة أخرى فذهبت نحوه. وبينما أجلس قال لى:

- هل كانت تحدثك عن يوسف ؟

- نعم، ولكنني لم أفهم أى شىء، كأنها تتهمنى.

قال باستخفاف - هى لاتفهم أى شىء.

- إذن أنت تعرف شيئاً؟

قال باللهجة نفسها : وأنا لا أفهم أى شىء، ولا أحد في الدنيا يفهم أى شىء.

قلت لنفسي هو فى إحدى حالات مزاجه السيء، وكانت عيناه بالفعل  
محمرتين أكثر من العادة وهو يتجرع آخر ما فى كوبه ويشير إلى إيلين بيده أن  
تاتيه بكوك آخر، اعتمد نفته بيده وراح يتأمل صورة الفتاة السمينة التي تحمل  
ريشة الطائر ثم أطلق ضحكة مفاجئة قبل أن يسألنى : ما اسم ذلك الطبيب الذى  
نصحك أن تترك المهنة؟ أنا أيضاً أريد أن أذهب إليه!

- تستطيع أن تترك المهنة دون إنذن الطبيب يا برنار لو أردت .

- مع الأسف لا . المهنة قيد، هناك التأمينات وهناك المعاشات وكل هذه  
التعقيدات، لا تستطيع أن تغير مهنتك في هذه السن دون سبب.

- أنت تتكلم جاداً؟.. ألم تكن أنت الذى قلت مرة عندما كان إبراهيم هنا إن  
الصحفى يجب أن يبعد مسافة عن عمله ؟

- أنا أقول أشياء كثيرة لا أعنها . مثل صحيفتى بالضبط!

قلت مواسيها - ومع ذلك فصحيفتك تفعل شيئاً جيداً هذه الأيام، هى الصحيفة  
الوحيدة على ما أظن التي تشن حملة على استخدام إسرائيل للقنابل المحرمة  
دولياً ضد المدنيين في لبنان.  
أحنى رأسه ولزم الصمت.

وكانت صحيفية «التقدم» الصغيرة التي يعمل فيها برنار تصلنى في البريد كل  
يوم مع الصحيفة اليومية الرئيسية في البلد، وعادة ما كانت أكفى بقراءة العنوانين،  
وحتى هذه العنوانين أصبحت تصيبنى بالدوار وأشعر أحياناً أن كل الداء القديم

سيرجع فاتركها مكورة على المكتب عدة أيام دون أن أنظر فيها. ولكن لفت نظرى فى الأيام الأخيرة أن صحفة «التقدم» ظلت على مدى أيام تنشر احتجاجات كثيرة من المنظمات الإنسانية على ضرب المنازل والمستشفيات والأهداف المدنية فى بيروت، وعلى استخدام إسرائيل للقنابل الفوسفورية التى تسبب حروقها آلاماً رهيبة لضحاياها قبل أن تقتل، والقنابل الخداعية التى تلقى على شكل دمى ولعب لكي تقتل الأطفال، والقنابل التى تفرغ الهواء حول المبنى وتقوضها على من فيها فى لحظات. كانت المنظمات الإنسانية تتحجج على استخدام هذه الأسلحة التى يحرمها القانون الدولى، ولم تكن الصحفة الصباحية التى تصلنى تشير من قريب أو من بعيد إلى هذه الأسلحة ولا إلى بيانات الاحتجاج عليها.

قلت لبرنار - ومع ذلك فهناك شيء ناقص فى نشركم لهذه البيانات. أنت لم تسألاً أبداً من أين تأتى هذه الأسلحة التى تستخدمها إسرائيل، لم تقولوا كلمة واحدة عن أمريكا التى تعطىها هذه الأسلحة لكي تجريها فى لبنان .

نظر إلى برنار وقال بلهجة ساخرة - وترى أن تذكر أمريكا أيضا؟.. ألا تكفى رسائل الاحتجاج التى تصلنا من أصدقاء إسرائيل والتى نشرها كل يوم؟.. هل تريد رسالة احتجاج من أمريكا نفسها؟.. ترى أن تطلق الصحفة؟.. ثم استدرك - ولو أن هذا حل جيد جدا، لو أغلقت الصحفة.. لن أحتاج إلى شهادة طيبة!

خطر فى بالي شيء فسألته: أنت الذى تحرر هذه الأخبار يا برنار؟ لم يرد. ورفع كوب البيرة إلى شفتيه قبل أن يكتشف أنه فارغ فأعاده ثم قال بلهجة فخمة :

- صحفة التقدم! أفانتى! أفانتى.. «إلى الأمام إلى الأمام!..» ألا ترى أننا نفعل أشياء رائعة!.. نهاجم بمنتهى الشدة العنصرية فى جنوب أفريقيا، وندافع بحرارة عن حقوق النساء فى العالم، ونكتب مقالات تفيض عطفا على بلاد العالم الثالث، ونحن تقدميون بالفعل! ولكن تعال، حاول مرة أن تكتب مقالاً حقيقياً عن

دورنا نحن في أزمة هذا العالم الذي نذرف عليه الدموع!.. تعال، حاول أن تعطى لما يحدث في لبنان الاسم الذي يستحقه!.. إسأل كيف تكون هذه المجازرة اليومية حربا، وكأنه يمكن أن تكون هناك حرب فعلا بين جيش جرار يملك أحدث الطائرات ويلقى أفتك القنابل من الجو ومن البحر على مدينة يحاصرها ولا تملك طائرة واحدة ولا جيشا ولا أسطولا. إسأل، كيف تكون حربا أن يدافع مئات أو بضعة آلاف عن هذه المدينة بالبنادق والرشاشات أو حتى بالمدفعية والدبابات؟ أين هي الحرب في هذه المنبحة اليومية؟ إسأل!

ـ ألا تستطيع أن تسأل أنت؟

قال بلهجة قاطعة ـ لا . لا أستطيع أن أسأل. هل رأيت أحدا في صحفنا استطاع أن يسأل؟

ولم أقل له إنني حتى في الصحف العربية لم أجده من يسأل هذا السؤال. كانوا في صحفنا أيضا يتكلمون عن تطورات «الحرب» وعن مفاوضات «السلام»، وعن بطولة الفدائين الصامدين في بيروت، وينشرون قصائد حرة وقصائد عمودية كأن هناك بالفعل حربا حقيقة بين بلدين أو بين جيشين.

وضعت إيلين كوب البيرة صامتة أمام برنار وسألتني بلهجة فاترة عما أريد أن أشرب. ولما طلبت القهوة انصرفت دون كلمة. تابعها برنار بيصريه وقال :

ـ مسكيتة!.. زوجها يمر بأزمة روحية!

فقلت بمرارة : ـ وأنت أيضا على ما يسمى بـ برنار!.. وأنا كذلك.

قال برنار ـ أنا أمر بهذه الأزمة منذ أربعين عاما على الأقل !

ـ أربعون عاما !.. هل ذهبت أنت أيضا إلى الحرب الإسبانية؟

شرد بيصريه لحظة وقال ـ لا، كنت صبيا صغيرا وقتها، ولكن الحرب الإسبانية هي التي أنت إلى .

نظرت إليه مستفهما فاكمل : كان أبي عاملا وعضو في حزب العمال الثوري،

وأقاموا في مدینتنا معسكراً للاجئين الأسبان من الحرب، فتطلع أبى مع من  
تطوعوا للعمل في هذا المعسكر، وكتبت أذهب معه أحياناً، مازالت محفورة في  
ذهنى تلك القصص التي سمعتها في المعسكر، فظائع القتل والتعذيب التي  
ارتكبها الملكيون والجمهوريون على السواء، ربما يكون هذا هو السبب في أننى  
لم أنضم في حياتى إلى أى حزب، ربما يكون هو السبب في أننى قررت عندما  
كترت أن أعمل بالصحافة، قلت لنفسي قد يساعد فى شيء أن تقول الحقيقة، قد  
يتعلم الناس وقد يفهمون «ثم سكت لحظة وقال» تعال ! قل الحقيقة!

شرب جرعة كبيرة من الكوب الذى أمامه، ثم اندفع يقول في شيء من الغضب  
ـ لن يمنعك أحد، فنحن بلد حر! .. ولكن انتظر ما يجرى لك! .. ستظل طول عمرك  
من «التقدم» إلى «التقدم»!.. من صحفة صغيرة إلى صحفة أصغر، سيتحملونك  
ويشفقون عليك ..

ـ ثم لوح باصبعه في وجهي منبهاـ على ألا تتجاوز حدك مع ذلك!.. يجب أن  
تعلم أين تقف.

ـ قلت في حزن :

ـ إذن فهذا هو الحال في الدنيا كلها !

ـ لا أعرف الدنيا كلها، أعرف نفسي فقط، أعرف الآمال الكبيرة التي بدأت بها  
وأعرف كيف انتهت، أعرف أن ابنى نفسه الذي حاولت أن أعلمه منذ الصغر كل  
ما عرفته عن الدنيا، الذي قلت سأربيه على الحقيقة يعمل الآن تاجراً للسلاح،  
يبعثه للأفريقيين لكي يقتلوا بعضهم بعضاً ويكس هو مئات الآلوف، لا أدرى،  
ربما يكس الملايين، أعرف أنى عندما حاولت أن أمنعه سخر منى وتشاجر  
معى، قال إنى أريده أن يصبح فاشلاً مثلى! لم يكن ينقص إلا أن يصفنى بأننى  
أبله، لا ألتقي منه حتى بطاقة صغيرة في عيد الميلاد!.. ومن يدرى ماذا سيفعل  
جانـ باتيسـت عندما يـكـرـ؟

ـ ولزم الصمت من جديد، وكان حديثه قد ملأنى بالهم فأردت أن أنصرف ولكنه

عندما لاحظ أنى أهم بالقيام ، قال

ـ انتظِر .. أنت لم تشرب قهوتك بعد ..

وكانت إيلين لحظتها تضع أمامي فنجان القهوة متوجهة الوجه فقال لها بترنار

بهدوء

ـ هذا السيد يا إيلين لا علاقة له بما حدث لزوجك ..

نظرت إيلين إليه ملياً فكر بطريقة جازمة – لا علاقة له!

انصرفت دون كلمة وسألته في دهشة : ما الذي جعلك تقول هذا ؟

ـ لأنني أعرف أنه لا علاقة لك!

ثم استرد شيئاً من حيويته وقال بضاحكته المعتادة: يجب أن تكون سعيدة مع ذلك .. كانت تشكوك دائماً من أن يوسف يشرب النبيذ منذ أن يستيقظ في الصباح وحتى ينام في المساء ، وهو الآن لا ينونق الخمر. تغيير روحي كبير.

سكتُ أملاً أن يكمل حديثه ولكنه قال لي :

ـ لا تتطلع إلى هكذا! أنا لا أعرف شيئاً عن يوسف ولا عن تغييره الروحي .. ولكنني أعرف شيئاً عن الأمير ..

انتبهت تماماً عندما ذكر الأمير، ولكنه تردد لحظة قبل أن يقول : من واجبي أن أقول لك. أعتبر نفسي مستئلاً لأنني أنا الذي قدمتك إلى يوسف وطلبت منك أن تساعدك في العمل في هذه الصحيفة مع هذا الأمير، وقلت لك إنه أمير تقدمي ..

ـ وما الذي جد؟ أليس بالفعل تقدماً؟

ـ يتوقف هذا على ماتعنيه بالكلمة. ولكن أرجو على أى حال ألا تكرر ما سأقوله، إن صحت مصادرى فهناك طبخة كبيرة يعدونها الآن لمنطقتكم وما يجرى في لبنان هو مجرد بدأية. هناك إعادة ترتيب كاملة للأوراق ومفاوضات سرية بين كل الأطراف، مفاوضات بين دول وبين أجهزة وبين منظمات وسموّه ضلع رئيسي فيها ..

قلت بعد سكتة قصيرة - لست متدهشا .

- هل كنت تعرف إذن؟

- لا، لا أعرف أية تفاصيل وليس عندي مصادر كمصادرك ولكن كانت عندي شكوكى فى هذا الأمير وفي علاقاته منذ البداية وحدثت يوسف منه .

تفرس فى وجهى وهو يقول : - أخطأت فى ذلك يا صديقى، هؤلاء الناس لا يحبون أن يكتشف عنهم أحد أى شيء، والأفضل إذا اكتشف أحد شيئاً أن يصمت!

★★★

لم استغرب بعد ما سمعته من برئار من فشل محاولاتى فى الاتصال بالأمير حامد.. غير أنى أخفيت كل ما سمعته عن بريجيت. لم أذكر الأمير قط. تمنيت أن تظل على اقتناعها بأن كل ما حدث منه هو مجرد محاولة لاستعراض ثرائه. عرفت أنها لو شكت فى أن هناك شيئاً آخر وراء المسألة - لو عرفت أن الأمير ربما كان يجس نبضها ليصل عن طريقها إلى ما أعرفه أنا أو ليستخدمنها كسلاح ضدى - فسيفتح ذلك الجروح القديمة. الجروح التى حاولت أن تداوينها بالهرب إلى هذه المدينة والتى قد تهرب الآن منها. وكتت أعرف أن ما أفعله ليس فيه شيء من الأمانة وأعرف أنى أثانى، ولكنى لم أحتمل فكرة أن أفقدها .

ودفعنى الاحساس بالخطر إلى أن أثبت بها وأغوص أكثر فأكثر فى النوامة التى تجرفنا معا، تحولت الموجة إلى طوفان عارم يغمر الليل والنهار معا، وكنا ننقلب فى هذا الطوفان دون أن نضيع فيه، نندمج معا فى موجة واحدة، فى قطرة واحدة لا تنتفصل .

وهل كنت أنت أيضاً يابريجيت تشعرين بالخطر؟.. كنت تعطين من نفسك دون تردد، نلح معاً آفاقاً لم نرتدها من قبل فى لهفة محمومة لانريد أن تضيع دقيقة. وكنت أحضرتك أتحسس كل جزء من جسمك كأنى لو تركتك يدى فستتسربين من

بين أصابعى، كأنى لولم أضنك بين أحضانى فستلاشين فجأة، أتحسسك كأن أصابعى ستخلد إلى الأبد هاتين الوجنتين حين تتضرجان بالرغبة، حين ترتسما فيهما تلك الخطوط وأنت فى قمة النشوة وكأن وجعا لا يحتمل يتخلل فرحة لا تحتمل، أتحسس الشفتين اللتين تترفرجان فى تأوه يرتعش له الجسد كله، والعنق الأبيض الطويل الذى يبرز فيه عرق واحد أزرق حين تصعب فيه دماء الحب، أتحسس كتفيك الملساوين المدورين، أريد أن أثبت فى أصابعى لحظة انتفاضهما تلك لتظل حية إلى الأبد، حين ينهض صدرك شامخا مستنفرا وأنت تلهثين، أمر بيدى على ذراعيك الجميلتين، على ساقيك البيضاوين الطويلتين، على هاتين القدمين الرقيقتين الناعمتين، اللتين تحملنك فوق الأرض بخفة، كجناحى حمامات بيضاء، أمر بشفتي على جبينك، أتحسس عند منبت الشعر زغبا يدغدغ كل حواسى، أقبل جفنيك وأمر بجانب يدى على تلك الرموش الطويلة الناعمة، أتأمل عينيك الزرقاءين حين تثيران بلمعة الصبوة .

أريد أن أخلدك فى أصابعى وفى يدى وفى شفتي، أخشى فى قمة الحب من فقد، أخشى ونحن قطرة واحدة فى الموج أن ننفصل.

وشعرت أنت رغم كل شيء أن هناك شيئا غير عادى يحدث، وقلت فى لحظة كنت أغمض فيها شفتي فى المكان الذى أحب، فى تلك الفجوة بين رقبتك وكتفك وأنا أمسد غابة شعرك الذهبى، أخطى بها وجهى، قلت فى ضحكة صغيرة وأنت تتحسسين بدورك شعرى الخشن، الذى كان ملمسه يثيرك .

قلت - أصبحت شرها هذه الأيام ! .. ما الذى جرى لك؟

ولم أرد، كنت مخدرا بالحب ويعطر جسدى.

فأكملت ضحكتك وقلت : ليس لأنى أقل شرها! .. ولكنى أخاف عليك.

قلت دون أن أرفع رأسي: طبىبي يقول إنى لم أكن فى أى وقت أحسن منى الآن.

- أرأيت؟ ألم أقل لك إننا نجونا بالحب؟ ومع ذلك فيجب أن نأخذ حضنا . يجب

أن نتعقل قليلاً.

وشعرت أنت بجسدي يتوتر قليلاً بعد كلمتك، فرحت تربتين بيديك على ظهري  
وتسألين :

ـ هل أغضبتني؟

ـ نعم ! .. نقص حبك!.. تكررين كلاماً كالذى يقوله العشاق قبل الانفصال!  
فقلت وسط قبلات متقطعة - كم مرة قلت هذا الكلام؟.. هل يبيدو علىَّ أنى  
سانفصل عنك؟.. لن أسمح لك أنت حتى أن تنفصل عنى لو أردت!.. أنت ملكى..  
كنت ضائعاً مني وقد وجدتك، أريدك أن تبقى ملكى طويلاً، ملكى إلى الأبد..  
فتمتت وكأنى أكرر عبارة محفوظة : لو أن الزمن لا يكمن!..  
ولكنى لم أذكر بالضبط متى سمعت هذه العبارة.

★★★

فى خلال تلك الأيام المشحونة ، تلقيت رسالة رقيقة من رئيس التحرير فى  
القاهرة.

كنت قد أرسلت إليه إيصالات المستشفى، فكتب فى رسالته إن الصحيفة  
ستسدد تكاليف العلاج وتنمى لى أن أقضى فترة نقاهة مريحة، لكنى يعود إلى  
الصحيفة قلماً «الذى يعتز به»!.. ونصحنى مرة أخرى بـلا أرهق نفسي وبـلا  
أعود إلى الكتابة إلا عندما استرد عافيتك تماماً. وقال إنه عمل بنصيحتى فلم يبلغ  
أحداً في الصحيفة بمرضى لكنى لا ي يصل الخبر إلى الأسرة والأولاد.

أثارت في نفسي رسالة رئيس التحرير بالفعل. كنا زميلاً قد يمين لم تتوطد  
الصداقة بيننا أبداً لأن فكرته عن الصحافة كانت تتلخص في أن كل سلطة في  
الحكم على حق حتى ترحل، وهو يضع قلمه في خدمتها. لكنه كان شخصاً ونوباً  
مع زملائه لا يتزدد في تقديم الخدمات البسيطة التي يستطيعها بحكم منصبه.  
وحمدت له بالذات تلك الإجازة المفتوحة التي قدمها لي لكنى أسترد صحتى. فقد

أراحتنى من متابعة الصحف وكتابة الرسائل الشهرية والبحث عن الأخبار الطريفة أو عن أى أخبار أخرى.

ولكن كان من الصعب أيامها ألا أتابع ما يحدث فى لبنان. وكانت الأخبار مثل الصربات المتلاحقة على الرأس. تدمير وسط بيروت بكل أنواع القنابل، ٢٥ قتيلا فى غارة واحدة من قنبلة فراغية. الموافقة على ترحيل الفدائيين من لبنان.. وصول قوة أمريكية للإشراف على ترحيل الفلسطينيين.. إلخ. وكتت أتابع أيضا تطور حملة صحيفة التقدم على انتهاء إسرائيل لقوانين الحرب الدولية واستخدامها للأسلحة المحرمة. وأقرأ أيضا رسائل الاحتجاج الفاضحة التى يبعث بها أنصار إسرائيل إلى الصحيفة. وكانت أعنف رسالة قرأتها بتوقيع «أ. ف. دافيديان، رجل الأعمال» الذى كتب يقول إن الصحيفة تنزلق فى طريق خطير وإنها تروج الأكاذيب المختلفة التى تنتفعها منظمة التحرير. وقال إن الحرب فى لبنان هي باختصار لطرد المخربين الذين يقتلون نساء إسرائيل وأطفالها فى الجليل. وذكر الصحيفة بأن ملايين النساء والأطفال من اليهود قد ماتوا فى معسكرات النازيين المجرمين فى أوشفيتز وبوخنفالد والمعسكرات الأخرى «فهل تريدون أن يستمر اليهود فى دفع هذه الضريبة إلى الأبد؟.. لا يحتاج الشعب اليهودى إلى دروس فى الأخلاق أو فى الإنسانية من أحد».

وقلت لنفسي بعد أن قرأت هذه الرسالة.. من يقرأ هذا الكلام ياسيد دافيديان يعتقد أنه أنت أيضا دفعت الضريبة فى أوشفيتز!.. أما أغلب ظننى فهو أنه كنت أيامها فى قصر كبير فى حى «الظاهر» فى القاهرة أو فى «ستانلى» فى الإسكندرية، تعيش عيشة المليونيرات وتفكر فى الولائم والصفقات أكثر من تفكيرك فى جرائم النازيين.

ومع ذلك فكل شيء يصلح، الحديث عن النازية والخيل العربية وهدم مبانى القراء القديمة والتبرعات لإسرائيل. كل شيء يصلح مادمت تتبع! موت طفل واحد هو موت للدنيا كلها بالطبع، ومع ذلك فلن يسألك أحد كم طفال

قتلوا في الجليل: خمسة أو عشرة؟.. وكم ألفا من الأطفال أبادتهم إسرائيل في لبنان ومن قبلها في فلسطين؟.. ولم لا؟.. لست وحدك!

كانت الأخبار في الصباح تتحدث عن سقوط مئات القتلى والجرحى كل يوم في المدينة المحاصرة، فينقل تليفزيون البلد في المساء احتفالاً مهيباً مليئاً بالمراسيم الدينية وبالدموع وبالغضب لدفن أربعة جنود إسرائيليين سقطوا في «الحرب». لا يحزن العرب لقتلاهم بالطبع! ولم لا؟ هناك بشر حقيقيون ويشر لاحاجة لهم على الإطلاق. وكانت قد قرأت في صحفية «التقدم»، أيضاً هذا التصريح لبشير الجميل، المرشح رئيساً للبنان، وقال فيه «هناك في منطقتنا شعب لا زرم له، اسمه الشعب الفلسطيني»!

وعرفت معظم الأخبار من التليفزيون في أوقات غياب بريجيت. تابعت ابتسamas المبعوث الأمريكي إلى لبنان فيليب حبيب وتصريحاته عن نجاح خططه لوقف إطلاق النار. وحاوت ألا أفك في أن أمريكا هي التي زوالت إسرائيل بالطائرات والقنابل التي تقتل وتشعل النار، وهي نفسها التي ترسل المبعوث لوقف إطلاق النار. حاوت ألا أفك في أنها هي القاتل وهي المعزز. وما فائدة مثل هذه الأفكار مادامت هي نفسها أيضاً التي توسطت لترحيل المقاومة من لبنان؟.. مادامت قد قررت وأرسلت بالفعل تلك القوة العسكرية مع حلفائها لنفي المقاتلين الفلسطينيين من هناك ووعلنا نحن معها على ذلك وتصافحنا؟.. مادام كل شيء قد انتهى وبدأت المقاومة تخرج من لبنان؟

ولكن كاتباً واحداً في البلد لم يطق أيامها صبراً. أخيراً فعلها بربنا!

شد بصرى في ذلك الصباح عنوان العمود الذي كتبه «المعصومون»، وكدت أكذب عيني منذ بدأت أقرأ العبارات الأولى في المقال: «أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام. أصابه الخرس فلم ينطق شيئاً عن الجرائم ضد حقوق الإنسان مادامت تأتي من الدولة العبرية. يرجع صحفيون من هناك يربكون أن يحكوا عن الفظائع التي رأوها لكن ما يكتبونه لا ينشره أحد. أليس كذلك يا عزيزى لورانس؟..

تقول إن هناك أصواتاً ترتفع على استحياء.. ولكن انتظروا.. سيأتي الرد عليها فوراً في أبواب بريد القراء المفتوحة على مصاريعها في كبريات صحفنا. تلك الأصوات الشجاعة هي بالطبع معادية للسامية!

سيشهدون في وجهك مسألة أفران الفاز المتهنية. تقول إنك لم تكن قد ولدت أيام جرائم الإبادة هذه؟.. لا يهم.. أنت مسئول عنها أديباً. فإسرائيل من المحرمات. إسرائيل مخصوصة لا يمسها أحد!.. وكل ما يفعله ذلك البلد فهو حسن.. ولكنك ستقول إنه لا توجد جرائم رديئة وجرائم حسنة. لاسيما إن كان ضحاياها من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى على أسرة المستشفىات.. إذن فأنت يساري متطرف مهيج وعميل لمنظمة التحرير..

وастمر المقال بهذه اللهجة الغاضبة ثم ذيله برناور بعبارة تحت توقيعه قال فيها «أفهم بالطبع بعد هذه الكلمة أنى معاد للسامية فلا داعي لأن يكتب أحد لكي ينبهنى إلى ذلك!»

لم أقرأ في حياتي في صحيفة في البلد كلاماً من هذا النوع. وقلت لا بد أن أقابل برناور لأعرف منه ما الذي حدث بالضبط وما الذي قالته لورانس التي يشير إليها في كلمته. وفكرة أن أطلبها وأحدد معه موعداً غير أنني تذكرت تجربة لقاء الممرضة النرويجية ماريان فقررت أن أؤجل ذلك. وكنت قد اتخذت قراراً حاسماً آخر في تلك الأيام هو ألا أشاهد على شاشة التليفزيون خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت أو أن أقرأ شيئاً عن الموضوع، ولما دخلت إسرائيل بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل فلم تجد غير حفنة من كتائب «المرابطين» الناصريين يرددون على المدفعية والدبابات بالبنادق قررت ألا أفتح التليفزيون على الإطلاق. قلت هذا يفوق حتى تعذيب الذات.

غير أنني لم أستطع الهدب طويلاً. ففي المساء نفسه الذي قرأت فيه كلمة برناور جاءتني المكالمة التليفونية. أيقظتني من نوم قلق بعد الظهيرة. كان هناك صوت غير واضح يتكلم اللهجة اللبنانية.

- حضرتك الأستاذ..؟

- نعم .

- معك سامي من الصليب الأحمر اللبناني.

- أهلين .

حاولت أن أتذكر بسرعة : هل أعرفه؟

لكن سامي قال بصوت متهدج : معى صاحبك المصرى الأستاذ إبراهيم يريد  
أن يتكلم معك. حاول أن تهدئه الله يرضى عليك!

قلت فى لهفة : إبراهيم

فجاءنى صوته من الطرف الآخر متحشرجاً ومتقطعاً : اسمع توجد جبال  
من... جبال!

- إبراهيم!.. ارفع صوتك قليلاً من فضلك. أنا لا أسمعك . كيف حالك؟

- ملعون حالى! قلت لك توجد جبال من الجثث. ويوجد ملايين من الذباب.  
الذباب مازال يغطى عينى، وتحت جلدى رائحة الموت.. أكتب أكتب ما أقوله لك  
بسريعة .

فتثبتت بحركة آلية على المكتب عن قلم وأوراق وأنا أهتف في السماعة

- لا أفهمك يا إبراهيم . ماذا تريدين أن أكتب؟ أى ذباب؟

رد إبراهيم في صرخ غاضب. أكتب ما أقوله لك. في صبرا تغطى جبال من  
الذباب جبالاً من الجثث. لا، أشطب هذا. أشطب الذباب، ما أهميته؟ لا أستطيع  
أن أفكّر. أنتظر لحظة.. ولكن الذباب مازال بالفعل يطن في أذنى... أسف. ولكن  
لم يعد هنا مكان أكتب فيه. بعد أن خرجت المقاومة أغلقوا مصحفنا كلها. أريد أن  
أقول لك ما رأيته قبل أن يضيع الوقت. لابد أن تسجله. انتظر لحظة.. انتظر.

ساد الصمت لحظة قبل أن يأتي صوت سامي.

- رجوك يا أستاذ أن تهدى إبراهيم. حالته صعبة!.. كلنا والله حالتنا صعبة  
بعد ما رأيناها في صبرا وفي شاتيلا. ولكن الأستاذ إبراهيم مريض بالسكر كما

تعرف.. يمكن أن يضيع في أزمة لو استمر هكذا. ها أنذا أقولها أمامه بالصوت  
العالى، يمكن أن يضيع في أزمة لو استمر هكذا...

ولكن إبراهيم اختطف السمعاء وجاء صوته صارما وشعرت أنه يبذل مجهودا  
جيارة لكي يتمالك نفسه : إسمع. لا يوجد وقت. لن أجد حتى التليفون الذى اتصل  
بك منه لو ضاعت هذه الفرصة. ماذا نشروا عندكم عما حدث فى صبرا وشاتيلا؟

- لم ينشروا شيئا، ما الذى حدث؟

صرخ - كيف؟ ولا حتى فى أوروبا؟ منذ ثلاثة أيام تدور المجازر هنا. منذ  
دخلت إسرائيل إلى بيروت والمجازر تدور. كيف لم ينشروا شيئا؟  
أنا عائد توا من صبرا وهناك...

ولكن إبراهيم لم يكمل . كانت هناك صفاراة طويلة وانقطع الاتصال.  
ظللت أصرخ في السمعاء الميتة : إبراهيم! إبراهيم!.. ماذا حدث؟  
ماذا حدث؟.. جريت أفتح التليفزيون. كان هناك مسلسل «دالاس».

تركت التليفزيون وفتحت الراديو. أدرت المؤشر بسرعة على المحطات . لم  
تكن هناك نشرة أخبار. كانت هناك موسيقى وأغانى فى كل مكان. ولكن بينما أدير  
المؤشر بسرعة وبلا انقطاع إلى اليمين وإلى اليسار انقطع المسلسل فى  
التليفزيون. ظهرت مذيعة تقول بوجه جامد: وصلتنا توا رسالة خاصة من بيروت.  
تنصح الأشخاص الحساسين والمصابين بأمراض خطيرة بـلا يشاهدو هذه  
الرسالة.

صمت . ظلام على الشاشة. دون أى مقدمات يظهر مذيع أعرفه اسمه جان -  
باسكار. نحيل وفي وجهه عينيه تعبير حزن غير محدد. الآن فى عينيه غشاوة  
ندية من الدمع. كان يرتدى القميص والبنطلون ومن خلفه بقايا بيت مهدم. كانت  
شمس، وكان عرق يتفاصل من جبينه. ظلت الكاميرا مسلطة على وجهه فترة قبل  
أن ينطق.

قال بصوت حاول أن يجعله هادئاً : سيداتي وسادتي المشاهدين.. في خلال  
عشرين عاماً من العمل هذه هي الرسالة التي تمنيت ألا أنقلها إليكم..  
يرتعش صوته مع ذلك وهو يقول : هذه أول مرة تدخل فيها الكاميرا إلى مخيم  
صبرا بعد المذابح ضد الفلسطينيين خلال الأيام الماضية..  
تتجول الكاميرا بعد ذلك في صمت. تتجول وسط أزقة ضيقة. وسط بيوت  
مدمرة تبرز منها أسياخ حديد ملتوية وبقايا أثاث محطم ولكن لامظهر لأى حياة  
تحرك. ثم تتمهل الكاميرا وهى تنقل الصور من بعيد.  
أكواخ من الجثث ملقة على الأرض.  
جثث وراء جثث. وجثث فوق جثث..

كومة لجثث مختلطة لرجال ونساء ملقة على جوهرها وجنوبها وظهورها.  
كومة أخرى ترتمي على ظهورها وساقاتها منفرجة، نساء وأطفال..  
كومة ثالثة جثث رجال منتفخة كأن جلودها وثيابها ستنفجر في أى لحظة..  
بحيرات دم متجلط تحت الرؤوس وحول الأجساد .  
جثث أخرى لرجال وأطفال يحتضنون بعضهم البعض بسواudes ملتوية..  
جسد محشور يتدلّى نصفه الأعلى فقط من بين الأنقاض ورأسه منكس في  
الأرض، رقبته من الخلف مجزوة بالعرض..  
طفلتان متباورتان، نصفهما العلوي عار.. حاول أحد أن يغطى نصفهما  
السفلي بصحيفة مفتوحة فلم ينجح ، تبرز الساقان الصغيرة منفرجة.  
ترتعش الكاميرا عندهما وتقترب قليلاً، واحدة من الطفلتين في مكان العينين  
فجوتان تجلط فيهما الدم.

كومة جثث ممدودة الأذرع إلى جوار جدار مهدم، كأنها تتسلق بعضها  
البعض.. في الجدار ثقوب رصاص وخطوط دم بالطول.. أصابع جريحة كانت  
تتشبث قبل السقوط..

جثث كأنها تسجد إلى جوار حصان أبيض يرتمي على جنبه وجراح كبير يشق

بطنه وقد انتفع كفلاه وظل ذيله متشنجا.. إلى جواره عجوز أشيب تبرز ساقاه  
النحيلتان من جلباب أبيض، بجانبه عكاز تمتد يده إليه وفى رأسه ثقب مدمم.  
فوق الحصان ذباب كبير، وفوق الجثث ذباب كثير.

يرن التليفون مرة أخرى فلا أحد يدى إليه. أظل مسمرا مكانى أتابع الصور  
على الشاشة.

تنتهي الرسالة القصيرة يقول جان - باسكال بصوته المتهدج لم نستطع أن  
ننقل لكم كل الصور التى شاهدناها فى صبرا وفى شاتيلا. بعضها لا تحتمله عين  
بشر.. يقول كلاما كثيرا لا أستوعبه.

أمد يدى شاردا إلى سمعة التليفون. هو صوت إبراهيم من جديد. يقول  
ساميليك الآن بسرعة: أخشى أن ينقطع الاتصال مرة أخرى. أكتب، فى صبرا وفى  
شاتيلا ذبحت إسرائيل والكتائب وجيش سعد حداد آلاف الفلسطينيين...

صرخت: آلاف؟.. يوجد من هذه الصور آلاف؟

لم يسمعني إبراهيم. قال: هل تكتب؟.. معك القلم؟.. ساقول لك الوقائع  
واكتبها أنت بعد ذلك كما تشاء . عندما وصلت إلى صبرا كانت الجثث تصنع  
حواجز فى أزقة المخيم الصغيرة. حواجز يجب أن تعبر فوقها إن أردت أن تمر  
وأن تتجول فى المخيم. يجب أيضا أن تعبر رائحة الموت وسحابات الذباب. فى  
واحد من الشوارع كانت الأرض رلقة. غاصت قدمى. كان هناك جير طرى على  
الأرض يغطى حفرة كبيرة. ومن هذه الحفرة كانت تبرز رفوس مهشمة وأذرع  
وسيقان مسودة.

- ولكن كيف؟ كيف قتلوا كل هؤلاء؟

- بكل الأسلحة. بالرشاشات، بالبنادق، بالسلاسل، بالبلط، بالسيوف،  
بالخناجر، بالجرافات التى هدمت البيوت على من فيها من أحياه وأموات،  
بالدبابات الإسرائيلية التى كانت تدك المخيمات طول الوقت تفتح للجزارين  
الطريق، بالسحل فى الشوارع، بيتر الأعضاء..

سكت إبراهيم لحظة وكان يلهم. ابتعد.

قال سامي يائساً: ألا تستطيع يا أستاذ أن تهدئه؟.. هو يتجلو حتى الآن بحريته ولكنني أقول لك إنه عاش بمعجزة . لو لا أنه يشبه الأوروبيين ومعه تصريح منزد لقتله الإسرائييليون أو الكتائب منذ زمن. الرب يرحمتنا!.. ولكن صدقه يا أستاذ. ما رأيناه هنا تهون جنبه رؤيا يوحنا!.. من مات في الحرب رحمة ربه. هنيا له من مات في الحرب!

اختطف إبراهيم السماuga مرة أخرى. وقال وهو يحاول أن يكون هادئاً : هل كتبت كل ما قلته لك؟  
نعم.. تقريباً كلـه.

ـ إذن اكتب هذا. في مدخل المخيم بيت لصاحب محطة بنزين مجوز أعرفه اسمه مقداد، ذبحوه وذبحوا كل أسرته، أولاده وبناته وأحفاده وأزواج البنات ، كلهم قتلواهم ذبحاً، أحصيت بنفسك أربعين جثة في بيت مقداد. كلهم جزروهم ويتروا أعضاعهم واغتصبوا كل النساء والبنات ثم تركوهن عرايا ..

ارتفع صوت إبراهيم . لم يعد هادئاً وهو يقول : رأيت زينب مقداد. كانت حاملة في شهرها الأخير. شقوا بطنه وأخرجوا منه الجنين. مزقاً أطرافه ووضعوا ساقيه وذراعيه وجسده على شكل دائرة على صدر أمه بعد أن بتروا ثدييها، وضعوا رأس الجنين وسط الدائرة وكان الدم متجلطاً وكان الدود والذباب يأكل في الرأس المبتور..

تقىيات على الفور. خرج كل ما في جوفى دفعة واحدة .  
سمع إبراهيم سعالى وشهقاتى فأجهش بالبكاء لأول مرة .  
وجاء صوت سامي في السماuga يكرر مؤنباً: طلبت منك يا أستاذ أن تهدئ إبراهيم، فماذا فعلت؟

ومن بعيد كان صوت إبراهيم كأنه في حلقة ذكر: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!

وكلت أقول بصوت متحشرج وسط السعال : أستاذ سامي - أعطني ..  
أعطني .. رقم التليفون .. من فضلك أعطني ..

ولكن كل الرد من الناحية الأخرى كان صفاراً طويلاً.

في التليفزيون كان مسلسل دالاس مازال يدور دون صوت . في أذني كان إبراهيم يتكلم وكان جان باسكال يتكلم وكلت أحياول أن أنظر الأرض والمكتب بمنشفة وكان جرس الباب يدق بلاحاح عندما فتحته وجدت بريجيت.

دخلت وهي تترنح وتمد يديها أمامها كالصريرة، وكانت عيناهما ميتتين بالفعل وقالت في همس متشنج : أرأيت؟.. أرأيت؟

أشارت بيدها إلى التليفزيون وقالت : كنت في المقهى المجاور ورأيت الصور ..  
أرأيت؟

ثم ارتمت على صدرى وهي تكرر كلمتها : أرأيت؟.. قتلوا كل أطفال العالم!  
أرأيت؟

وكان جسمها كله يتنفس وهي تتکء على كفى ..  
وكنت أنا أيضاً أتنفس ..

★★★

## الفصل الحادى عشر

### صعد و الجبل

سجلت كل ما قاله لى إبراهيم.

قلت أقسم أن أكتبه ، أقسم أن أكتب ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى .  
ولو اضطررت أن أحمله على لافتة وأمشى به فى الشوارع .  
لكن أول شيء فعلته فى الصباح كان هو أن توجهت إلى مكتب الصليب  
الأحمر فى المدينة .

فَكَرِّرَ كثيرون مثلى ووجدت المكتب مزدحما بالعرب . وكانوا يتزاحمون حول  
موظف واحد فى حجرة الاستعلامات ، وسمعت نشيجا كائناً متصل يصدر من  
ركن فى الغرفة يخفى الزحام مصدره . وراح المتجمعون حول الموظف الجالس  
خلف مكتبه ييرزون صور نساء وأطفال وهم يحاولون جمياً أن يشرحوا له وهو  
يدون فى ورقة ويصبح : الأسماء !.. الأسماء أولاً !

رأيت موظفا يقف فى ركن من المكتب وحوله أشخاص آخرون يتكلمون جمياً  
فى وقت واحد وبأيديهم أيضاً صور وظروف مقلقة ، وظل هو يشير طوال الوقت  
إلى لافتة مكتوبة بعدة لغات من بينها العربية : «الاتصالات التليفونية  
والبريدية بيروت مقطوعة. أترك استفسارك ورقم تليفونك وستتصلك بك  
بمجرد أن تصلنا المعلومات» .

زاحمت الآخرين حتى وصلت إلى هذا الموظف وقدمت له بطاقةى الصحفية ،  
رفعها وألقى عليها نظرة ، وأشك أنه فهم أى شيء وسط الضجة التى تحيط به

لأنه ردَ إلىَ البطاقة واكتفى بالإشارة إلىَ اللافتة المعلقة ثم انصرف عنى إلىَ غيري. لكنى أمسكت بذراعه وقلت له : من فضلك ! .. استمع إلىَ أنا صحفى وبالامس تلقيت مقالمة من مكتبكم فى بيروت من شخص اسمه سامي .. ولكن آخرين كانوا أيضاً يذنبونه من ذراعه ويوجهون له أسئلة فيرد «حالا .. حالا ..»

قلت فى ياس : أريد أن أعرف كيف أتصل بسامى فى بيروت ! .. هناك زميل صحفى فى بيروت .

ردَ علىَ فى بطاقة ليشعرنى أنه كان يتبعنى وقال ، فهمت ، ولكن أؤكد لك ياسىدى أن جميع الاتصالات ببيروت مقطوعة منذ خمسة أيام مرکزنا الرئيسي يتصل بالأمم المتحدة و ... وبالجهات الأخرى لفتح الاتصال بالمكتب من جديد. أنت صحفى وتستطيع أن تتذكرة مما أقوله . أنا لا أعرف كيف أتصل بك موظفنا من هناك ، ولكن اترك اسم صديقك ورقم تليفونك ...

ثم تحول إلىَ غيري وكانت هناك سيدة بدينة تربط رأسها بيايشارب مشجر تقف إلىَ جواري صامتة ومستندة علىَ عكاز . سألتني .  
- ماذا قال لك يا ابني ؟

شرح لها فأخرجت من صدرها كيساً جلدياً صغيراً ففتحته وقدمت لي صورة مهترئة لوجه شاب وسليم في العشرين من عمره تقريباً اعتقدتني جيداً بتشذيب شاريه وقالت :

- هذا هو ابني ، موجود في صبرا . إسأل الله يرضي عليك إن كانت عندهم أخبار عنه . هو الوحيد الذي عاش لي ، بقيتهم ماتوا في الحرب ..  
كررت لها ما قاله لي الموظف ، ولم أملك نفسى أن أسائلها : وأنت ؟ ما الذي جاء بك إلىَ هنا ؟ ..

أشارت إلىَ ساقها . لم تكن هناك ساق . قالت

- نقلونى هنا ليعالجوني ، خيبة الله علىَ ! .. خيبة الله علىَ إن كانوا قد حكموا علىَ أن أعيش ويموت ولدى الباقي ..

لم تكن تبكي كانت تنظر نحوى وهى ترفع فى وجهى الصورة بيد ترتعش وتتكرر «خيبة الله على». ثم سكتت وطلت شفتاها منفرجتين. ولكن فى تلك اللحظة ارتفع صوت المرأة المختفية خلف الزحام وهى تقول بصوت مبحوح فى نداء عادى ، كائنا بشيء من الدهشة لا أكثر : يا ولدى ! .. يا كل الشباب!..

وصمت المكتب كله فجأة وتحولت الوجه إلى الناحية التى صدر منها الصوت وسرت قشعريرة فى بدنى حين سمعت ذلك النداء . وأاحت السيدة البدية رأسها وراحت تتطلع إلى الصورة وقد انطلقت دموعها الحبيسة تغمر خديها وهى تتمت بدورها بصوت لا يكاد يبین .

- يا ولدى ! .. يا كل الشباب ! ..

أنسنت ظهرى إلى الحائط وقد انتابنى دوار خفيف وأنا أطلع إلى وجهها إلى الوجه الآخر فى المكتب. ولكنى انتبهت على الفور ، مددت يدى إلى السيدة وانسنتها حتى وصلنا إلى المكتب ، دونت اسمها وعنوان المستشفى الذى تعالج فيه عند الموظف. وتركت اسمى باسم إبراهيم ثم غادرت المكتب.

وفي هذا اليوم والأيام التى تلتة كنت أقرأ كل ما تكتبه الصحف . قالت إسرائيل فى البدء إنها لم تكن تعلم بما يدور فى صبرا وشاتيلا ، ولكن الصحف العربية نفسها سخرت من هذه الحجة البليدة فاضطر رئيس الوزراء (بيجين) أن يقول «أغيار يقتلون أغيارا ويتهمن الإسرائييليين»! .. ألقى المسئولية كلها على الكتائبين . قال إنهم سلّلوا إلى المخيمات من وراء ظهر إسرائيل وانتقموا من الفلسطينيين بعد قتل زعيمهم بشير الجميل، الذى لم يعرف أحد مع ذلك من الذى قتله . لكن هذا الادعاء لم ينفع أيضا . واضطر وزير الدفاع (شارون) أن يعترف فى البرلمان بأنه هو الذى أدخل الكتائبين إلى المخيمات لتطهيرها من (المخربين). قال إنه فعل ذلك لأنه لم يرد أن يدخل جيش إسرائيل إلى المخيمات حرصا على الأرواح البشرية ! .. كان يقصد أرواح الجنود الإسرائييليين بالطبع. ولكنه قال إنه لم يأمر بالمذبحة ولم يسمع بها .

ولم ينطل ذلك على أحد أيضا . وظلت الحقائق عما فعلته إسرائيل تكشف يوما بعد يوم وأسقطت الارتباط بما حدث في المخيمات كل التحفظات فراحت الصحف تهاجم إسرائيل وتهمها دون مواربة . ولكن صحيفة (الوطن) الكارهة للعرب باستمرار، شذت عن ذلك وراحت تهون من الجريمة ومن عدد القتلى وتقول إنها جزء من الحرب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، وإنه لا داعي للبالغة فهي ليست المجزرة الوحيدة التي جرت هناك . كان دفاعها عن إسرائيل يفوق دفاع بيجين نفسه . أما افتتاحيات الصحف الأخرى فكانت كلها تشتبه ما جرى في صبرا وشاتيلا بجرائم النازيين . وكتب (برنار) يقول في افتتاحيته إن كل الجرائم التي ارتكبها هولاكو وأتيليا وهتلر في سنتين ، من تفتن في القتل والحرق والاغتصاب والتعذيب نجحت إسرائيل وحلفاؤها في اختصارها في أربعين ساعة فقط .

وكلت أذهب كل يوم إلى المطار . أقام الصحفيون هناك ما يشبه مركز العمليات، وكنا ننتظر كل طائرة تأتى من دمشق أو من قبرص أو أثينا ، ننتظر أى زميل عائد من بيروت أو أى دبلوماسي أو أى شخص يمكن أن يكون قد رأى صبرا وشاتيلا بعد المذابح . نبحث عن أى إنسان سمع شيئا من شهود عيان مما جرى في كابوس الأيام الثلاثة . واختفت حتى المنافسة الصحفية التقليدية، فكان كل من يعرف خبرا أو يتصل بأى مصدر يبلغ الباقين بما عرفه . بدأ وجوه الصحفيين أيامها متوجهة ، تغالب نوعا من الإحساس بالعار ، وكأنما هم أيضا قد شاركوا في المذبحة أو كانوا مسئولين عنها كأنما يجب أن يكفروا عن ذنبهم لأن يتكلموا أخيرا ويقولوا كل الحقيقة التي يعرفونها . وكانت الشهادات التي تستمع إليها تكشف عن هول يتجاوز الخيال ، ولكن المراسلين قرروا دون اتفاق فيما بينهم ألا يعلموا هذه المرة حسابا لمشاعر القراء ولا يخففوا من بشاعة ما يستمعون إليه . حتى روساء التحرير كانوا يتذمرون ما يكتبه الصحفيون كما هو في أغلب الحالات .

كنت أكتب كل ما أعرفه ، وأرسل في كل يوم رسالة للصحيفة في القاهرة بما

أسمعه في البلد ، ويردود الفعل ويأقوال الصحف . وبدأت أيضاً أبعث لأول مرة مقالات للصحف العربية التي تصدر في أوروبا ، ولم أكن أهتم بمتابعة ما ينشرونه منها وما لا ينشرونه . كان المهم أن أكتب أكبر كمية أستطيعها ، فلا بد أن يتسرب منها شيء في النهاية .

والتقيت في هذا المركز الصحفي المرتجل بأنطوان، رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية في البلد . كان شاباً طويلاً يضع حول رقبته باستمرار الشال الفلسطيني المنقط وقال لي إنهم سينظمون بعد أيام مظاهرة في المدينة مع بعض الأحزاب اليسارية ، وسألني إن كان يمكن أن أساعد في ذلك . قال إن المظاهرات التي تنظمها تلك الأحزاب لا تضم في العادة غير عشرات من الأشخاص ، ولكنه يتمنى لو تكون المظاهرة هذه كبيرة . وأشار إلى صورة يعرض صحفة في إحدى الصحف ، صورة لكومة من جثث أطفال محترقين ومتفحمن الوجوه وسط أنقاض بيت في شاتيلا، وقال لي بانفعال: مظاهرة كبيرة بحجم هذه الجريمة ! .. ثم استدرك : ولو أنه لو خرجت المدينة كلها في مظاهرة فلن تكون كبيرة بما فيه الكفاية .

وعدت أنطوان أن أحاول ما يمكن عمله . ولم يكن من حقى كراسل صحفى معتمد أن أنظم مظاهرات أو أن أقوم بنشاط سياسى داخلى في البلد ولكنى كنت أعرف شخصاً متخصصاً في ذلك .

غير أن يوسف قال لي بما يشبه التحدى : لا بد أن أسأله أمير أولاً ! ..

★ ★ ★

كنت قد اتصلت به قرب الفجر لأنضم وجوده ، وذهبت إلى المقهى قبل أن يفتح أبوابه للزيائين . فجلسنا وحدنا في المقهى الحالى . تغير شكله كثيراً عن آخر مرة قابلته فيها باللحية الشقراء المهوشة التي تحيط بوجهه دون تنسيق ، واستقبلنى استقبلاً فاتراً إلى حد ما ولكنه ظل مهذباً وهو يستمع إلى . قلت له إننى فهمت أن له اتصالات بأبناء الحى وربما ببعض الجمعيات يوم حدثنى عن

المظاهرة ضد دافيديان وربما يمكن أن يساعد على أن تضم المظاهرة أكبر عدد ممكن ، لكنه فاجئني بحديثه عن الأمير .

سألت يوسف : ولكن ما علاقة الأمير بذلك ؟

ظل ينظر في وجهي ولكن جفنيه كانا يختجان بحركة طفيفة وظللت حدقاته تحركان بعصبية . ثم قال ونبرة التحدى تزداد في صوته :

– الأمير أفهمنى أشياء كثيرة يا أستاذ ، أشياء كانت غائبة عنى ..

لم أكن أريد الدخول معه في جدل ، كنت أحتاج إلى عونه وهذا كل ما في الأمر .

فقلت بهدوء :

– أفعل ما تشاء واسئل الأمير أو أى إنسان آخر . لا أظن أن أحدا سيعترض على أن تشتراك في مظاهرة ضد هذه الجريمة ، أو على أن تساعد في تنظيمها . كل العالم أفرزته المذبحة ، حتى في إسرائيل يتظاهرون ضدها إن كنت تشاهد التليفزيون ..

هز رأسه في وقار وأشار بإصبعه في وجهي وهو يقول :

– أرأيت يا أستاذ ؟ .. حتى في إسرائيل يتظاهرون ضدها ! .. فما معنى ذلك ؟

قلت حريصا على ألا أفقد صبرى : ما معناه يا يوسف ؟

– معناه يا أستاذ أن السياسة بحر غويط ! .. إسرائيل صنعت المذبحة وإسرائيل تتظاهر ضدها فما معنى ذلك ؟ .. طبعا أنت سيد العارفين في السياسة ، ولكن أنا على قد حالى ، أنا كنت في غيبة ولكنى والحمد لله أفقت .

– أفقت على ماذا ؟ وكيف أفقت ؟

قال وهو يهز يده في وجهي بعصبية – أفقت من الجهل ، أفقت من الضلال ! والفضل لسمو الأمير . أفهمنى أشياء كثيرة كانت غائبة عنى . هذه الدنيا يا

أستاذ غابة مليئة بالوحش ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوىاء . ولن نصبح أقوىاء إلا  
إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ..

- ولكن إن كان الأمير يا يوسف هو الذى قال لك هذا الكلام ، فكيف يعمل  
سموه مع دافيديان ؟ ..

ثم تذكرت شيئاً فقلت : وماذا عن النبيذ الذى قدمه إليك يوم قابلناه ؟  
ابتسم يوسف فى إشراق وهو يهز رأسه قائلاً :

- ألم أقل لسعادتك إن السياسة بحر غويط ؟ .. فى بعض الأحيان يا أستاذ  
يجب أن تشتغل مع عدوك وأن تدخل فى عبء لكى تعرف سره ! الأمير يشتغل مع  
دافيديان ومع الجن الأزرق لكى نصل إلى غرضنا بذن الله . ومعك حق ، سموه  
كان يقدملى النبيذ عندما كنت فى الضلال ، بل هو يقدم لأعدائنا ال威سكي عندما  
يزورونه . لكنه بعون الله لا ينزع قطرة خمر . إنما للضرورة أحكام .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول بتائراً :

- أخذنى سموه على كفوف الراحة حتى أوصلنى إلى التوبه والحمد لله . ثم  
أفهمنى كيف نخدم قضيتنا ...

كانت إيلين قد دخلت المقهى فى ذلك الوقت وراحت تجول بعيداً عنا ترتب  
المواائد والمقاعد فقلت ليوسف بلهجة عابرة :

- وذلك الحديث الذى ذكرته لي عن إيلين فى المرة الماضية .. هل قررت  
شيئاً؟ رجع يوسف فى مقعده وتناءب ثم قال باستهانة :

- لا . لم يكن لحديثى هذا معنى . أيامها كنت فى الضلال . يجب أن نبقى  
معاً - من المهم أن أحصل على جنسية البلد لكى أخدم القضية هنا براحتى  
(.. ثم رفع إصبعه أمام وجهى مرة أخرى وهو يقول) وإيلين أيضاً من أهل  
الكتاب ...

- هل الأمير حامد هو الذى قال لك هذا ؟  
لم يرد يوسف فقمت وأنا أقول :

- إذن اسأله الأمير ، وإن قال لك إن المظاهر لا تضر قضيتك فاتصل بي ..

نهض أيضا وهو يقول :

- لا تؤاخذني يا أستاذ . لا أستطيع أن أتصرف من عقلى فى هذه المسائل  
كما قلت لك . أنا إنسان على قد حالى وبحر السياسة ...

- غريب . فهمت يا يوسف .

صافحته ، وهممته بأن أتصرف ولكن بعد أن مشيت خطوتين رجعت وسألته :

- اسمع يا يوسف . هل حكى للأمير عن الحديث الذى دار بيننا عن  
دافيديان ؟

قال ببرقة التحدى الأولى وإن ظل اختلاج جفنيه :

- أنا لا أخفى شيئاً عن سمو الأمير .

أردت أن أقول له شيئاً ولكنني عندما رأيت وجهه ونظرته الزائفة عدلت عن ذلك  
وطاف بذهني خاطر مروع وأنا أراه أمامى : هل سيصبح خالد هكذا ؟  
وعند باب المقهى فاجأته إيلين التى قالت لى بما يشبه الهمس ولكن فى نوع  
من الضراعة :

- أريد منك خدمة أخيرة يا سيدى .

- إن كنت أستطيع .

- أريد فقط أن تقول ليوسف إننى لا أمانع فى الطلاق سأتنازل عن أى  
حقوق.

- ولكن أنا ليس لى أى تأثير عليه يا إيلين لأطلب منه ذلك ..

غير أنها لم تسمع ، أكملت ببرتها المتولدة :

- يمكن أيضاً أن أعطيه تعويضاً صغيراً لكي يدير معيشته بعد الطلاق . أريد  
أن ننفصل دون مشاكل (ثم همست بصوت مرتعش) أنا خائفة . أنا الآن أخاف  
منه يا سيدى ..

كانت شفاتها ترتجفان وهي تقول ذلك وتخلس النظر نحو يوسف الذى ظل  
واقفاً يتنطى وهو يضع يديه فى جنبيه . فقلت لها :  
- لا أريد أن أكذب عليك يا إيلين . لن يستمع يوسف الآن لأى شيء أقوله  
له . حاولى بطريقتك .

★★★

ذهبت بعد هذه المقابلة إلى الجامعة . وكتت أعرف هناك أستاذًا مصرىاً  
قدمنى لبعض الطلبة العرب ، ووجدت عندهم الحماس الذى افتقدته عند يوسف  
وعدونى بالاتصال بأصدقائهم من العرب ومن أبناء البلد للاشتراك فى المظاهرة .  
اتصلت أيضًا ببعض السفارات العربية فاعتذرتنى جميعها بأنها لا تستطيع أن  
تشترك فى مظاهرات لأن ذلك يتعارض مع التقاليد الدبلوماسية وحين شرحت أنى  
لا أريد منهم المشاركة ، بل المساعدة بإعطائى أسماء مواطنين أو عناوين  
جمعياتهم قالوا إن ذلك أيضًا ليس من اختصاصهم .

وعاملتني بعض السفارات بشك شديد ، على أساس أننى مدسوس من  
خصومهم العرب الآخرين لتوريطهم فى أنشطة مشبوهة بل قال لى مستشار  
صحفى بشىء من التهكم : ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة؟ .. ألم توقع  
على كامب ديفيد؟

قلت له : نعم ، ولكن ماذا فعل من لم يوقعوا على كامب ديفيد؟  
فخرجت من مكتبه شبه مطرود .

غير أنى لم أدخل في جدل معه ولا مع غيره . كنت أحاول بالفعل كل الطرق .  
وذات مرة سألت بريجيت إن كانت تعرف في المدينة أعضاء من الجمعية التى  
يرأسها دكتور مولر ، فسألتني بدهشة : أية جمعية؟ .. نكّرتها بجمعية الأطباء  
الدولية لحقوق الإنسان فقالت ولكن هذه الجمعية هي الدكتور مولر بالذات ! قد  
يكون فيها بعض أصدقائه من الأطباء في النمسا ولكن هذا هو كل شيء . قلت  
ليكن . هل يمكن أن يساعدنا مولر بائى شكل؟ هل يعرف منظمات للأطباء في

المدينة ؟ .. هل يمكن أن يقدم شيئاً لهذه المظاهر ؟ قال لي ذات مرة إن هذه المدينة تهمه لأنها ملتقى دولي .

هربت بريجيت رأسها بالنفي بشكل قاطع قالت : مولار لا يشترك في نشاط إلا إذا كان هو النجم .

★ ★ ★

كان صباح الأحد ، صباح المظاهرة ، مشمساً ودافئاً .

وكان المفروض أن تبدأ في العاشرة صباحاً فذهبت على قدمي قبل الموعد بساعة تقريباً . قررت الشرطة منع المرور في الشوارع المؤدية إلى الميدان الكبير الذي كان نقطة التجمع ، وفي الشوارع الأخرى التي ستخترقها المظاهرة . وحين وصلت إلى الميدان وجدته محشداً بالفعل بالعثث ، واستمر آخرون يغدون من الشوارع الجانبية . كان معظم الموجودين من الشباب وقد أحاطوا المنصة المقامة حول تمثال الفارس بالأعلام الفلسطينية وباللافتات المكتوب عليها «كفى مذابح في لبنان» و«بيجين وشارون قاتلان» و«كلنا مسؤولون عن صبرا وشاتيلا» و«حزب العمال يدين قتل الفلسطينيين» .. إلخ .. إلخ ورأيت كاميرات تحيط بالمنصة ، ومتصوريين يلتقطون صوراً ، وجنود الشرطة في كل مكان وفي أيديهم أجهزة الاتصال الصغيرة .

قابلت في الميدان كل من أعرفهم . كان الطلبة العرب يوزعون منشورات تضم صوراً للمجازر طبعوها على نفقتهم ، ورأيت بيرنار قريباً من المنصة مع صحفيين آخرين ، وجاءت بريجيت ومعها صديقة لها ، ولمحت يوسف الذي تقدم مني قائلاً : بانفعال :

- لم أر مظاهرة بمثل هذا الحجم في المدينة . جئت معى ببعض الأصدقاء .

- شكراً يا يوسف . استأذنت الأمير ؟

تقادى الإجابة وأشار إلى ركن من الميدان قائلاً : هل ترى من هناك ؟ وكان يشير إلى رصيف بعيد عن جسم المظاهرة حيث يقف بعض الأشخاص

الذين يلبسون الطاقية الإسرائيلية وقد رفعوا لافتة حوروا فيها عبارة بيجين لتصبح «عرب يقتلون عرباً ويتهمنون إسرائيل» كانوا أقل من عشرين شخصاً وكانت الشرطة المحيطة بهم تفصل بينهم وبين بقية المظاهرون .

قلت ليوسف : لا شأن لنا بهم . هذه مظاهرتهم وهذه مظاهرتنا .

قال يوسف بحماس : ولكن يجب أن نعطيهم درساً !

ـ الدرس جاهز بالفعل يا يوسف انظر إلى عددهم واترك الناس تحكم . لا داعي للعصبية ولا للانفعال . ولكنك لم ترد على سؤالي . هل استأذنت الأمير ؟

قال بصوت خافت وهو يشيح بوجهه عنى : نعم ، ولكن سموه لا يحب المظاهرات . يعتقد أنها تضيّع الوقت وتعطل العمل للقضية .

ثم التفت نحوى بوجه باش : قلت مع ذلك إنى لن أخسر شيئاً لو أتيت . لن يعرف الأمير ..

ـ الحقيقة هي أنك تعشق المظاهرات يا يوسف !

انصرف عنى بخطوات مسرعة . وفي تلك اللحظة اقترب منى برنار وسألنى عما قاله يوسف وعندما نقلت له ما دار قال :

ـ أنا أفهم الأمير . لعلك كانت هناك جهات كثيرة تحاول منع المظاهرات ، تدخلوا عند السلطات وقالوا إنها يمكن أن تخرج عن السيطرة ويمكن أن تخل بالأمن .

ـ ولكن لماذا أرانيوا منعها ؟

ـ ولمَّاًذا منعوها في بلد كثيرة منها بلادكم العربية ؟ هم يريدون أن تموت الحكاية بالصمت كما ماتت جرائم أخرى . يريدون أن تموت الذاكرة ويموت الغضب ليستمر اللعب في الخفاء . أفهم الأمير ، ولكنني لا أفهم يوسف . مسكين هذا الشاب .

ثم نظر إلى ساعته قائلاً : ربما لا أبقي في المظاهرة طويلاً . ستبلغنى بما يحدث إن جرى هنا شيء مهم .

- بالطبع ولكن لماذا لا ت يريد أن تنتظر حتى النهاية ؟

قال وهو ينظر في ساعته مرة أخرى : لا أريد أن أترك جان - باتيست وحده في البيت . معه الآن جلسة لكنها ستتصرف في الظهر .

- ما زال الظهر بعيدا ، فلم أنت قلق إلى هذا الحد ؟

ثلفت بربار حوله وقال هامسا : هناك أشياء غريبة تحدث منذ نشرت تلك الكلمة التي قلت إنها أعجبتك ..

- نعم أقرأ الرسائل الغاضبة التي يكتبونها في الرد عليك في الصحفة .

قال بلا اكتراث : دعك من هذه الرسائل . دعك أيضا من المكالمات التليفونية والرسائل البذيئة المجهولة . كل ذلك لا يعنيني . ما يعنيني هو جان باتيست .

قلت في دهشة : جان باتيست ؟ ما علاقته بكل ذلك ؟

- هذا ما أود أن أعرفه ! .. ولكنني تقييت تحذيرا من المدرسة بأنهم شاهدوا أشخاصا غريبا يتحدثون معه عند باب المدرسة قبل أن أصل لاصطحابه . أنت

تعلم أن المدرسين يراقبون الأطفال من بعيد ..

ثم عاد ينظر إلى ساعته بتلك الحركة الآلية .

قلت لأطمئنته : لا تبالغ يا بربار . لسنا في غابة .

- حقا، وهو لاء الأطفال الذين يختلفون وينشرون صورهم في الصحف أو يعلقونها في مكاتب البريد كيف يختلفون ؟

- أنت تعرف أفضل مني أن تلك في الغالب جرائم انحرافات جنسية وليس جرائم سياسية .

- من يدربي ؟

ثم أضاف بلهجته الساخرة : هل رأيت لماذا أحتاج إلى عنوان طبيبك ؟ واحذر أنت أيضا يا صديقي .

ولكن في تلك اللحظة بدأ صوت الميكروفون، وكان رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية يقدم المتحدثين في المظاهرة . وشرح أنتا بعد أن نستمع إلى

الكلمات سنتوجه إلى مجلس المدينة وإلى سفارة أمريكا لكي نقدم البيانات والطالب التي سنتفق عليها في المظاهرة ثم قدم ممثلاً منظمة التحرير . تقدم ممثلاً المنظمة من المنصة . كان نحيلًا يلبس نظارة طبية سميكة . وكتبت أعرف عنه أنه حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية ، وأن له آراء مستقلة لا ترضي عنها المنظمة .

قال بصوته الهداء : تاريخ المذابح ضد شعبنا قديم ومتكرر . سأحدثكم عن مذبحة واحدة فقط وقعت في فلسطين في سنة ١٩٤٨ . أيامها كان العرب يحاربون لكي يبقوا في أرضهم وكان الإسرائييليون يقاتلون طردتهم من هذه الأرض . لكن سكان هذه القرية لم يشتراكوا في القتال . أعلنا للعرب ولليهود معاً أنهم لا يريدون أن يشاركون في الحرب ، فكافأت عصابات الإرجون الإسرائييلية سكانها المسالمين ..

مكذا بدأ ممثلاً المنظمة يحكى تفاصيل مذبحة دير ياسين . راح يحكى كيف أباد الإسرائييليون ثلثي سكان القرية ذبحاً وطعناً فلم يبق حياً إلا من لاذ بالفرار . حكى كيف قتلوا أطفال القرية وشيوخها وبرروا بطون نسائها الحوامل وتساءل ما الذي جرى في صبراً غير ذلك ؟ .. ومن كان رئيس عصابة الإرجون التي ارتكبت المذبحة ؟ .. أليس هو بعنته مناحيم بيجن رئيس وزراء إسرائييل هذه الأيام ؟ .. أيامها لم يكن هناك تليفزيون ينقل الصور ولم تكن هناك كتاب تتكلفها إسرائييل بالعمل . أما الآن فأنتم رأيتم المجزدة وعرفتم أن من ارتكبواها كانوا يطبقون الدروس التي نفذتها إسرائييل من قبل في دير ياسين وفي قبة وفي عين الحلوة ، وأن الهدف كان واحداً في كل مرة : إبادة الفلسطينيين وتفتيتهم من أرضهم ثم من كل أرض يلتجأون إليها . فماذا سيفعل العالم لوقف إبادة شعبنا ؟ .. إن كنتم قد نسيتم كل المذابح السابقة أو لم تسمعوا بها فأنتم في هذه المرة قد رأيتم بأعينكم ولا عذر لكم ..

ويعد أن تكلم ممثلاً المنظمة قدم أنطوان نائباً اشتراكياً وأستاذًا جامعياً من أهل البلد . وكتبت أعرفه جيداً هو أيضاً . ظل على مدى سنوات ينشر كتاباً ومقالات عن استقلال الغرب وشركاته الكبيرة لبلاد العالم الثالث . كان يقول دائماً

إن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية ويثبت ذلك بالأرقام والإحصاءات .  
وعقب كل كتاب له كانت الشركات ترفع عليه قضايا ، واعتذر إن أجد في صندوق البريد منشورات غير موقعة تطالبني بإلحاد بالآلا أعيد انتخاب هذا «الخائن»  
للبرلمان !

بدأ حديثه في المظاهرة أيضاً بالأرقام . قال إن حوالي عشرين ألف قتيل وخمسين ألف جريح سقطوا حتى الآن رداً على ضرب سفير إسرائيل بالنار في لندن وإعادة السلام للجليل . قال إن هذا يذكره بما كان يشاهده في الأفلام الأمريكية وهو صغير ، عندما كانت حفنة من الأمريكيين تقتل على الشاشة جحافل الهنود الحمر فيسقط هؤلاء بالعشرات والمائات وهم يطلقون صرخات وحشية وكأنهم ليسوا بشرا ، وكأنهم يرتكبون جريمة لا تفتقر لأنهم يدافعون عن بقائهم أحياء في أرضهم ، ولكن حين يصاب «البطل» الأميركي الفريد بجرح قاتل تتمهل الصورة وترتفع الموسيقى العزينة وكأنما هي نهاية العالم قد حلت . قال إنه يشعر بالخجل من نفسه حتى الآن لأنه كان يفرح في الأفلام لقتل الهنود . لم يعلم إلا عندما كبر وقرأ كيف أباد البيض في أمريكا شعباً كانت له حضارته ، وكان وقت اكتشاف أمريكا يمثل خمس سكان العالم .

وأنهى النائب كلمته بشيء من الغضب وهو يسأل : أليس ما رأيناه في الأفلام هو ما يحدث الآن في الواقع ؟ .. ألم تعط أمريكا العرب إلى إسرائيل لكي يلعبوا بهم هنوداً حمراً ؟ .. إن قتلت منهم إسرائيل الآلاف فهم مجرد أرقام ، وإن سقط إسرائيلي واحد فهي الكارثة والإرهاب ؟ ..

وসكت لحظة قبل أن يقول : إنها إهانة للعقل وإهانة للسلام أن تسمى إسرائيل هذه المجزرة المتصلة وهذا الطوفان من الدم باسم «السلام للجليل» .  
وفي تلك اللحظة ارتفع صوت يهتف : الموت لإسرائيل ! .. تسقط أمريكا !  
كنت أعرف الصوت وإن لم أر الوجه ، كان هو يوسف . وردد وراءه الهاتف أشان أو ثلاثة . ولكن ممثل منظمة التحرير اختطف الميكروفون من المتحدث وقال : لن تكون هناك هتفات . أرجوكم نريد أن نحافظ على النظام في المظاهرة وأرجو أن تساعدونا على ذلك .

وتتابعت بعد ذلك خطب من ممثلي الأحزاب والنقابات والمنظمات وتشنّج يوسف مرة أخرى بعد كلمة لأحد المتحدثين فأمسكته المحيطون به في غضب . وأردت أن أتوجه إلى حيث يقف لأطلب منه أن يهدأ ولكن في تلك اللحظة كان شخص يتحدث في الميكروفون شد إليه كل الانتباه . كان رجلا طويلا عجوزا، أشيب، ناحل الشعر ولكن صوته خرج قويا لا يتناسب مع مظهره وسنّه .

بدأ كلمته بعبارة : أسمى رالف وأنا صحفي وأنا يهودي وأمريكي .. كنت أول من دخل صبرا بعد المجزرة . دخلتها بعد آخر موجة من المذابح . التقطت صورا وسجلت ما سمعته منن ظلوا على قيد الحياة ولن أقول لكم كل ما رأيته ولا كل ما سمعته . أنا متّأك أنكم تعرفون ما فيه الكفاية .. سأقول لكم أشياء قليلة لا غير .

أنت سمعت أن الكتائبين وقوات سعد حداد وقوات مسيحية أخرى هي التي ارتكبت هذه الجرائم وأنا أقول لكم إن إسرائيل هي التي دبرت ورتبت هذه المجزرة وشاركت فيها من الآلاف إلى الآباء وسأقدم لكم الدليل .

وبدأ رالف بعد ذلك يقدم الدليل . قال إن إسرائيل احتلت بيروت الغربية يوم الأربعاء فلم تواجه أى مقاومة تقريبا . لم يكن قد بقى أحد ليدافع عن المخيمات بعد نفي الفدائيين ، ولكنها حاصرت صبرا وشاتيلا من جميع الجوانب بالدبابات والمدفعية . ومنذ صباح الخميس أول أيام المجزرة - بدأت تتصف ببيوت المخيمين بالمدافع فسقط الكثير من القتلى والجرحى . خرج من مخيم شاتيلا وفد من المسنين يرفع الأعلام البيضاء . أراؤوا أن يقولوا إن المخيمات لم يعد فيها من يحارب وهي تستسلم ويمكن للإسرائييليين أن يدخلوها دون قتال إن أراؤوا . لكنهم قتلوا على الفور . ذكر رالف أسماء هم وأكّد أنهم كانوا جميعا فوق الستين . في ذلك الوقت لم يكن بوسع أحد أن يدخل المخيمين أو أن يخرج منها إلا من خلال الكماشة الإسرائييلية وفي مساء الخميس أدخلوا عصابات القتلة المأجورين . قال رالف إن البعض قد يسمّهم كتائبين أو غير ذلك ، ولكنه لا يسمّهم غير قتلة محترفين قبضوا الأجر ونفذوا التكليف . كانت أسلحتهم إسرائيلية ، وأزياؤهم إسرائيلية ، وحتى أربطة أحذيتهم إسرائيلية . وهذه

العصابات التي دخلت لم تكن أفرادا بل فرقة كاملة : ألف وخمسمائة مجرم . استمروا يذبحون ويغتصبون ويعذبون ويسلحون ثلاثة أيام متواصلة ، يخرجون ليحصلوا على الزاد والنخيرة من الإسرائييليين ثم يرجعون لاستئناف المجازرة . وفي تلك الأثناء كان الإسرائييليون يراقبون ما يجري من فوق المباني العالية ، بالنظارات المكبرة ، يطمئنون إلى أن الأجراء ينفون التكليف الذي قبضوا ثمنه . وفي الليل ، عندما قطعوا الكهرباء عن كل بيروت ، كانوا يطلقون صواريخ لإتارة المخيمات لعملائهم . بعد ذلك أعطتهم الإسرائييليون جرافات لهدم البيوت على من فيها من الأموات والأحياء ولحرق القبور الجماعية .

سكت رالف لحظة قبل أن يقول محاولا أن يسيطر على انفعاله :  
— كنت قد شاهدت هذه القبور الجماعية من قبل في مخيم عين الحلوة بعد سقوطه . هدمت قوات إسرائيل بالجرافات كل بيوت ذلك المخيم ودفنت القتلى في حفر عميق . وسمعت من يبقى حيا في عين الحلوة أن هذه الجرافات كانت تلتقط أيضا فوق حماراتها الحديدية المسنونة مع الجثث والأنفاس بعض الجرحى الذين كانوا يصرخون أنهم أحياء ولكنهم دفونهم مع القتلى . ذلك أيضا ما حدث في صبرا وشاتيلا ، كل الفرق أنهم تركوا فيهما بعض تلك الجثث في الطريق . ارتفع صوته قليلا وهو يقول : ولكن هل سألت أنفسكم لماذا ؟ .. أنتم تعرفون أن كلمة الجثث هينة جدا بجانب ما رأيتموه . تعرفون أن الذين ارتكبوا المجازرة وأمروا بها أراؤوا أن يجعلوا الإنسان شيئا مقرضا . كانت هناك فرق متخصصة في ذلك . تشوه الوجوه بالسكاكين وبالبلط وتسلخ جلد الضحايا وتبتز ذكور الرجال وأثناء النساء وتقطع الأصابع والأيدي وتترك عameda تلك الأعضاء المبتورة إلى جانب الجثث ، فلماذا ؟ .. حتى النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم .  
فهل سألت أنفسكم لماذا أرادت إسرائيل أن تعلن هذه الجريمة ؟

ارتفع صوت غاضب من الرصيف الآخر يقول : اسكت ! أسكط يا خائن ! ولكن رالف أكمل دون أي اضطراب : سأقول لكم . لقد تعمدوا ترك هذه الجثث . لقد أراؤوا أن يثيروا الفزع . أرادت إسرائيل أن تبلغ رسالة للعرب وقد

أبلغتها : أرادت أن تقول نحن نقدر دائمًا على مثل هذا . ما حدث في صبرا وشاتيلا يمكن أن يتكرر في غيرها . استسلموا ولا تفكروا في المقاومة .

ثم سكت مرة أخرى سكتة أطول من سابقتها والتقت نحو الرصيف الآخر قبل أن يكمل : سأقول شيئاً لهذا الذي وصفني بأنني خائن لأنني يهودي ولأنني أقول الحقيقة عن المذبحة التي دبرتها إسرائيل . سأقول له إن أبي أنا أيضًا قد قتله هتلر في أوشفيتز . ولكنني عندما رأيت ما حدث في صبرا وشاتيلا عرفت أنه مات مرتين ، لأن من أبىدوا في صبرا وشاتيلا هم أيضًا ستة ملايين .

ارتفع الصوت من الركين نفسه ساخراً هذه المرة : خائن وكذاب !

واستمر رالف : سأنقل لكم أيضًا ما شاهدته وما قاله لي رجل من الصليب الأحمر في صبرا وشاتيلا . قال لي لقد صنعنا حفرة عمقها ثالثون قدمًا وعرضها طولها مائة وخمسون قدمًا . رأيت هذه الحفرة بنفسى ولم تكن عميقه بما فيه الكفاية لأنني رأيت جثثًا تبرز من الجير الذي ردموها به . قال الرجل إنهم دفونوا ثلاثة آلاف جثة ، ولا تحسب ضمن هذا العدد من دفونتهم عصابات القتلة بالجرافات ومن قتلهم قصف إسرائيل للمخيمات ولا من اقتابوهم ليقتلهم خارج المخيمات . كم ألفًا تحسب هؤلاء ؟ .. وكم مليونًا يصبحون لو حسبتهم بالنسبة لسكان هذه المخيمات ؟

ثم التفت مرة أخرى إلى مصدر الصوت وقال أنت لا تخون إن قلت الحقيقة ، بل تخون إن لم تقلها .

وكان كل الرد على رالف زمرة غاضبة من ذلك الركين . وكانت هي الصوت الوحيد الذي يقطع الصمت المطبق في الميدان .  
تقدم أنطوان رئيس جمعية الصدقة ليقرأ المطالب التي ستقدمها المظاهرة .  
ولكن ممثل منظمة التحرير همس في أذنه بشيء فقال أنطوان : ستكون هناك كلمة الأخيرة :

أمسك ممثل المنظمة بالميكروفون وقال :  
— سأضيف شيئاً أو شيئاً إلى ما قاله رالف . نعم أرادت إسرائيل أن تحقق

من الجريمة الهدف الذى نكره ، ولكنها أرادت شيئاً آخر كشفه بيبجين حين قال أغيار يقتلن أغياراً . أراد بيبجين أن يقول هذا هو ما يفعله العرب ببعضهم البعض : يقتلون بمثل هذه الوحشية ويمثل هذا الإهدار للأدمية . ولهذا فإن ما تفعله بهم إسرائيل مبرر تماماً . لا يكفى إبعاد هؤلاء الناس عن أرضهم وإنما يجب إبادتهم. ولكننا نعرف الآن أن تلك الجريمة لم يدبرها وينفذها الأغيار، بل الاسرائيليون أنفسهم. ألم يلتفت نظركم حقاً أن إسرائيل التى تدافع عن نفسها بأنها هي التى تدخلت لوقف المجازر لم تقبض على واحد، مجرد واحد، من هؤلاء القتلة؟.. وهم كما سمعتم من رالف لم يكونوا مجرد أحاد، بل كانوا ألفاً وخمسمائة مجرم على الأقل، فائين هم؟.. أنتم وأنا نعرف الجواب: هم تحت حماية من سلّحهم وأستأجرهم واستخدمهم. ولكننا يجب ألا نستسلم لإفلاتهم. فليكن أول مطالبنا الآن هو التحقيق في الجريمة والقبض على القتلة. لو تم ذلك فسنعرف كل الحقيقة.

وافق المتظاهرون على الاقتراح، وبدأت المظاهرة تتحرك وكان انطوان في المقدمة يهتف في مكبر الصوت بالشعار الذى تقرر، ونحن نكره ورائع بوقفة مع كلمة «بيبجين.. شارون.. قاتلان».

وظل رجال الشرطة يحيطون بالمظاهرة ويتابعون جوانبها بسياراتهم، وهى تخترق ببطء شوارع المدينة الخالية من المرور، وكان بعض المارة يتوقفون على الأرصفة يتقرجون وببعضهم يسأل عن السبب فيها وسمعت واحدة تقول لصديقتها باستخفاف ونحن نمر بجوارها «هم عرب» ف وقالت صديقتها «هذا ما ظننت أنا أيضاً، ولكن يوجد آخرون أيضاً، تصوري!»

وكان نمر إلى جوار أحد المقاهمى الذى صفت مقاعده على الرصيف فى ذلك اليوم المشمس، وراح الزبائن أيضاً يتطلعون إلى المظاهرة في صمت ، ولكننى فجأة رأيت شخصاً يندفع من صفوف المظاهرة وهو يصرخ. رأيته يمسك بتلابيب رجل عربى يلبس جلباباً أبيض وأمامه زجاجة بيرة ثم يلقى بکوب البيرة على جلبابه.

كان هو يوسف، وجريت لأوقفه.  
هب الرجل مذعوراً ويوسف ما زال يقبض عليه ويسبه، يسأله كيف يشرب  
البييرة ودماء الشهداء لم تجف .

ظل الرجل يتطلع إلى اليمين وإلى اليسار ممتنع الوجه وهو ينادي شخصاً ما:  
«رأفت .. يا رأفت» .. بينما هو يربت على كتف يوسف قائلاً :  
ـ عظيم .. عظيم يا أخ ! .. انتهينا يا بطل .. مع السلامة .. مع السلامة .. يا  
بطل العرب .. يا رأفت .. يا زفت يا رأفت !

لكنه لم ينجح في أن يبعد قبضة يوسف التي تجذب جلبابه وكتن قد وصلت  
إليهما ، غير أن شرطيين كانوا قد سبقاً نهوضاً على ذراعي يوسف وراء ظهره ..  
ووصل (رأفت) الذي ينادي الرجل أيضاً لحظتها من داخل المقهى وهو  
يصرخ .

ـ ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟ .. كنت في دورة المياه !

كان شاباً مصرياً الملamus مقتول العضلات .  
قال له ـ إدفع الحساب بسرعة وهيأ بنا .

لكن أحد الشرطيين كان يقول للرجل في بطء : نحن شاهدنا ما حدث . هذا  
الشخص اعتدى عليه . ومن حقك أن تسجل شكوى ضده . نحن شهود .

التفت الرجل إلى رأفت وسأله : ماذا يقول العسكري ؟

وبحين ترجم له رأفت رفع يديه إلى رأسه كأنه يحيي الشرطي وقال لرأفت:  
ـ قل له أني متنازل عن الشكوى . أنا مسامح الرجل . لا أريد شكوى ولا  
يحزنون . هيأ بنا .

وظل يجذب رأفت من ذراعه بينما كان يترجم للشرطيين ما قاله، ولكن  
الشرطي قال متوجهما:

ـ حتى لو تنازل عن الشكوى فيجب أن يحضر معنا كشاهد . هذا الشخص  
ارتكب جريمة اعتداء ويجب أن يحاسب عليها .

غير أن الرجل كان مستفزًا هذه المرة بعد أن استمع إلى الترجمة. أخرج من  
جيبيه جواز سفر أحمر وقال في غضب:  
— قل للعسكري إن الشرطة لا علاقة لها بي. أنا عندي حصانة لا أريد شكوى  
ولا أريد شهادة وهيا بنا من هذا المكان.  
راجع الشرطي جواز السفر بدقة ثم رده بعد أن رفع يده بالتحية. وقال  
ليوسف زاجرا:

— أشكر سمو الأمير لأنه تنازل عن حقه، ولا تعد لمثل هذه الأعمال.  
ولكن يوسف كان يقف ذاهلاً. لم ينبع بحرف.  
ويعد أن انصرف الشرطيان قال رأفت للأمير:  
— تحب سموك أن أؤديه؟  
فدفعه الأمير دفعة قوية في ظهره وهو يقول:  
— إمش انجر!.. ساعة الجد تختفي والآن تريد أن تعمل لي فيها محمد  
كلاي!.. انجر من هنا!  
وانصرف بسرعة وهو ينفض جلبابه.  
وتفرق الجمهور الذي كان يحيط بالفرجة. كان منه كثير من المشتركين في  
المظاهرة وكان هناف المتظاهرين يبتعدون: «بيجين.. شارون.. قاتلان».  
حين لمحني يوسف نظر في وجهي نظرة زائفة فقلت له بهدوء:  
— ليس هذا يا يوسف هو الأمير الذي يجب أن تصفى حسابك معه.  
أفاق عندما قلت له ذلك. ظل يتأملني فترة ثم جذبني نحوه فجأة وهمس في  
أذني:  
— إسمع. أترك هذه المدينة. الأمير لا يطيقك. الأمير يستطيع أن يفعل أي  
شيء.

— ماذا قلت؟  
— لم أقل شيئاً.

تركني وانصرف بسرعة، وجرت أنا أيضاً لاحق بالمظاهرة.

★★★

بعد المظاهره كنا نسير صامتين ، جنبا إلى جنب، بريجيت وأنا .  
حل محل الانفعالات الكثيرة المضطربة إحساس الهمود والفراغ الذي يصاحب  
كل نهاية .

وقادتنا أقدامنا إلى الحديقة الكبيرة في الميدان الرئيسي التي كانت مزدحمة  
بالرواد في يوم العطلة المشمس . في المدخل كان لاعبو الشطرنج الواقفين حول  
رقطة كبيرة مرسومة على الأرض يتأملون الأفراش والطوابق وأيديهم حول ذقونهم  
قبل أن يتقدم لاعب ينقل القطعة التي استقر عليها رأيه بكلتا يديه . وخطر لي  
لحظة أنه لو كان خالد هنا للعبنا معا في هذه الحديقة وكان سيسعده هذا  
الجمهور . ولكنني تذكرت . لا ، لم يكن هذا سيسعده . ترى هل وصله خطابي؟  
سأعرف ذلك في المكالمة المقلبة . هل سيفيد بشيء؟ .. هل سيصبح مثل يوسف؟ ..  
هل مازال هناك شيء يمكن أن أفعله ؟

جلستنا على أحد مقاعد الحديقة وأنا أقول:

- لم أتوقع أن تأتي للمظاهره . أعرف رأيك في هذه الأشياء . لكنك ظللت  
تهتفين من أول المظاهره وصمدت حتى نهايتها . كثيرون انصرفوا في منتصف  
الطريق .

قالت شاردة بصوت خافت متعب بعد كل تلك الهتافات التي أطلقتها :

- نعم ، لا سيما بعد تلك المشاجرة السخيفه عند المقهى . أظن أن ذلك  
الشخص تعمد أن يفسد المظاهره . منذ البدء كان يطلق هتافات ويحدث ضجة .  
هل تعرفه؟

لم أرد عليها . كانت تلك الفكرة قد خطرت لي منذ البدء ، أن يكون يوسف ومن  
معه موظفين لإفساد المظاهره ، ولكنني أردت أن استبعدها . قلت لنفسي هو ليس  
شريرا .

مالت بريجيت برأسها على كتفى فمددت يدى وأحاطتها بها فقالت بصوت  
خافت:

ـ شكراء ..

نظرت إلى وجهها ، وكانت تبتسم وإن ظل الشroud فى عينيها وأكملا :

ـ أعرف أنك تخجل حين تتصرف أمام الناس كحبسرين ولكنى اليوم أحتاج  
إليك ..

ثم تذكرت شيئاً آخر فقالت : ولو أنى لم أغير رأىي . من يتعدب يتعدب وحده  
ومن يموت يموت وحده . لن تعيد مظاهرتنا الحياة لأى واحد مات فى بيروت . هل  
تعرف من قابلت اليوم ؟ بيدرو إيبانيز !

ـ وماذا جرى له ؟

قالت بلهجة متahirة :

ـ هذا ما أود أن أعرفه . كان غريباً وتجاهلتني تقربياً حين تحدث إليه . كنت  
أخاف أن يقتله العمل الشاق فى دنيا العمل السرى ولكن يبدو أن ما حدث له  
أسوأ من ذلك . لماذا لم يتركه مولر فى حاله ؟ .. فى كندا ، فى النمسا ، فى بلده ، فى  
أى مكان ..

ـ ماذا حدث له ؟

ولكن فى تلك اللحظة كانت طفلة فى حوالى الخامسة تلبس فستانها أحمر تتقدم  
من بريجيت وسائلتها بربانة :

ـ كم الساعة ياسيدتى ؟

أشارت بريجيت إلى معصمها وهى تقول : ليس معى ساعة مع الأسف ..

ثم التفتت نحوى فقلت : الثانية والربع .

أرادت الفتاة أن تتصرف ولكن بريجيت قالت لها وهى تفتش فى حقيبتها :  
ـ مازا تسألين عن الساعة ؟

- وعدت ماما أن أرجع في الثانية والنصف.

- إذن مازال هناك وقت . وبما أنك بنت عاقلة وتحترمين مواعيده فساعطيك هدية صغيرة . خذى . اشتري ما تشاءين بهذا المبلغ قبل أن ترجعى إلى ماما .

قدمت إلى البنت عملة معدنية صغيرة ، فبدت في وجهها السعادة وشبت على قدميها ، ثم قبلت بريجيت في خدما باتفاقية قبل أن تجري عائدة إلى مجموعة الأطفال الذين كانت تلعب معهم .

تابعتها بريجيت ببصرها ثم راحت تنقل بصرها بين الأشجار . وكانت أمامها شجرتان عاليتان توهجت أوراقهما باللون الأحمر القاني وظلتا مميزتين وسط الأشجار الأخرى التي وشها الخريف بالصفرة . أطلقت ضحكة خافتة وهي تصعد ببصرها مع الشجرة وقالت:

- ومع ذلك فسيوحشنى عشاق الارتفاعات!

تعودت منذ زمن طويل على انتقالاتها المفاجئة فلم أعد أأسالها عن شيء . عرفت أنها ستحكى ما خطر لها من تلقاء نفسها .

قالت بشيء من الحيرة : لا أعرف لماذا هم دائمًا آسيويون . (ثم ترددت لحظة) لا . يوجد أيضا من جنسيات أخرى ولكنهم قلة .

ثم سكتت وعادت إلى الشرود . فقلت

- من هؤلاء يا بريجيت؟

هزمت رأسها وكتتها تفيق وقالت : ماذا؟ .. عن أي شيء تسائل؟

- كنت تتحدثين عن عشاق الارتفاعات . من هم؟

عادت تضحك من جديد دون روح وهي تقول : آه ، هؤلاء؟.. ألم أقل لك إنهم كانوا يظهرون في كل فوج سياحي؟ أتى بهم إلى هنا أحيانا ، وأحدثهم عن هاتين الشجرتين اللتين نقلوهما من أمريكا . أحكى لهم التاريخ وكيف أمكن بعد تجارب كثيرة أن تنجح زراعة الشجرتين فيجاجنوننى بالسؤال عن ارتفاعهما . يدونون ذلك بكل دقة في مذكرات صغيرة يحملونها . يكتبون أيضا ارتفاع برج الكاتدرائية .

كل شيء عال يستوقفهم وكأنهم مكلفون بحساب الارتفاعات في العالم . هل تعرف السبب؟

كانت عيناه متسعتين بالدهشة وكأنها تسألني عن لغز عصي . فابتسمت وأنا أقول لها : لا . لا أعرف يا بريجيت . ولكن لماذا سيوحشونك؟ .. اليابانيون لا يتوقفون بعد الصيف مثل الآخرين . يأتون هنا على مدار السنة .

فكترت ورائي - نعم ، يأتون على مدار السنة .. ثم قامت فجأة وهي تقول : هيا بنا نتصرف . أنا جائعة .. هل عندك في البيت شيء نأكله؟

- هناك أشياء في الثلاجة .

- هيا بنا إذن . اليوم سأعد لك غداء خاصا .

★ ★ ★

قبل أن نصعد إلى الشقة فتحت صندوق البريد ، الذي تراكمت فيه رسائل عدة أيام .

لم يكن هناك غير الصحف ورسائل الإعلانات ، ولكنني وجدت أيضا رسالة من القاهرة عليها طوابع حكومية داخل ظرف صغير مثل خطابات مصلحة الضرائب التي كنت ألتقطها في القاهرة .

أمازالت هذه المصلحة تذكرني بعد كل تلك السنين في الغربة؟ عندما ذهبت بريجيت إلى المطبخ لترى ما يمكن أن تعدد للغداء ، وضعت الصحف جانبا وفتحت الخطاب . قرأته وأنا واقف ، ثم أعدت قراءته . خيل إلى أنني لم أفهم .

كانت نصف صفحة من ورقة صفراء خشنة مملوقة بالأختام وبالتوقيعات تعلوها عبارة «رئيس مجلس الإدارة» وتحتها السيد فلان ثم «نظرا لما قرره مجلس الإدارة من ضرورة خفض النفقات تتفيدا لتوجيهات السيد ... فقد تقرر إلغاء وظيفة المراسل الصحفي في مدينة ... على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه، توقيع، عن رئيس مجلس الإدارة».

- غير صحيح !

وبتلك الرسالة الرقيقة التي بعث بها رئيس التحرير منذ أيام؛ الرسالة التي لم تنشر من قريب أو بعيد إلى قرارات التقشف؟

ظهرت بريجييت عند المدخل وسألتني ماذا هناك؟

فقلت : غير صحيح !

ولكنى عندما نقلت لها الخبر ، ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

ـ بل صحيح جداً !

ـ كيف ؟ أنا أقول لك هناك غلطة ! .. هل تعرفين أنت أخبار القاهرة أفضل مني ؟

هزت رأسها بالنفي وقالت : لا .. لا أعرف أخبار القاهرة، ولكن أعرف الأخبار هنا.

قلت في ذهول : ماذا تعرفين عن الأخبار هنا؟ .. وما علاقتها بهذه الرسالة؟ تقدمت مني بهدوء وقالت :

ـ منذ أيام قال لي المدير إنه لم يعد يستطيع استبقائي في الشركة ، لأن الشرطة سألته عن تصريح العمل. نصحتني أيضاً لا أبحث عن عمل آخر في المدينة لأنه سيكون هناك باستمرار من يسأل عن تصريح العمل . قال لي كل الحقيقة كآخر دليل على الصداقة . كآخر نصيحة .

ـ ولكن لماذا ؟

وضعت يدها على كتفى وأشارت باليد الأخرى إلى الخطاب المفتوح وقالت وهي تكاد تصرخ :

ـ حاول أن تفكرا!

ثم صرخت بالفعل وهي تتفن وجهها في كتفى.

ـ هذا عالم ماسيس وسموا الأمير ! لا فائدة !

★ ★ ★

لم يكن صعباً أن أفهم ولكنني حاولت أن أقطع كل شك . فشلت مرات كثيرة في الاتصال برئيس التحرير الذي كان أيضاً رئيساً لمجلس الإدارة ، وأدركت أنه يتهرب من الحديث معى وعندما نجحت في الاتصال به أخيراً ، كانت لهجة مليئة بالاعتذار وهو يكرر «ليس بيدي .. ليس بيدي أقسم لك» . ولكنه رفض أن يقول لي بيدي من . قال إنه يمكن أن يبذل مجهوداً ليجدد لي شهراً آخر حتى استكمل علاجي .

ولم يكن يعنينى كثيراً أن أبقى في المدينة شهراً آخر . كانت بريجيت تدبر نفسها للرحيل . قررت أن تعود إلى النمسا لتبقى فترة مع أبيها قبل أن ترى ما يمكن أن تفعله .

انتهى كل شيء ولم يعد بيدي ، أنت ، ما يمكن أن تفعله . لم يسطيء كثيراً ذلك اليوم .

خشيت نهايته فجاعت أسرع مما توقعت . ظللت تحارب هواجسك وأنت تخيل تلك النهاية : ستهرجك بريجيت ! .. ستتجد شاباً من سنها ، شخصاً من بلددها ، يحب الرقم كما تحب هي ، ويحب مثلها تسلق الجبال والتزلج على الجليد وتلك الأشياء التي كانت تذكرها عرضاً في حديثها معك والتي لا تعرف أنت عنها شيئاً . هل ستتصحو ذات يوم فتجد منها رسالة وداع ، أو تجدها قد اختفت دون وداع ؟ هل تأتى النهاية حين تسقط أنت مرة أخرى بعد أن تتمرد تلك الشريانين التالفة ، فلا تكون صحوة أخرى ولا شفاء آخر ؟

هل تأتى النهاية دون مخب على الإطلاق ؟ ينوى الحب وتقنه العادة والسام ؟ كل شيء تخيلته في لحظات الرعب من أن تخنق بريجيت من حياتك . كل شيء غير أن ينهى العالم ، كما قالت هي ذات مرة ، ما بيتك وبينها . غير أن ينقض ذلك السيف من المجهول فيبتربن منها .

كانت هناك صباره جف فيها كل شيء غير أشواكها المشرعة التي تخز لحمها العجوز ، صباره لا تموت ولا تحيي ، مددت لها يدك فيعثث أوراقها الميتة

لتكون شجرة من أشجارك الوارفة التي تحببنها، تقرعت فيها الأغصان ونبتت الأزهار، وها هو ذلك السيف يبتر الأغصان كلها دفعة واحد، لكي يعرى مرة أخرى الصبار والأشواك .

لكي ترجع العيون المفتوحة في الليل تتحقق في الظلمة .  
ذلك ما يحدث - فصارع إذن تلك الخيل التي تداهمك ، صارعها وحيداً أو معك الصبر أو دون الصبر . أرني ما يمكن أن تفعله .

ها هي بريجيت هناك - تحبك كما أحبتك في البدء - تشعر برعشة يديها بين يديك مثلاً شعرت بها في أول يوم، تقرأ في عينيها ذلك العشق الأول، ثابتة مثلاً كان، وها أنت حتى الآن مازالت طفلاً أبداً في قلب الحب الطفل، حين تحتويها يسقط عنك فجأة ثقل السنين وثقل الهموم وتطفو خفيفاً في نشوة الحب التي لا تنتهي . فحاول إذن أن تقبض على ذلك الأثير الذي سبحت فيه لحظة البعث القصيرة تلك . حاول منعه من أنه يتبدد أو أن يتلاشى .

قل لها فلتش في مدينة أخرى . فلتحاول أن تعلم بعيداً عن هنا، فستقول لك سئمت الهرب، و(هم) في كل مكان .

قل لها فلتنزوج فستقول لك أشباحنا كثيرة وستطاردنا أينما تكون . نحن أقصى مانستطيعه هو ما صنعناه بالفعل : أنتا اختلسنا من الزمن لحظاتنا تلك .

قل ما شئت . فسترجع الصبار، والرمال التي شربت النبع تتحول تحت أقدامك حجارة صلبة مدبية .

ضع في الظلمة خططاً وحلولاً فسيبئدها النهار .  
إركع . إبك . توسل . أرني ما تستطيع ، فها هي الليلة الأخيرة تأتي .  
ها أنتما في عصر يوم - كعصر ذلك اليوم الذي دخلت فيه تلك الشقة أول مرة، ولكن الستائر مسدلة والغرفة معتمة .

الغرفة خالية لم يبق فيها شيء .  
ترقدان معاً على الأرض الخشنة . تحيطها بذراعك وتحيطك بذراعها ، صامتين هامدين بعد أن حملتكم الموجة لآخر مرة .

تهمس لك بعد فترة :

- يمكنك ألا تأتى غدا . أستطيع أن أذهب وحدى .

- أعرف . لكنى سأتى .

تهمسين : هل تعرف من جاء ليودعنى اليوم؟

- مدير الشركة؟

- لا . كان المدير لطيفا مع ذلك وكان كريما . اشتري الأشياء القليلة التي تستحق الشراء في الشقة .

- إذن جاء ليودعك؟

- جاء في الصباح .. دخل من الشرفة .. لم يكن قد بقى في الشقة غير ما تراه . تلك المائدة الصغيرة والمقطان ..

- من دخل من الشرفة يا بريجيت؟

- .. دخل ثم شقشق بتحية الصباح . ظل يحدق في الغرفة، أعجبه صدى رفيق جناحيه في الغرفة الفارغة فظل يدور ويدور وأنا أقف دون حركة . في مكانى هنا جنب الشرفة لكي لا أزعجه ، وأخيراً حط على المائدة وراح ينظر نحوى في صمت وشقشق مرتين بصوت خافت . فهمت رسالته وقلت إنى أشكره، فظل يدور ببصره في الغرفة لليمين ولليسار ، وأخيراً رفع ساقه النحيلة وهرش بها رأسه . فتش في رأسه عن شيء آخر يقوله لي لكنه لم يجد . فدار مرة أخرى في الغرفة ثم اندفع للخارج، لمسني جناحه وهو يخرج . هل مات صديقك إبراهيم؟

نهضت بجذعى فجأة وأنا أهتف - لا ! لماذا تقولين ذلك؟

ظلت تثبت عينيها في وجهي وقالت دون أن تتحرك - أنا أأسأك هذا كل شيء . لست ساحرة ولا عرافه ، ولكنى مع ذلك رأيت موتها في عينيه فى أول مرة قابلته فيها . كان يجذبني وكان يخيفنى . احتجت مرة أن أشرب كثيرا، أن أفقد وعيى لكي أتخلص من مطاردته وأنجو من سحره ، ولكن كان هو الذى تخلص من سحرى . أنت تعرف ما كان بیننا، أليس كذلك ؟

- نعم ، أعرف ، ولكن لم قلت هذا الآن؟ يعذبني أنت لا أعرف شيئاً عنه .

- قلت لك أنا لست عرافه وأنا أيضاً لا أعرف شيئاً عنه .

- وهل أحببته .

- أبداً . كان مملئنا بالدنيا .

ثم مدت ذراعها وجذبته لأرقد مرة أخرى إلى جوارها .

قالت : أنت الذي أحببته . أحببتك صممت وأحببتك ثرثرت وأحببتك ما لم تقله بالصمت ولا بالثرثرة .

اقتربت مني . التصقت بي وقالت وهي تتحسس وجهي بثأناملها : أحببتك أن أشاهد نفسي أتغير معك ، أحببتك أن أراك تفقد السنين لتكون لي وأكسب السنين لكون لك . كانت هناك واحدة لم تضع منها الفرحة وحدها ، بل ضاع منها حتى الحزن والآلام . واحدة شاهدت نفسها تتلاشى . وحين وجدتك استردت نفسها ثم أصبحت أكبر وأكبر ..

ثم قلت في همسك باستسلام كامل وأنت تمسمدين شعري :

- والآن ها هي مرة أخرى تتلاشى .

غمغفت في يأس : ولكن لابد أنه توجد طريقة .

فكربت ودائى : بالطبع لابد وأنه توجد طريقة .

ثم نزلت بأصابعها على فمي وقالت : ولكن لا تسألنى ..

ثم نهضت ومالت بجذعها فوقى . انحنت بوجهها فوق وجهي . صنع شعرها خيمة أحاطتني وصنع عطرها هالة أحاطتني ويسقطت ذراعيها جناحين حولى ، وحلقنا معاً ، مرة أخرى . مرةأخيرة .

★ ★ ★

عندما ذهبت في ظهر اليوم التالي لأصحابها بالسيارة إلى المطار كانت تنتظرني أمام الباب بمعطف المطر وقبعة سوداء فوق رأسها وقد تركت شعرها

الطويل ينسدل على ظهرها . ورأيت وأنا أضع الحقيبة خلف السيارة مائتها الصغيرة والمقددين في كومة أمام المدخل .

قالت عندما تحركت السيارة : مازال الموعد مبكرا . لا أحب الانتظار طويلا في المطار . فلنجول قليلا .

- إلى أين تحبين أن تذهب ؟

- إلى أى مكان . أحببت هذه المدينة الصغيرة . قلت لنفسي هنا سأنسى العالم وسينسانى العالم ..

لكنها غيرت رأيها فورا : لا . لا داعي لذلك . لا أحب أن تكون آخر مرة أراها في هذا الجو الغائم . هي مدينة حزينة جدا تحت هذا السحاب .

- هناك غابة جميلة في طريق المطار إن أحببت أن نقى هناك لحظة ..

- لا . ولا حتى هذا . عندما تأتى النهاية يحسن ألا تطيل فيها .

- كما تثنين .

لزمت الصمت .. لم يعد عندي شيء أقوله . لم أعد أنا . رأيت نفسي ، مثلاها ، منذ مدة أتلاشي . لم تغب عنى أنها أيضا الفرحة وحدها ، بل غاب حتى الحزن والألم .

أنسندت بريجيت رأسها إلى مقعد السيارة وقالت :

- إذن فائين السلام يا صديقى ؟

فقلت بون وعي - أن ننام ، أن نحلم .

اعتدلت في مقعدها فجأة وهتفت : أنت قلت !

- ماذا قلت ؟

- أن ننام ، أن نحلم ! ألم تكن تسأل عن طريقة ؟ .. ها أنت أجبت ! وبالنوم ننهى ضئن القلب وألاف الفواجع التي هيء لها الجسد . ذلك هو الكدح الذي بقلبك تبتغيه ! ألم يكن هذا هو الشعر الذي تفكرا فيه ؟

-نعم.

- تلك هي السكينة التامة!.. أنت قلت فلا تتردد. لأنه في الواقع ياصديقي، حتى بدون هذا الشعر من يحتمل هذه الدنيا؟.. من يحتمل غطرسة المتكبرين والطغاة والأمراء وألام الحب المخنول والانتظار الطويل واستحالة العدل وهزيمة الرقة أمام الوحشية وكل تلك الأنانية وكل ذلك الظلم من يحتمل هذه الدنيا؟ أنت قلت!

نزع حزام الأمان لقعدتها فجأة وهي تكدر في لهاث تقريري:

- نعم، نعم، أنت نائم، أنت نعوت. ثم إنه ليس من الضروري أن يكون ذلك بالخنجر!.. ألسنت معى؟

ثم مدت يدها، ثم مالت بجسمها كله نحوى وراحت تدفع مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وأنا أصرخ : لا!.. لا يا بريجيت.. ليس الآن.. ليس هكذا.. لا!

وكانت هي تتبع باقتناع كامل - لماذا لا؟ لماذا ياصديقي؟.. هل تستمتع بالفعل بهذه الدنيا الكلبة؟ ما الذي تريده منها؟

وكانت تضفط بقدمها على قدمي وأنا أحاول أن أدفعها بعيدا عنى بكتفى أحاول أن أدفعها بعيدا بجسمى وكانت السيارة تتندفع إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فجنبت فرامل اليد قبل أن تنزلق من الحافة.

وتوقفت السيارة في صرير عنيف وهى ترتج.

وكنت أنحنى على مقود السيارة وأنا ألهث وسمعتها تقول مبهورة الأنفاس بصوت خافت:

- أرأيت؟ أنت لست مستعدا بعد!

★ ★ ★

رفضت بريجيت أن أودعها .. أخذت حقيبتها أمام المطار ورجتني ألا أدخل معها. قالت أكره موافق الوداع.

قبلتني في وجنتي قبلة خاطفة. قبلة صديق لصديق عابر قبل أن تستدير وتجه إلى الباب الزجاجي بسرعة. لم أكن أستطيع حتى أن أبقى لحظة لأراقبها قبل أن تختفي.. كانت أبواب السيارات أمام المطار تستحثني أن أخلُ الطريق.

انتهت وانتهت كل شيء.

ولكن بينما أقود السيارة قلت هناك شيء آخر يجب مع ذلك أن أفعله في هذه المدينة. حساب آخر يجب أن أصفيه.

★ ★ ★

عبرت الجسر الطويل ودخلت ضفة النهر الأخرى.

نادراً ما جئت هذا الحي وقليلًا ما أعرفه. صعدت في الطرق الجبلية ولكن كل الشوارع كانت تقاطع، وكانت كلها متشابهة.

أوقفت السيارة ورحت أراجع الخريطة التي معى وأفتش عن موضع العنوان الذي حصلت عليه.

تلفت حولي ولم أجد أحدًا أأسأه. لا يتجلو الناس على أقدامهم في هذا الحي. لم يكن هناك شيء غير أسوار القصور العالية تطل منها قمم أشجار التنوب المخروطية الخضراء.

وكان غيم وكانت عتمة.

تركت السيارة وبوتت اسم الشارع الذي وقفت فيه. وأخذت معى الخريطة وقلت سأبدأ من هذه النقطة.

سرت والخريطة في يدي، وكان الطريق يصعد في الجبل، فبدأت ألهث وأبطأ خطواتي.

شعرت بالتعب فجلست على جذع شجرة مقطوع وكانت من مكانى أطل على المدينة في ضفة النهر الأخرى. ولكن ضباباً كثيفاً كان يغلف المدينة فبدت مبانيها كتلارمادية متبااعدة. بدت شبحاً لمدينة. وجاءتني وأنا أنظر إلى المدينة تلك العبارة التي تطاردنا منذ مدة: سيمر الزمن وسينأى بعذنا من يعرف لم تعذبنا.

سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا، لا . لم يقل تشيخوف ذلك .  
قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن السعادة . ولكن هل سيذكرنا حقيقة أحد؟ .. هل ستذكرني هنادي؟ .. هل سيلد عذابنا تلك السعادة؟ .. بآية معجزة؟

فدت بعد أن استرحت قليلا.

صعود آخر.

لافتات صغيرة بأسماء الشوارع، أرقام الفيلات والقصور، ولكن لا توجد  
لافتات بأسماء ساكنيها .

عطر زهور نفاذ وأشجار عطرها يكاد يخترنـى .

كنت مخدراً بدونها . كان رأسى يدور من جهد الصعود المستمر .  
ولكن، بناء على الخريطة، هذا هو المكان .. قالت هو قصر كبير، لكنى لا أرى  
 شيئاً غير السور العالى والبوابة الحديدية ومن ورائها الأشجار يخترقها ممر  
مستقيم أمام البوابة، لكنه يدور ويختفى بعدها .

لا أرى شيئاً من ذلك القصر . ولكن هناك على الأقل لافتة بجوار البوابة  
الحديدية . نعم .

أحاول أن أقرأ . كانت الحروف كبيرة ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أقرأ بسهولة  
من الزغللة فى العينين وعتمة الضباب . اقتربت كثيراً . لم يكن هناك أيضاً اسم  
لساكن القصر . كانت العبارة تقول: احترس . كلاب شرسـة! وتحتها اضسطغ على  
الجرس، وتكلـم فى الـبـوق . عندما ضـفـطـت علىـ الجـرسـ جاءـنىـ بعدـ فـتـرـةـ عـبـرـ مـكـبـرـ  
الصـوتـ صـوتـ عـمـيقـ هـنـدىـ الـلـكـنةـ .

- من هناك؟

- أنا .. أريد أن أقابل الأمير حامـدـ .

- هل هناك موعد؟

ترددت لحظة ثم قلت: نـعـمـ .

- انتظر لحظة من فضلك.

غاب طويلا ثم جاء صوت ليإندا:

- هل أنت متتأكد أن هناك موعدا مع سمو الأمير؟

- قال لي إن بيته هو بيتي. قال أستطيع أن أتى في أى وقت.

- انتظر لحظة من فضلك.

غابت أيضا فترة طويلة. لم يرجع صوتها، بل جاء الصوت الهندي:

- سمو الأمير يقول إنه ليس هناك موعد. وإنه لا يريد أن يستقبل أحدا اليوم.

- أبلغه مع ذلك أن هناك شيئاً مهماً أريد أن أقوله له. شيئاً يهم الأمير كثيراً.

في هذه المرة رجع بعد الصمت الطويل صوت ليإندا. بدا كأنها تقرأ من ورقة

مكتوبة لأنها ردت بصوت رتيب:

- سموه يكرر أنه لا يريد أن يقابل أحدا. سموه لا يريد أن يسمع مثلك شيئاً.

يقول إنك تضايقه وهو لا يحب من يضايقه. سموه يسأل: لم لا ترحل من هنا  
بسرعة مثلاً رحلت صديقتك؟

- إذن قولي له إنني ..

ولكن الصوت انقطع من الهاتف وبدأ النباح فجأة. نباح شبرس كعاء متصل  
يقترب من البوابة، ثم حشد من كلاب نامضة البياض، طويلة السيقان، طويلة  
الأنياب، تصل بمصالبها البوابة الحديدية وتكتشف أنيابها وهي تزمرة وتحرجني  
بعينين نارية شريرة وهي تتواش وتعوى.

ابعدت عن البوابة ولكن الزمرة الوحشية كانت تتضاعف وتتضاعف، يجاريها  
نباح من القصور الأخرى. تعاونت كل كلاب حتى لطرد الغريب ولاحقني نباحها  
وأنا أهرب من طريق لا صعد في طريق آخر.

ها هو الأمر إذن. لا شيء غير نباح الكلاب. لن تصنف حسابك مع الأمير، لن  
تصنف الحساب مع الكلاب. لن تصنف مع الحجاب. نعم، ياصديقى أفهم أن

يردُّني الحجاب ولكن ماذا عن الكلاب؟ لن تصفى مع العالم أى حساب. كل شيء ينتهى. أنت وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت وإيلين ويوسف. أنت وخالد ومنار. كل شيء ينتهى. فماذا تنتظر؟ لماذا لم تطع بريجيت عندما حانت اللحظة؟.. أن تكونا معاً إلى الأبد بعيداً عن العالم، بعيداً عن الأمير، بعيداً عن الحرب التي لا تستطيع أن توقفها، عن الدماء التي لم ترقها ولكنك تغوص فيها. لماذا لم توانك الشجاعة؟.. لماذا لم تكن مستعداً؟..

مرة أخرى تلك الشوارع التي تصعد وتهبط. مرة أخرى أفقد الطريق. فقدته من زمن طويل. أمسكت الخريطة ورفعتها. قربتها إلى عيني. كانت خطوطاً متعرجة تثقبها نقط سوداء. لم أر شيئاً.

الضباب الآن ستار يحجب كل شيء. ستار من نقط ندية منمنمة تتوج ومن خلفها تترجرج القصور والأشجار.

أهبط، لا أستطيع الآن أن أصعد. إنس الخريطة وانس السيارة واتبع فقط كل الطرق التي تهبط في اتجاه النهر. إهبط باستمرار!.. أخيراً أصل حدقة صغيرة على شاطئ النهر. حدقة مهجورة وسط الضباب والبرد. ولكنني أجلس لها. النهر أمامي ممر ساكن من الرصاص والمدينة كتلة رمادية من نقط رجاجة..

لكن صوتنا يخترق الصمت، صوتنا مقروراً من البرد... شبح يتذرع بمعطف يجلس إلى جواري ويسأله بصوت مرتعش:

– هل تريدين؟

– نعم أريد.

– ماذا تريدين؟

– أن أفهم. من أكثر من خمسين سنة أحياول أن أفهم. حاول الطفل وحاول الرجل ورجع الطفل ومات الرجل وكله دون فائدة. مائة سنة لا تكفي.

– تريدين بخمسين أو تريدين بمائة. أسرع!.. الشرطة بعيداً ليست... اتضحت اللكتة الأجنبية واللغة المكسورة وقلت لنفسي أنا أعرف هذا الصوت،

أنا سمعت هذا الصوت من قبل.  
 - أسرع، حشيش مغربي أو أفغاني؟.. بخمسين أو بمائة؟.. أسرع الشرطة  
 بعيدا ليست ، الصنف معى. تعال معى ...  
 أدرت وجهي ولم أره. كان الوجه يتبرج أيضا ... رأيت وجهها من نقط منمنمة  
 له حاجبان كان تحت طاقية الرأس فقلت بصوت ضعيف - بيدرو..!  
 ولكن هل هو بيدرو بالفعل؟  
 قبل أن أكمل الاسم كان قد قام وجرى . اخترق .  
 هتفت فخرج صوتي ضعيفا: انتظر!.. انتظر!..  
 رجع مرة أخرى .  
 رجع بخطوات بطيئة . وكنت أنا أنزلق على المقعد . رغبتي لا تقاوم في أن  
 أتمدد عليه .  
 رفعت عيني ولكنه لم يكن بيدرو. كان شرطيا، وكان يتحول هو أيضا إلى نقط  
 منمنمة، راحت تتموج، وراح تحصر وراح تقيب .  
 وكان الصوت يأتي من بعيد.. ياسيد ياسيد .. هل أنت بخير؟  
 لم أكن متعبا . كنت أنزلق في بحر هادئ .. تحملني على ظهرى موجة ناعمة  
 وصوت ناعي عذب .  
 وقلت لنفسي: أهذه هي النهاية؟ ما أجملها! وكان الصوت يأتي من بعيد .  
 كان الصوت يكرر ياسيد!.. يا سيد!.. ولكنه راح يخفف وراح صوت الناي  
 يعلو .  
 وكانت الموجة تحملني بعيدا .  
 تتبرج في بطيء وتهدهدى .. والناي يصحبني بنغمته الشجية الطويلة إلى  
 السلام إلى السكينة .

تمت

**بهاء طاهر**  
 چنیف - ۱۹۹۵

## كلمة ختامية

●● هذه رواية ، أساسها الخيال . ولكن هناك مع ذلك  
أشياء حقيقة .

في الفصل الأول : قصة تعذيب بيدرو ايبانيز ومصرع  
شقيقه فريدي في شيلي . الاسمان حقيقيان والواقع حقيقة  
مع شيء من التصرف .

في الفصل السادس : شهادة الممرضة الترويجية عما  
حدث في عين الحلوة شهادة حقيقة ، وهي مزج من أقوال  
منشورة وحوار شخصي أجراه المؤلف معها . وقد غيرت  
اسمها الحقيقي .

في الفصل العاشر : المقال المنسوب إلى برنار ،  
الشخصية الروائية . نص لمقال حقيقى .

وفي الفصل الأخير : شهادة الصحفى الأمريكى رالف  
حقيقية ، الاسم حقيقى ، والواقع حقيقة .  
هذا ، ودم الشهداء .

بهاء طاهر